ألفاظ القسم

في افتتاح السور القرآنية

ومناسباتها الدلالية والفنية لمضمونها



الدكتور محمود الحسن



دمشق

ألفاظ القسم

في افتتاح السور القرآنية

ومناسباتها الدلالية والفنية لمضمونها

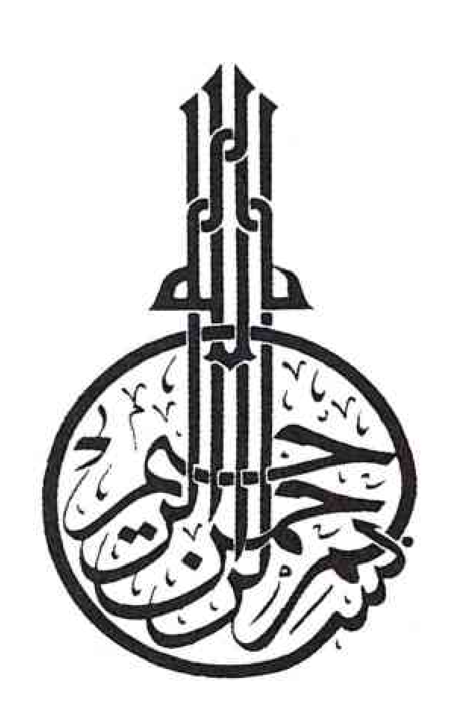
الدكتور محمود الحسن

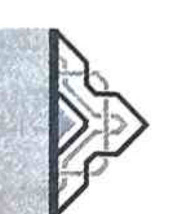
عضو الهيئة الفنية

في مجمع اللغة العربية بدمشق

دار القلم

دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم





المقدمــة

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّــلامُ على نبيِّه الأمين، محمَّدٍ وعلى آله وأصحابِه أجمعينَ.

وبعدُ: فمِمّا لا شــكَّ فيه أنّ القرآنَ الكريمَ هــو ذلك الكتابُ العظيمُ الذي لا تَنقضي عَجائبُه، ولا يُحاطُ بما فيه مــن فَيضِ المَعاني، وأزاهيرِ الحِكمة، وجواهرِ البَلاغةِ والبَيان، وكلُّ مَن شــاءَ أن يَســتظِلَّ بظلِّه، وأن يَغــوصَ في بَحــره، وأن يَتنزَّهَ في رياضِه، فســوفَ يَحظى بلــذّةِ الرُّوحِ والوجدان، ويَجني المُتعةَ ممّا يكتشِفُه من دقائقِ العِلم، وروائعِ الكُنوز.

وهذا البحثُ يَصبُّ في دراسةِ لغةِ القُرآنِ الكريمِ وأسلوبِه، والمَعاني الدَّلاليّةِ والصَّرفيّةِ لبعضِ ألفاظِه، التي اســتُعملَت في أســلوبِ القَسم، ووردَت في افتتاحِ السُّــوَر. وقد اخترتُ أن يكونَ عنوانُ البَحث: «**ألفاظُ القَسَم في افتتاح السُّوَرِ القرآنيّةِ ومناسباتُها الدَّلاليّةُ والفنيّة لمضمونها**».

وفيه سأتعرَّضُ لدراسةِ المَعاني الصَّرفية والدَّلاليّةِ لألفاظِ القَسَم في افتتاحِ السُّوَر، ومناقشــةِ آراءِ العلماءِ والمفسّــرينَ فيها، معَ الإشارة إلى الآراء الرّاجحةِ في ضَوءِ السِّــياقِ والمُناســباتِ الأُخــرى. ثم أنتقلُ إلى الحديثِ عمّا بينَ ألفاظِ القَســمِ وجوابِه ومضمونِ السُّورة من مُناسباتٍ

دَلاليّةٍ وفنيّة، علمًا أنّ السُّـوَرَ التي افتُتِحَت بالقسَـمِ في القُرآنِ الكريم، والتي تَناولَها البَحثُ، بلغَت ثلاثًا وعشرينَ سُورة.

وأقصِدُ بالمُناسـباتِ الدّلاليّةِ التّوافُقَ والتّطابُقَ بين دلالةِ لفظِ القسمِ وإيحاءاتِـه من جِهة، وبيـنَ المَوضوعاتِ والمَشـاهدِ والأحـداثِ التي تَعرضُها السُّورةُ من جهةٍ أُخرى. فالقَسـمُ بالمَلائكةِ مثلًا جاء في افتتاحِ السُّوَرِ التي تَحوي مَشاهدَ وأحداثًا تُعبّرُ عن صِفاتِهم والأعمالِ المَوكولةِ إليهم، كالوَحي، وتَدبيرِ أُمورِ الأرضِ والسَّـماءِ، وإحصاءِ عملِ الإنسان، ورَجمِ الشَّـياطينِ بالشُّـهُب، وإهلاكِ المُكذِّبينَ بعذابِ الدُّنيا، والسّاعةِ والحَشرِ والحِساب، وعذابِ النّارِ ونَعيمِ الجنّةِ وغيرِها.

والقَسـمُ بالرِّياح مثلًا وردَ في افتتاحِ سُـورةِ الذّارياتِ، التي جاءَت مَشاهدُها وأحداثُها سريعةً مُتتابعةً، تُحاكي في ذلك سُرعةَ الرِّياحِ وتقلُّبَها بيـنَ السَّـماءِ والأرض، وتُنذرُ النّاسَ بأنـه ليس لديهم متّسَـعٌ للتّفكيرِ والانتظار، بل عليهمُ المُبادرةُ إلى الإيمانِ والإسراعُ في التّوبة، وإلا فاتَ الأوانُ وخابَ سَعيُهم وخَسِرُوا أنفسَهُم.

والقَسمُ بوقتِ العَصرِ مثلًا جاءَ في سـياقِ الخُسران، ففيهِ تَنبيهٌ على أنّ عُمرَ الإنسان، الذي يكتسـبُ فيه الصّالحاتِ، يُوشِكُ أن يَنقضي كما يَنقضي النَّهارُ، ولم يبقَ فيه للتّوبةِ والعَمـلِ الصّالحِ إلا القَليل. فعليه أن يَستيقظَ من غفلتِه، وأن يُسرعَ قبلَ فَواتِ الأوانِ، فالمَجالُ ضيِّقٌ، والوقتُ قصيرٌ، ولا يَحتمِلُ التّباطُؤَ والتّأجيل.

أمّا المُناسـباتُ الفنيّـةُ فهي كثيـرةٌ ومُتنوّعة، فمنهـا ما يعودُ إلى التّصويرِ الفنّـيّ، ومنها ما يتعلّقُ بالنّواحي الصّوتيّـةِ والإيقاعيّة، ومنها

ما يرجعُ إلى التَّوازُنِ في التَّعابير، والتَّقابُلِ في المَشـاهد، وغير ذلك. وقد تحدَّثتُ عن المُناسـباتِ الفنيّة في أغلبِ السُّوَر، وخاصةً القَصيرةَ منها، نظـرًا لوُضوحِ تلـك المُناسـباتِ فيها، إلى درجـة اعتبارِها من المَقاصدِ الأساسيّةِ للتَّعبيرِ القُرآنيّ.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ الغَرضَ من البَحثِ دلاليٌّ في الدَّرجة الأُولى، وإنَّما أردتُ مـن الحَديثِ عن المُناسـباتِ الفنيّةِ، في بعضِ المَشـاهدِ والسُّوَرِ، التَّنبيهَ على النَّواحِي الجَماليّةِ في التَّعبيرِ القُرآنيّ، والخُروجَ من دائرةِ الجُمودِ المَعهودةِ في الدِّراسـاتِ اللُّغويّة، والتَّنقُّلَ في العَرضِ بين الأسـلوبَينِ العِلمي والأدبي ما أمكنَ، حرصًا على الفائدة والمُتعةِ معًا، وأملًا في بُلوغِ رضـا القارئِ الكريـم، علمًا أنه لا يُمكِـنُ الفصلُ بين النَّواحِي الفنيّـةِ والدَّلاليّةِ في التَّعبيرِ القُرآنـيّ، لأنها جميعًا من مقاصدِه وأسرارِ إعجازه.

والقَسـمُ في افتتاحِ السُّـوَرِ نَوعانِ: مفردٌ ومُتعـدِّد. فالمُفرَدُ هو الذي يكونُ بلفـظٍ واحدٍ كالنَّجمِ فـي قوله تعالـى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ ـ ٢]، وكالعَصرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ ـ ٢]. أمّا المُتعدِّدُ فيكونُ بعَددٍ من الألفاظ المَعطوفة، كما في قولـه تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [الطور: ١ ـ ٧]. وهذا النَّوعُ عرضتُه ضمنَ فصولِ البَحثِ بحسـبِ اللَّفظِ الأوّل، مع دراسةِ دلالاتِ الألفاظِ المعطوفةِ عليه، وبيانِ مناسباتِها.

فالقَسـمُ السّـابقُ مثلًا جاء في الفصلِ الثّالثِ الـذي يختصُّ بعوالمِ الأرضِ ومَخلوقاتِهـا، تحتَ عنوان: القسـمُ بالأماكنِ المُقدَّسـة، وفي

المَوضعِ ذاتِه دُرِسَت الألفاظُ الأخرى الواردةُ في سِياق القسمِ السّابق. وقد ظهرَ في البحثِ أنّ القسمَ سَواءٌ كان من النَّوعِ المُفرَدِ أم المُتعدِّدِ فثَمّةَ مناسباتٌ دلاليّةٌ وفنيّةٌ بين ألفاظِه من جِهة، وبينَ جوابِه ومضمونِ السُّورة من جِهةٍ أُخرى.

والقسمُ في افتتاحِ السُّوَرِ منه ما هو مَحذوفُ الجَواب، ومنه ما هو مَذكورُ الجَواب، فمِنَ الأوَّلِ نحوُ قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق: ١ ـ ٢]، فجوابُ القَسمِ هنا مَحذوفٌ، وللعلماءِ آراءٌ في استنتاجِه وتقديره، مُدوَّنةٌ في مواضعِها من البَحث.

ومن أمثلةِ القسمِ المَذكورِ الجَوابِ قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧]. فجوابُ القسمِ هو الآيةُ السّابعة. وسواءٌ كان جوابُ القَسمِ مَحذوفًا أم مَذكورًا فقد تبيَّنَ في البَحثِ أنّ مَجيئَه في افتتاحِ السُّورة يكونُ مُتناسِبًا مع جوابِه إن وُجِد، ومع مضمونِ السُّورة كلِّها، من النّواحي الدّلاليّةِ والفنيّة.

وممّا يتّصلُ بموضوعِ القسمِ مَجيءُ الأحرفِ المُقطَّعةِ في افتتاحِ السُّوَر، فقد ذهب بعضُ العلماءِ والمُفسّرينَ إلى أنّها حيثُما وردَت فهي قسمٌ، ومن أمثلتِها قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١ ـ ٢]، فيكونُ «حم» على رأيهم قسمًا، وما بعدَه جوابًا له. وبحسبِ مَذهبِهم فإنّ نحوَ قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١] فيه «ص» قسمٌ و«القرآن» معطوفٌ عليه، فهو من النّوعِ المُتعدِّد.

وذهبَ فريقٌ آخرُ من العُلماء والمُفسّــرينَ إلى أنّ الأحرفَ المُقطّعةَ ليسَــت قســمًا، فقولــه تعالــى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١ ـ ٢] ليس فيه قســمٌ على رأيِهم، أمّا قولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١] فالمُقسَم به هو القرآن، والقسمُ من النَّوع المُفرَد. ومهما يكنْ فإن الأحرفَ المُقطّعةَ ليس لها دلالةٌ لغويّةٌ واضحةٌ كدلالةِ الألفاظ، ولذلك لم تَدخل في البَحث.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ ما عليه جمهورُ المُفسِّرينَ، بالنِّسبةِ للحروفِ المُقطَّعة، أنَّها حروفٌ يُشــار بها إلى أنّ القرآنَ الكريــمَ مؤلَّفٌ من هذه الحروفِ التي تتألَّف منها لغةُ العرب، ومع ذلك لا يســتطيعونَ أن يأتُوا بمثلِه، فهي تنويهٌ بفضلِ القُرآنِ الكريمِ وإعجازِه وعُلوِّ مَرتبتِه البَلاغيّة.

وممَّن أشــارَ إلى موضوعِ البَحثِ ابنُ القَيِّــم (ت ٧٥١هـ) في كتابه «**التِّبيانُ في أقســامِ القُرآن**»، حيثُ حاولَ أن يلتمــسَ أحيانًا، وعلى وجهِ السُّرعةِ، مُناسباتٍ دلاليّةً بين الألفاظِ المُستعمَلة في القَسم، وبينَ جوابِ القسمِ ومَضمونِ السُّورة، كما ســيتَّضحُ في البَحث. لكنّ جهدَه في هذا المَجالِ اقتصرَ على بعضِ السُّوَرِ، دونَ استقصاءٍ أو تعمُّق، واتّسمَ بطابعِ السُّــرعةِ والإشــاراتِ المُوجَزة، وكان تركيزُه يَنصَبُّ علــى عرضِ آراءِ المُفسِّرينَ في المُرادِ بألفاظِ القسمِ، ومناقشةِ تلكَ الآراءِ والتَّرجيحِ بينَها.

وبذلكَ يُمكــنُ تصنيفُ جهدِه على أنّه في مجالِ التَّفســيرِ والتماسِ الإعجازِ العِلميِّ خاصّــةً في القرآنِ الكريم، يُضافُ إلــى ذلك أنّه تناولَ أُسلوبَ القسمِ في القُرآنِ عامّةً، ولم يُخصِّصْه بافتتاح السُّوَرِ، ولهذا كانَت المَواضعُ التي يتقاطَعُ فيها كتابُه مــع البَحثِ محدودةً ومُتفرِّقة، ولم تنلْ حقَّها من الدِّراسةِ وفقَ المَنهجِ المُتَّبَعِ في هذا البَحث.

وفي المُقابلِ نجدُ مُصنَّفاتِ التَّفسيرِ عامّةً اهتمَّت بالمُناسبةِ بينَ ألفاظِ القسمِ وجوابِه، دونَ الاهتمامِ بالمُناسبةِ بينَ ألفاظِ القسمِ ومَضمونِ السُّوَرِ بوجهٍ عامٍّ، وكان جهدُ المُفسّرينَ مُنصرفًا إلى جمعِ الآراءِ والأقوالِ ومُناقشتِها، دونَ التَّعمُّقِ في دراسةِ المُناسِباتِ دراسةً دلاليّةً صِرفةً. وبذلك يُمكنُ القولُ بأنّ مُعظَم مادّةِ البَحثِ مَبثوثةٌ في كتبِ التَّفسيرِ وموزَّعةٌ في تَضاعيفِها، ولكنَّها غيرُ مُستوفاةٍ في أيٍّ مِن تلكَ المُصنَّفاتِ.

وأهمُّ الدِّراساتِ المُعاصِرة التي اهتمَّ أصحابُها بأسلوبِ القَسمِ في القُرآن الكريم «**أسلوبُ القَسمِ في القُرآنِ الكَريم: دراسةٌ بَلاغية**»، وهي رسالةُ ماجستير أعدَّها الباحثُ علي الحارثي، بإشراف الدكتور فتحي فريد، في جامعة أمِّ القُرى، عام ١٩٩١، وتقعُ في مُجلَّدَينِ كَبيرَينِ، استوَفى فيهما دراسةَ الخَصائصِ البَلاغيّةِ لأُسلوبِ القَسمِ في القُرآنِ الكريم، لكنَّه لم يَستوفِ كلَّ المَواضعِ التي وردَ فيها القَسمُ، بل اكتفَى بنماذجَ منها، عرضَ فيها أقوالَ العلماءِ والمُفسِّرينَ بإسهابٍ وتَفصيل.

والذي يُلاحَظ في الرِّسالةِ أنّ الباحثَ بذلَ جهدًا طيِّبًا في التماسِ الخصائصِ البَلاغيّةِ لأسلوبِ القسمِ، لكنَّه أسهبَ في عرضِ الآراءِ والأقوالِ والخِلافاتِ والحجج، المَنسوبةِ للعلماءِ والمُفسِّرينَ، وأوكلَ إلى تلكَ الآراءِ التَّصريحَ بمضمونِ البَحثِ، فكانَتِ السِّمةُ الغالبةُ على عملِه هي جمعُ الآراءِ وحَشدُها، وهي مرحلةٌ يُفترَضُ من النّاحيةِ المَنهجيّةِ أن تكونَ خطوةً مُهمّةً تسبقُ إنجازَ البَحث، إلا أنّ الباحثَ الفاضلَ وقفَ عندَها، معَ أنّ له جهدًا لا يُنكَر في الاستنتاجِ والتَّرجيح.

أمّا صلةُ الرِّسالةِ بموضوعِ هذا البحثِ، وهو المُناسباتُ الدَّلاليّةُ والفنيّةُ بينَ ألفاظِ القسمِ ومضمونِ السُّوَر، فلا تتقاطعُ معه إلا في أربعةِ

مواضعَ من أصلِ ثلاثةٍ وعشرينَ احتواها هذا البحثُ، فَضلًا عن أنّ موضوعَ الرِّسالةِ يَرتبطُ بالبَلاغةِ، على حينَ أنّ هذا البحثَ يندرجُ ضمنَ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ عامّةً، والدّلاليّةِ خاصّةً. وقد أشرتُ في حواشي البحثِ إلى المَواضعِ المُشتركة بينَ الرِّسالةِ والبَحث.

ومِن المُؤلَّفاتِ المُعاصِرةِ، التي تَناولَت موضوعَ القَسمِ، كتابُ «**القَسَمُ في القُرآنِ الكريم**» للدكتور حسين نصّار. وهو كتابٌ مختصَرٌ يغلبُ عليه الإيجازُ، ومناقشةُ الآراءِ ونَقدُها، وهو أشبَهُ بمُلاحظاتٍ عامّةٍ مُتفرّقةٍ على أسلوبِ القَسم، تعرَّضَ فيه المُؤلِّفُ لصِيَغِه وأقسامِه وبِنيتِه وأغراضِه وأركانِه، وما يَرتبطُ به من زيادةٍ وحَذفٍ، مع إشاراتٍ مُوجَزةٍ إلى العلاقةِ بين ألفاظِ القسمِ وجَوابِه.

ويتألَّفُ البحثُ من مُقدِّمةٍ وتمهيدٍ وخاتمةٍ وثلاثةِ فُصول.

ففي **التَّمهيد** تحدَّثتُ عن أركانِ القَسمِ، وهي المُقسَمُ به، والمُقسَمُ عليه، وفعلُ القَسم، وأحرفُه. ثم تعرَّضتُ باختصارٍ لصيَغ الأيمانِ التي كانت تُستعمَل في الجاهليّة والإسلام، ثم ذكرتُ أنواعَ القَسَمِ في القرآن والكريمِ، والفرقَ بينَ القسَمِ الذي وردَ في افتتاحِ السُّور، والذي يأتي في أثنائها، من حيثُ المناسباتُ الدلاليّةُ والفنيّة.

وتحدَّثتُ في **الفصلِ الأوّلِ** عنِ القسمِ بالقرآنِ الكريم، حيثُ عرضتُ السُّوَرَ التي افتُتِحَت به، وهي خمسٌ، ثلاثٌ منها جاءَ فيها القَسم بلفظ القُرآنِ وهي (يس) و(ص) و(ق)، واثنتانِ منها وردَ القسمُ فيهما بالقرآنِ الكريم بلفظِ الكِتاب، وهما سُورتا الزُّخرُف والدُّخان. وفي هذا الفَصلِ تحدَّثتُ عن المَعاني الصَّرفيّةِ والأصولِ الاشتقاقيّةِ لكلٍّ من القرآنِ

والكِتاب، ثم تكلَّمتُ على المُناسباتِ الدَّلاليّةِ بين اللَّفظِ المُقسَمِ به من جِهة، وبينَ جوابِ القسمِ المَذكورِ أو المُقدَّرِ ومَضمونِ السُّورة عامّةً من جِهةٍ أُخرى.

والذي يُلاحَظ على السُّـوَرِ التي افتُتِحَت بالقَسمِ بالقرآنِ الكريمِ أنّها تُعدُّ من السُّـوَرِ الطَّويلةِ نِسـبيًّا، لذلك اكتفيتُ بالحَديثِ عن المُناسَباتِ الدَّلاليّةِ، حِرصًـا على الاختصار والالتزامِ بحدودِ البَحث، مع الإشـارة أحيانًا إلى بعضِ المُناسباتِ الفنيّةِ والإيقاعيّة.

وفي **الفَصل الثّاني** تحدَّثتُ عن القسـمِ بالغَيبيّاتِ وعَوالمِ السَّـماء، والمَقصودُ بالغَيبيّاتِ كلُّ ما غابَ عن حسِّ الإنسـانِ واستترَ عنه، وممّا وردَ القسـمُ به من الغَيبيّـاتِ المَلائكـةُ في افتتـاحِ سُـورة الصَّافّاتِ والمُرسَلاتِ والنّازعات، والقلمُ والكتابةُ باعتبارهما من الأمورِ التي تقومُ بها المَلائكةُ، في سُـورة القَلم، ويومُ القيامةِ في افتتاح سُورة القِيامة. أمّا عَوالِمُ السَّماءِ التي وردَ القسـمُ بها في افتتاحِ السُّوَرِ فهي النَّجمُ والسَّماءُ والشَّمس، وقد جاءَت في سورة النَّجمِ والبُروجِ والطّارقِ والشّمس.

والغالبُ على القسـمِ في هذا الفَصلِ أنّه من النَّـوعِ المُتعدِّد، الذي يَحوي أحيانًا ألفاظًا ليسَـت من الغَيبيّاتِ أو عوالمِ السَّماء، أو فيها آراءٌ تُفضي إلى أنّها ليسَت منها، فناقشتُ كلَّ الآراءِ والاحتِمالاتِ والدَّلالات، وذكرتُ المُناسـباتِ الدَّلاليّةَ والفنيّةَ والإيقاعيّـة، وإنما عرضتُها في هذا الفصلِ باعتبارِ اللَّفظِ الأوّلِ منها.

وفي **الفصلِ الثّالث** تحدَّثتُ عن القسـمِ بعوالمِ الأرضِ ومَخلوقاتِها، كاللّيلِ والنّهارِ والفجرِ ووقتِ العَصر، التي جاءَت في افتتاحِ سُورة الفَجرِ

واللَّيلِ والضُّحى والعَصر، وتحدَّثتُ أيضًا عن القسمِ بالرِّياحِ في ابتداءِ سُورة الذّاريات، ثم انتقلتُ إلى دراسةِ القسمِ بالأماكنِ المُقدَّسةِ، كالطُّورِ والبلدِ الحَرامِ في سُورتَيِ الطُّورِ والبَلد، وأخيرًا توقَّفتُ عندَ القسمِ بالنَّباتِ والحَيوانِ في سُورتَيِ التِّينِ والعاديات، حيثُ أقسمَ في الأُولى بالتِّينِ والزَّيتون، وفي الثّانيةِ بالعادياتِ ضَبحًا وهي الخَيل.

ويَغلبُ على القَسمِ في هذا الفَصلِ، كما في الفصلِ السّابقِ، النَّوعُ المُتعدِّدُ، الذي يَحوي ألفاظًا لا تنتمي إلى عوالمِ الأرضِ ومَخلوقاتِها، أو التي فيها آراءٌ تُفضي إلى أنَّها ليسَت منها، فناقشتُ أيضًا كلَّ الآراءِ والدَّلالاتِ، وذكرتُ المُناسباتِ الدَّلاليّةَ والفنيّة، في هذا الفصلِ باعتبارِ اللَّفظِ الأوَّل.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ بعضَ ألفاظِ القسمِ في هذا الفصلِ مُشتركٌ بين عوالمِ السَّماءِ وعوالمِ الأرض، كاللَّيلِ والنَّهارِ والفَجرِ والعَصرِ والرِّيح، إلا أنَّني عرضتُه ضمنَ عوالمِ الأرض، لأنه أكثرُ وُضوحًا وتأثيرًا وانعكاسًا على الحياة فيها، وإن كانَت أسبابُه في السَّماء.

وأخيرًا تحدَّثتُ في **الخاتمةِ** بإيجازٍ عن أهمِّ النَّتائجِ التي توصَّلَ إليها البَحث.

وأهمُّ المصادرِ والمَراجعِ التي اعتمدَ عليها البحثُ: مصنَّفاتُ التَّفسيرِ عامّةً، والحديثِ الشَّريفِ، وعلومِ القُرآن، إضافةً إلى المَعاجمِ اللُّغويّةِ، والكتبِ النَّحويّة.

والمَنهجُ المتَّبعُ في البحثِ هو المنهجُ الوَصفيُّ الذي يقومُ على الاستقراءِ والتَّحليلِ والاستنتاج، حيثُ يسودُ الاستقراءُ في جَمعِ آراءِ

العلماءِ والمُفسِّرينَ وأقوالِهم، ويَســودُ التَّحليلُ لدى النَّظرِ والتّأمُّلِ في تلك الآراءِ ورَبطِها بالمَعاني والسِّـياق، على حينَ اعتمدتُ الاستنتاجَ في إثباتِ المُناسـباتِ الدَّلاليّةِ والفنيّة، والوُصولِ إلى النَّتائجِ المَرجوّةِ من البَحث.

أمّا منهجُ العرضِ فيقومُ على دراسةِ المُناسباتِ ضمنَ مفاهيمَ جامعةٍ، جعلتُها عناوينَ للفُصــول الثّلاثة، وعنها تفرَّعَـتِ العناوينُ الجزئيّةُ التي احتوتِ المادةَ المَدروســة، على حينَ كانت دراســةُ المُناسـباتِ داخلَ العَناوينِ الجُزئيّةِ مَعروضةً بحسبِ ترتيبِ السُّوَرِ في المُصحَفِ الشَّريف.

وأســألُ اللهَ تعالى أن يَعصمني من الزَّللِ، وأن يُلهمَني الصَّوابَ، وأن يجعلَ أعمالي خالِصةً لوَجهه الكريم، إنه سَميعٌ مُجيب.

د. محمود الحسن

دمشق ٢٠١٧/٩/٢١

التمهيد

ألفاظُ القَسمِ بينَ الجاهليّةِ والإسلام

يتألَّف أسلوبُ القَسمِ من ركنَينِ أساسيَّينِ، هما المُقسَمُ به والمُقسَمُ عليه، إضافةً إلى فعل القسمِ وأحرُفِه[1]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾ [المعارج: ٤٠ ـ ٤١]. فالمُقسَمُ به «ربّ المَشارقِ»، والمُقسَمُ عليه «إنّا لقادِرُونَ»، وفعل القسمِ «أقسِمُ»، وحرف القسم هو الباء[2].

وقال النبيُّ ﷺ: «فوَالذي نَفسِي بيَدِهِ لا يُؤمِنُ أحَدُكُم حتّى أكونَ أحَبَّ إليهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ»[3]. فالمُقسَمُ به «الذي نَفسِي بيَدِهِ»، وما بعدَه جوابُ القَسَم، وحرف القسم هو الواو، وهي بدلٌ من الباء بإجماع العلماء، أمّا فعلُ القسمِ فمَحذوف، وحذفُه واجبٌ مع الواو والتاء، وجائزٌ مع الباء.

---

(١) يُنظر: المقتضب للمبرِّد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ص٣١٨، وشرح التسهيل لابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمٰن السيد، د. محمد بدوي المختون، ط١، دار هجر، ١٩٩٠، ٣: ١٩٥.

(٢) يُنظر: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٠: ٤٦٣.

(٣) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، ١: ١٢ تحت الرقم ١٤، وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ، ١: ٥٨.

وأحرفُ القَسمِ هي الباءُ والواوُ والتّاء، وأصلُها الباءُ، أمّا الواوُ فمُبدَلةٌ منها، على حينَ أنّ التاءَ مُبدَلةٌ من الواو وتختصُّ بلفظِ الجلالةِ، كما في قولِــه تعالــى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ۝٧٣ ﴾ [يوسف: ٧٣][١].

والغرضُ من القَسمِ تَوكيدُ الكلامِ وتَقويتُهُ، وتحقيقُ المُقسَمِ عليه[٢]. ولا بدَّ للَفظِ القَسَــمِ أن يكــونَ دالًّا على عظيمٍ في نفسِ مَن يُقسِــمُ به، ولهذا يكــونُ تابعًا لاعتقاداتِ النّاسِ وأديانِهم، جاء في صبح الأعشــى: «اعلَمْ أنّ مَبنَى الأيمانِ علــى الحَلْفِ بما يُعظِّمُه الحالــفُ، ويتَحرَّزُ مِنَ الحَنَثِ عندَ الحَلفِ به. فأهلُ كلِّ مِلّةٍ يَحلفــونَ بما هو عظيمٌ لديهِم في حُكمِ دِيانتِهم. ولا خفاءَ في أنّ كلَّ مُعتــرِفٍ للهِ تَعالى بالرُّبوبيّة من أهلِ الدِّياناتِ يَحلفُ به، سواءٌ كانَ من أهلِ الكتابِ أو مُشرِكًا»[٣].

وأسلوبُ القســمِ مَعروفٌ في الجاهليّةِ والإســلام، إلا أنّ ألفاظَه في الجاهليّةِ كانَت تختلــفُ بين قَبيلةٍ وأُخرى، بحســبِ اعتقــادِ كلِّ قبيلةٍ ودِيانتِها، فالقبائِلُ التي كانَت متمسّــكةً بإرثِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، والتــي تُمثِّلُ مُعظَمَ العــرب، كانت تُقسِــمُ باللهِ تعالى وصفاتِــه وقُدرتِه وأفعالِه، على نحو قول النّابغة[٤]:

حلَفتُ فلَم أترُكْ لِنَفسِكَ رِيبةً وَلَيسَ وراءَ اللهِ للمَرءِ مَذهَبُ

---

(١) يُنظر: المفصَّل في صنعة الإعراب للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د. علي بو ملحم، ط١، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٣، ص ٣٨٣.

(٢) يُنظر: القســم في القرآن الكريم، للدكتور حســين نصار، ط١، دار الثقافــة، القاهرة ٢٠٠١، ص ١١٧.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣: ٢٠٦.

(٤) ديوانه، شرح وتعليق: د. حنّا نصر الحتّي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١، ص ٢٣.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى في القُرآنِ الكريمِ عن هذه الطائفةِ من العربِ أنَّهم يُعظِّمونَه ويَحلفونَ به، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]. ومِن الأيمانِ المحفوظةِ عن هذه الطائفة نحو: «لا والذي يَرانِي من فوقِ سبعةِ أرقِعةٍ» أي من فوقِ سَبعِ سماواتٍ، ونحو: «لا والذي شَقَّ الرِّجالَ للخَيلِ، والجِبالَ للسَّيلِ» أي خَلَقَ، ومن ذلك: «لا والذي سَمَكَ السَّماءَ»، و«لا ومُجري الرِّياحِ» وغير ذلك ممّا يدلُّ على عظمةِ اللهِ تعالى وصفاتِه وقُدرتِه[١].

وفي المقابلِ كانَتِ القبائِلُ الوَثنيّةُ تحلفُ بآبائِها وبأوثانِها، وبالسَّماء والماءِ والنُّجومِ، وبالنُّور والظُّلمة وغيرها، وكانَ أكثرُ أهلِ الحِجازِ يَحلِفُونَ باللّاتِ والعُزَّى. ومن أيمانِهم: «لا ونَفنَفِ اللُّوحِ، والماءِ المَسفوحِ، والفَضاءِ المَندوحِ، والنُّورِ المَوجوحِ»، والنَّفنَفُ: الفضاء ما بينَ السَّماءِ والأرض. واللُّوح: الهواء. والمَسفوحُ: المَصبوبُ. والمَندوحُ: المُوَسَّعُ. والمَوجوحُ: المَحجوبُ[٢].

أمّا في الإسلامِ فقد نَهى النبيُّ ﷺ عن الحَلْفِ بغَيرِ اللهِ تعالى، فقال: «مَن كانَ حالِفًا فليَحلِفْ باللهِ أو لِيَصمُتْ»[٣]. وكان أكثرُ حَلفِ النّبيّ ﷺ بقولِه: «والّذي نَفسي بيدِه» وأيمانُ الصحابةِ في الغالب: وربِّ محمَّدٍ، وربِّ إبراهيمَ[٤].

---

(١) يُنظَر: أيمان العرب في الجاهلية، لأبي إسحاق النُّجيرمي (عاش في القرن الرابع)، نسخه وصحَّحه: محبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٣هـ، ص ١٤ ـ ١٨.

(٢) يُنظر: أيمان العرب في الجاهلية ص٢٣ ـ ٢٤، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٣: ٢٠٦.

(٣) صحيح البخاري ٣: ١٨٠ تحت الرقم ٢٦٧٩، وصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٣: ١٢٦٧ تحت الرقم ١٦٤٦.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٣: ٢١٠ ـ ٢١١.

وأمّا في القرآنِ الكريمِ فقد أقسَمَ اللهُ تعالى بذاتِه، كما أقسَمَ بما يدلُّ على عظمتِه من المَخلوقاتِ والأمورِ الغَيبيّةِ والكتبِ السَّماويّة وغيرها. فمِن أمثلةِ القَسَمِ بذاتِه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]. ومِن أمثلةِ القسَمِ بمخلوقاتِه قولُه تَعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧]. وسيظهرُ في البحثِ أنّ للقَسَمِ في القرآن الكريم مقاصدَ دلاليّةً وبلاغيّة، ومناسباتٍ أسلوبيّةً وفنيّة.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ القسمَ في القرآن الكريمِ منه ما وردَ في افتِتاحِ السُّوَرِ، وهو موضوعُ البحث، كقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ١ ـ ٣]، ومنه ما وردَ في أثناءِ السُّوَرِ نحوُ قولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٩].

والفرقُ بين الضَّربَينِ من حيثُ المُناسباتُ الدَّلاليّةُ والفنيّةُ يتلخَّصُ في أنَّ القسمَ في أثناءِ السُّوَرِ يكونُ مُتناسِبًا مع جوابِه وسياقِه فحَسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣]. فقد أقسمَ بربِّ السَّماءِ والأرضِ على الرِّزق، بعد أن أخبرَ أنّ الرِّزقَ في السَّماءِ، فدلَّ بذلك على أن مفاتيحَ الرِّزقِ بيدِ الله وحدَهُ، وأنّه لن يَحرِمَ أحدًا من خَلقِه[1].

---

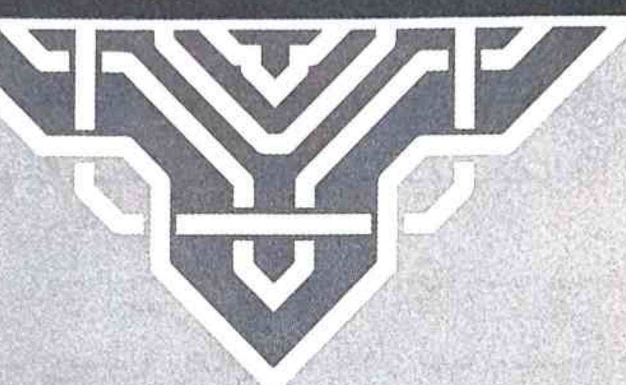
(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ص ٣٢٩.

أمّا القسمُ في افتتاح السُّوَرِ فيكونُ متناسـبًا مع جوابِه ومع مضمونِ السُّـورة عامّةً، من النّواحي الدَّلاليّةِ والفنيّة، وهو الموضوعُ الذي يدورُ عليه هذا البحثُ.

✿ ✿ ✿



الفَصلُ الأوّل



القَسمُ بالقرآنِ الكَريم



يُعدُّ أسلوبُ القَسمِ من أساليبِ التَّوكيد، التي تُفيدُ تقويةَ الكلامِ، وقوّةَ المَعنى، وإثباتَ المُقسَمِ عليه. ولفظُ القسمِ لا يكونُ إلا بعظيمٍ، ولذلكَ فإنّ القسمَ بالقرآنِ الكريمِ فيه تعظيمٌ له وتَنويهٌ بشرفه وعُلوِّ شأنِه[1].

وقد وردَ القَسمُ بالقرآنِ الكريمِ في افتتاحِ السُّوَرِ في خمسةِ مواضِعَ، ثلاثةٍ منها جاء القَسمُ فيها بلفظِ «القُرآن»، واثنينِ منها جاءَ القسمُ فيهما بلفظِ «الكتاب»، وفيما يلي عرضٌ لتلكَ المَواضِع، وما يَرتبطُ بها مِن معانٍ صَرفيّةٍ، ومُناسباتٍ دلاليّة.

القسم بلفظ القرآن

وردَ القسمُ بلفظِ «القرآن» في ثلاثةِ مواضعَ، فقد جاءَ في افتتاحِ سُورةِ «يس» في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ـ ٢]، وفي افتتاحِ سورةِ «ص» في قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وفي مفتتَح سُورة «ق» في قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١].

ولفظُ القرآنِ في المَواضعِ الثّلاثةِ واحدٌ، إلا أنّ المُختَلِف هو صِفتُه، إذ وُصِفَ في سُورة «يس» بالحَكيم، وفي سُورة «ص» بذي الذِّكر، وفي

(١) يُنظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤، ٢٦: ٢٧٦.

سورة «ق» بالمَجيد. فما المُناسبةُ بينَ لفظِ القرآنِ ومضمونِ هذه السُّوَرِ الثَّلاثِ مُجتمعةً، ثم ما العلاقةُ بينَ الوَصفِ المُختارِ له في كلِّ سُورة منها وبينَ مضمونِ السُّورة ذاتِها؟

إنّ لفظَ «القرآن» في السُّوَرِ الثَّلاثِ يدلُّ على الكلام المُعجزِ الذي أنزلَه اللهُ تعالى على نبيِّه محمَّد ﷺ، وهو في الأصل مصدرٌ للفعل قرأ يَقرأُ، مزيدٌ بالألف والنون، فوزنُه «الفُعلان»[1]. وزيادةُ الألفِ والنون تُفيدُ المبالغةَ، انطلاقًا من أنّ كلَّ زيادةٍ ليست لمعنًى فهي للمبالغة[2].

فتَسميةُ الكلامِ المُنزَلِ على النبيِّ ﷺ قرآنًا هي من باب التَّسميةِ بالمَصدر، أي إنّ بناءَ المَصدرِ استُعيرَ للدَّلالةِ على مُسمًّى يُدرَكُ بالحَواس. وفي هذا الاستعمالِ مبالغةٌ تتمثَّلُ في قوّةِ المَعنى ودِقّتِه[3]، كما سيتَّضِحُ بعدَ قليل.

وللعلماءِ آراءٌ متعدِّدةٌ في دلالة لفظِ القرآنِ وأصلِه الصَّرفيّ أهمها:

١ ـ أنّه مصدرُ قَرأ يَقرأُ بمعنى جَمَعَ يَجمَعُ، وأُطلِق لفظُه على الكتاب المُنزَلِ وإمَّا لأنّه يَقرأُ السُّوَرَ، أي يَجمَعُها، إمَّا لأنّه جمعَ القَصصَ، والأمرَ

---

(١) يُنظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨١هـ، ٢: ٢٧٨، والكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ، ٤: ٦٦١، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت ١٤١٢هـ، ص ٦٦٨.

(٢) يُنظر: المقتضب للمبرد ٣: ٢٢٦.

(٣) يُنظر في مفهوم المبالغة: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي (ت ٩٩٢هـ)، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٨٣م، ١: ٩.

والنَّهيَ، والوَعـدَ والوَعيدَ، والآياتِ والسُّـوَرَ، بعضَها إلى بعض[١]. فهو مصدرٌ بمعنى اسـمِ الفاعل: القارِئ الجامـع، عُبِّر به عن اسـم الذّاتِ لدلالتِه على مُسمًّى يُدرَك بالحَواس.

٢ ـ أنّه مصدرٌ للفعل: قرأ يَقـرأُ، بمعنى تلا يَتلو، فيكونُ إطلاقُه على الكتابِ المُنـزَلِ باعتبـارِه مَقروءًا أي مَتلُـوًّا. فهو مصدرٌ بمعنى اسـمِ المَفعول: المَقروء المَتلوّ، عُبِّر به عن اسمِ الذّات[٢].

وكلا التَّفسـيرَينِ الصَّرفيَّيـنِ يُعبِّـرانِ عن خصائصِ القـرآنِ الكريمِ ومضمونِه، فهما حاضرانِ معًا حيثُما استُعمِل لفظُ القرآنِ مُرادًا به الكلامُ المُنزَل. وقد يكون للسِّـياقِ في بعضِ المَواضعِ أثرٌ في ترجيحِ أحدِهما على الآخر.

فلفظُ «القرآن» فـي المَواضع الثّلاثـةِ المَذكورةِ يُرجَّـحُ أنّه: مصدرٌ للفعل قرأ يَقرأُ، بمعنى اسـم المفعول: المَقروء المَتلـوّ للمُبالغة، عُبِّر به عن اسـم الذّاتِ لتوكيدِ المُبالغة. وكذلك هو في نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، لأنّـه يدلُّ على ما يُنزَّلُ من الآياتِ ويُتلَى على الصَّحابة، وكذلك في قولِه تَعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لدلالتِه على ما يُقرأُ ويُتلَى من الآيات. فلفـظُ القرآنِ في المَواضعِ السّـابقةِ يتضمَّنُ الدلالةَ على أنّه يُتلى ويُقرأُ لاستخلاصِ ما فيه من أحكام، والدلالةَ على

---

(١) يُنظر: لسـان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢، وتاج العروس للمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ، مادة (قرأ).

(٢) يُنظر: الجامع لأحكام القـرآن للقرطبـي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمـد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، ٢: ٢٩٨.

أنّه يَقرأُ السُّوَرَ أي يَجمعُها، إلا أنّ كونَه مَقروءًا مَتلوًّا هي الدَّلالةُ الرّاجِحةُ بحسبِ السِّياق.

أمّا لفظُ «القرآن» في نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، فهو يدلُّ على القراءةِ والجمعِ معًا، إلا أنّ مَعنى الجَمعِ للسُّوَرِ هو الرَّاجِحُ بحسبِ السِّياق، وذلك لأنّ مثلَ هذه المواضعِ التي وردَ فيها لفظُ «القرآن» أُريد فيها الحديثُ عن عظمةِ القرآنِ وإعجازه وإحكامِه وشُمولِه وتَمامِه، والمعنى المُلائمُ أنّه تامٌّ يَجمعُ السُّوَرَ كُلَّها وفقَ نظامٍ مُحكَم. فتكونُ دلالتُه الصَّرفيّةُ أنّه مصدرٌ للفعل: قرأ يَقرأُ، أي جَمَع يَجمعُ، بمعنى اسمِ الفاعل: القارِئ الجامعِ للمُبالغة، عُبِّر به عن اسم الذّاتِ لتَوكيدِ المُبالغة.

إذنْ فكلمةُ «القرآن» في الأصل مصدرٌ يدلُّ على الحدث، أي على معنًى يُدرَكُ بالعَقل، اكتسبَ الدَّلالةَ الوَصفيّةَ لاسم الفاعل أو المَفعول، فأصبحَ مُلائمًا لإطلاقه على مُسمًّى يُدرَكُ بالحَواس وهو الكتابُ المُنزَل. و«ال» فيه زائدةٌ لِلَمحِ الأصل[1]، أي إنّ زيادتَها تُشيرُ إلى الأصلِ المَصدريِّ الذي نُقِلَ منه الاسمُ الذي أُطلِقَ على مُسمًّى يُدرَكُ بالحَواس.

وحينَ يكتسبُ المَصدرُ معنًى وَصفيًا يُفيدُ **المُبالغةَ**، لدَلالةِ لفظِه في آنٍ واحدٍ على الحدثِ المَعنويِّ المُجرَّد، إضافةً إلى المَعنى الذي تدلّ

---

(١) المفصل في تفسير الجلالين للدكتور فخر الدين قباوة، ط١، دار لبنان (ناشرون)، بيروت ٢٠٠٩، ص١٨٢٩.

عليه المُشـتقاتُ الوَصفيّة، أي إنّ اللَّفظَ الواحدَ أصبحَ يُـؤدّي وَظيفتَينِ صَرفيَّتَينِ ينتـجُ عنهما دلالةٌ لغويةٌ مركَّبة، وحين يُضـافُ إلى الوَظيفتَينِ السّابقتَينِ الدَّلالةُ على اسمِ الذّاتِ المَحسوسِ يُصبحُ اللَّفظُ الواحدُ مُؤدّيًا ثلاثَ وظائفَ صرفيّـةٍ، إذ يَجتمعُ في اللَّفـظِ الواحدِ: مَفهـومُ الحَدثِ المَعنويِّ المُجرَّد، والوَظيفةُ الوَصفيّةُ، والدَّلالةُ على المُسمَّى الذي يُدرَكُ بالحَواس، ويكـونُ الغرضُ مـن التَّعبيـرِ بالمَصـدرِ، المُتضمِّنِ معنى الوَصفِ، عن اسمِ الذّات هو **المُبالغةُ وتَوكيدُها**.

والقَسـمُ بلفظِ «القرآن» دونَ غيرِه، في المَواضـعِ الثَّلاثةِ، فيه تأييدٌ لنُبوّةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وذلك بذكرِ أعظمِ مُعجزةٍ أيَّدَهُ اللهُ بها، ألا وهي القُرآنُ الكريمُ،[1] وفيه إيذانٌ بأنّ السُّـوَرَ الثَّلاثَ تضمَّنَت أُمـورًا خَطيرةً تتعلَّقُ بالعَقيدةِ كصِـدقِ الوَحيِ والأنبياءِ والكتـبِ السَّـماويّةِ، ووَحدانيّةِ اللهِ، والبَعثِ والنُّشـورِ، والجنّةِ والنّارِ، وخَلقِ الإنسانِ والكونِ، ومَصيرِ الأُمَمِ التي كذَّبَتِ الرُّسُـلَ، وهذه الأمورُ لا يَفصلُ فيها إلا القرآنُ الكريمُ، ولا يُتوَصَّلُ إلى حُكمِها إلا بتلاوتِه وتَدبُّرِه، ولهذا جاءَ القسـمُ بلفظِ القُرآنِ، باعتبارِه مَقروءًا مَتلُوًّا، في افتتاحِ السُّوَرِ الثَّلاثِ، مُناسِبًا لمَضمونِها.

وتَجدرُ الإشارةُ إلى أنّ لفظَ «القرآن» وردَ مُرادًا به الوَظيفةُ المَصدريّةُ فحَسـب، وذلك في نحوِ قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامـة: ١٦ ـ ١٧]، أي قراءتَـه، فهـو مصـدرٌ بمعنى القِـراءةِ، دالٌّ على الحدثِ المعنـويِّ المُجرَّدِ فحَسـب[2]. وأمّا في قولِه

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب للفخر الـرازي (ت ٦٠٦هـ)، ط ٣، دار إحياء التـراث العربي، بيروت ١٤٢٠هـ، ٢٨: ١٢٢.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٦١.

تَعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٨]، فهــو مصدرٌ بمعنى الجَمع، أي إذا جَمعناهُ فاتَّبِعْ جَمعَه الذي تَحصَّلَ لدَيكَ[1].

فلفظُ «القرآن» يُســتعمَلُ وفقَ معناهُ المَصدريِّ وهو: القِراءةُ أو الجمعُ بحسبِ السِّياق، ويُستعمَلُ مَصدرًا بمعنى اســمِ المَفعول: المَقروءِ المَتلوِّ، مُعبَّرًا به عن اســمِ الذّاتِ في المَواضعِ التي يُرادُ فيها الحَديثُ عن تلاوتِه واستخراجِ أحكامِه، ويُستعمَلُ مَصدرًا بمعنى اسمِ الفاعل: القارئِ الجامعِ للسُّوَرِ وأحكامِ التَّشــريعِ في المَواضِعِ التي يُرادُ فيها الحديثُ عن عظمتِه وإتقانِه وشُــمولِه وكَمالِــه. وفي الاســتعمالَينِ الأخيرينِ مُبالَغــةٌ وتَوكيدٌ للمُبالغة، وكلٌّ منهما يُناسِبُ سِياقًا مُحدَّدًا مع حضورِ ظلالِ المَعنى الآخَر.

ممّا سبقَ يَظهرُ أنّ استعمالَ لفظِ «القرآن»، الذي يندرجُ تحتَ القَضايا الصَّرفيّةِ، كان له معانٍ دلاليةٌ كثيرةٌ جُمِعَت بلفظٍ واحد، فقد دلَّت تسميةُ الكتابِ المُنزَلِ بالقرآنِ على مضمونِه وتَرتيبِه ومُداوَمةِ المُســلِمينَ على قراءتِــه وتَعبُّدِهم بتِلاوتِه، يُضــافُ إلى ذلك أن رَبطَ التَّســميةِ بالحَدثِ يَجعلُنا ننظرُ إلــى القرآنِ في هــذا المَوضعِ باعتبــارِ مَضمونِه وأحكامِه وتِلاوتِه المُرتبِطــةِ بحَدَثِ القِــراءةِ بمعنى التِّلاوةِ، لا باعتبــارِ الصُّورة المَحسوسةِ لنُسَخِه المَخطوطةِ في الجُلودِ والرِّقاعِ والأوراقِ وغيرِ ذلك.

وبالعَودةِ إلى السُّــوَرِ الثَّلاثِ وهي: (يس) و(ص) و(ق)، فقد تَبيَّنَتِ المُناسباتُ الدَّلاليّةُ للقَســمِ في افتتاحِها بلفظِ القُرآن. أمّا اختلافُ صِفةِ القرآنِ المُقسَمِ به، بينَ السُّــوَرِ الثَّلاثِ، فلَهُ أيضًا مناسباتٌ دَلاليّةٌ تتجلَّى فيما سيأتي.

(١) يُنظر: مجاز القرآن ٢: ٢٧٨.

أولًا ـ القَسمُ بالقرآنِ الحكيمِ في سُورة «يس»:

وُصِفَ القُرآنُ في سورة «يس» بأنّه حَكيمٌ، في قوله تَعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ـ ٢]. والحكيمُ صفةٌ تَحتملُ الدلالاتِ التّالية:

أ ـ أن يكونَ معناهُ ذا الحِكمة، أي صاحبَها، لاحتوائِه عليها[١]. فيكون بمعنى الاسمِ المَنسوبِ، كفارسٍ بمعنى ذي فَرَسٍ، ولابِنٍ وتامِرٍ بمعنى ذي لَبَنٍ وذي تَمرٍ[٢]. والحكمةُ من الله تعالى هي العِلمُ بالأشياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكامِ والدِّقّة، ومن الإنسانِ إصابةُ الحقّ بالعِلمِ والعَقل[٣]. وهذا التَّوجيهُ يَنطوي على مُبالغةٍ بيانيّةٍ، تتمثَّلُ في استعمال اللَّفظِ لأداءِ وَظيفةٍ صَرفيّةٍ تَختلفُ عن وظيفتِه الأصليّةِ، فيكونُ إطلاقُه مُستدعِيًا الصِّيغةَ المَوضوعةَ للوَظيفةِ الصَّرفيّةِ المُؤدّاةِ هنا، وهي صيغةُ المَنسوبِ، أي إنّ التَّلفُّظَ بـ«الحَكيم» يَستدعي صيغةَ الاسمِ المَنسوبِ إلى الحِكمة، فكأنَّ المَعنى الواحدَ قد وُضِعَ للدَّلالةِ عليه لَفظانِ، وهذا الأسلوبُ يُفيد المُبالَغةَ مُتمثِّلةً بقوّةِ المَعنى وتَوكيدِه[٤].

ب ـ أن يكونَ مُبالغةَ اسمِ فاعلٍ، فيدلُّ في هذه الحالةِ على أنّ القرآنَ الكريمَ ناطقٌ بالحِكمةِ كالحَيِّ المُتكلِّمِ، ولذلك وُصِفَ بأنّه حكيمٌ،

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٣، ومحاسن التأويل للقاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ، ٨: ١٧٣، والتحرير والتنوير ٢٢: ٣٤٥، وأسلوب القسم في القرآن الكريم: دراسة بلاغية (رسالة ماجستير)، إعداد علي الحارثي، جامعة أم القرى ١٩٩١، ٢: ٣٨٧.

(٢) يُنظر: شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥، ٢: ١٤١.

(٣) يُنظر: مفردات القرآن ص ٢٤٩.

(٤) يُنظر في مثل هذا التوجيه: تفسير الرازي ٢٨: ١٣١.

وقيل: وُصِفَ بصِفةِ مُنزِلِه والمُتكلِّم به، وهو اللهُ سبحانَه وتَعالى[١]. هذا التَّوجيهُ مَبنيٌّ على أسلوبِ الاستعارةِ المَكنيّة[٢].

ج ـ أن يكونَ مُشتقًّا وَصفِيًّا على صيغةِ فَعيل بمعنى اسمِ المَفعولِ المُحكَم، المُشتقِّ من الفعلِ المَزيدِ أُحكِمَ، أي المُتقَنِ الذي لا يَتعَرَّضُ لِبُطلانٍ وتَناقُض[٣]. وفائدةُ هذا الاستعمالِ المُبالَغة.

والمُبالَغةُ أتَت من طَريقَين: الأوَّلُ من استعمالِ صِيغةِ «فعيل»، التي تَختصُّ في الأصلِ ببابِ الثُّلاثِيِّ المُجرَّد، للتَّعبيرِ عن اسمِ المَفعولِ المُشتقِّ من الثُّلاثيِّ المَزيدِ بالهَمزة «أحكَمَ»، أي من استعمالِ الكلمةِ ذاتِ الأحرفِ القَليلةِ والوَزنِ الخَفيفِ في موضعِ الكلمةِ ذاتِ الوزنِ الثَّقيلِ والأحرفِ الكَثيرة، وما يُفيدُه ذلك من تَخفيفٍ لَفظِيّ.

والثّاني أنّ التَّلفُّظَ بصيغةِ «فَعيل»، يَستدعِي معه صيغةَ «مُفعَل»، وهذه الأخيرةُ تَستدعي المَعنى المُرتَبِط بها، لأنّ الأُولى مَوضوعةٌ للدَّلالةِ على الثّانية، والثّانيةُ مَوضوعةٌ للدَّلالةِ على المَعنى، فكأنَّ المَعنى الواحدَ قد استُعمِلَ للدَّلالةِ عليه لَفظانِ مَعًا، وهذا يُفيدُ المُبالغةَ والتَّوكيدَ، كما هو الشّأنُ في استعمالِ لفظِ «الحَكيم» بمعنى المَنسوبِ إلى الحِكمةِ الذي توضَّحَ سابقًا[٤].

---

(١) يُنظر: الكشاف ٣:٤، وتفسير الرازي ٢٦: ٢٥١، والدر المصون ٣: ٢١٧.

(٢) يُنظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش، ط٤، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص ١٤١٥هـ. ٨: ١٧٣.

(٣) يُنظر: تفسير القرطبي ١٥: ٥، وفتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا وبيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ١١: ٢٧٠.

(٤) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٣١.

والمَعاني السّابقةُ، التي ذكرها المُفسِّرونَ، وإن كانت تختلفُ فيما بينها بحسبِ الوظيفةِ الصَّرفيّةِ التي بُنِي عليها كلٌّ منها، إلا أنّها يُمكنُ الجَمعُ بينها فيما يخصّ القرآنَ الكريم، باعتباره مُحكَمًا مُتقَنًا يتضمَّنُ الحكمةَ ويَنطقُ بها. وفي هذا بيانٌ لما بلغَه السِّياقُ القرآنيُّ من مراتبِ البلاغةِ والإعجاز.

وعند النَّظرِ في آيات القرآنِ الكريمِ نجدُ أنّ لفظَ «الحكيم» وردَ في المواقفِ الحاسِمةِ، وفي سياقِ الأحكامِ الصّارمة، وفي المواضعِ التي تتجلّى فيها القدرةُ الإلهيةُ والعظمةُ الرَّبانيّةُ، لذلك كثُرَ اقترانُ الحكيمِ بصفةِ العَزيزِ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

فالآياتُ السّابقةُ تتحدّثُ عن مُعجزة الخَلق، التي يتفرَّدُ بها الخالقُ سبحانَه، وعن مواقفِ الحسابِ والجَزاءِ والعذابِ، التي تَشخصُ فيها الأبصارُ، وتَذهَلُ فيها النُّفوسُ، وتنفطرُ فيها القُلوب، و﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وعن عظمةِ الله وجبروتِه، وعن تحكُّمِه بنَواميسِ الكونِ وظواهرِ الطَّبيعة. وهذا يُؤكِّد أنّ صفةَ «الحكيم» إنما تَرِدُ في مواقفِ الفَصل، وتَجلِّياتِ العَظمةِ الإلهيّةِ، والقدرة الرَّبانيّةِ، حيثُ التَّفرُّدُ في المُلكِ والحُكمِ والخَلقِ والقَولِ الفَصل.

وسورةُ «يس» تَضمَّنَت قضايا مهمةً وخطيرةً تتعلَّقُ بالعَقيدة، كطبيعةِ الوَحيِ، وصدقِ الرِّسالةِ، وتَسوقُ قصّةَ أصحابِ القَريةِ إذ جاءَها المُرسَلونَ، لتُحذِّرَ من عاقبةِ التَّكذيبِ بالوَحيِ والرِّسالة، وتَعرضُ هذه العاقبةَ على طريقةِ القرآنِ في إيرادِ القَصصِ لتدعيمِ قضاياه، كما تتعرَّضُ السُّورةُ لقضيّةِ الأُلوهيّةِ والوَحدانيّةِ، وتُحذِّرُ من عاقبةِ الكُفرِ والشِّرك، والقَضيّةُ التي يَشتدُّ التركيزُ عليها في السُّورة هي قضيّةُ البَعثِ والنُّشور، وهي تتردَّدُ في مواضعَ كثيرةٍ في السُّورة[1].

والحقائقُ التي وردَت في سورة (يس) يُناسبُها تمامًا وصفُ القرآنِ بالحكيم، لأنّها تقرِّرُ أمورَ العقيدةِ مُترفِّعةً عن مُجادَلةِ المُشركينَ وادعاءاتِ الكافرينَ، غيرَ مُلتفتةٍ إلى أقوالهم وتخبُّطِهم، غيرَ مُهتمّةٍ ببُعدِهم عن الحقِّ والإيمانِ والتَّوحيد، فجاءَت آياتُها واضحةً جَليّةً، مُتتابعةً كالصَّواعق، مُتجاهلةً شأنَ مَن يُخالفُ الدَّعوةَ ويُعاديها، صابّةً عليهم نارَ الوَعيدِ والتَّهديد.

وأهمُّ ما تضمَّنَته السُّورةُ صِدقُ النُّبوّة الذي جُعلَ جوابًا للقسم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس: ٣ ـ ٤][2]، فالقرآنُ الذي يَنطقُ بعَبيرِ الحِكمةِ، فوّاحةً من أزاهيره المُلوَّنة، مُنسابةً في رياضِه المُمتدّة، لامعةً بسَمائِه الصّافيةِ، مُضاءةً بنوره السّاحرِ، هو الذي يُقرِّرُ أنّ النبيَّ ﷺ رسولٌ من ربّ العالمينَ، وأنّه على طريقِ

---

(١) يُنظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ط١٧، دار الشروق، بيروت والقاهرة ١٤١٢هـ، ٥: ٢٩٥٦.

(٢) وذهب بعض المفسّرين إلى أن جواب القسم محذوف. يُنظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ص ٤.

الحقِّ والهُدى، وفي هذا تَشــريفٌ وتَمجيدٌ للنبيِّ ﷺ، وتَهوينٌ لشأنِ مَن خالَفَه وعاداه[1].

ثم انتقلَتِ السُّــورةُ إلى تهديــدِ كُفّارِ مكّةَ بالعَــذابِ، والحِرمانِ من الهِداية، جزاءً على عِنادِهــم وتَكذيبِهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: ٩ ـ ١٠]، فــاللهُ تعالى حكمَ على هؤلاءِ المُعاندينَ بأنْ منَعَهم من الإيمانِ وحرمَهم من نوره، فكان حالُهم كحالِ المَغلــولِ المُقيَّدِ الذي وقعَ بين ســدَّينِ، فلا يُبصِــرُ ما أمامَه وما خَلفَه، ولا يَهتــدي للنَّجاةِ والخَلاص[2]. والحُكمُ علــى هؤلاءِ بالضَّلالِ والكُفرِ يُناسِــبُ وصفَ القــرآنِ بالحَكيم، كما يُناسِــبُ صفــةَ الحكيمِ باعتبارها من صفاتِ اللهِ تعالى.

وفي المُقابِلِ هناك فريقُ المُؤمنينَ، بصَّرَهُمُ اللهُ تعالى بالهُدى، وأنعمَ عليهم بالإيمان، فهؤلاء مُبشَّرونَ بالمَغفرة والأجرِ العَظيم، وهم وحدَهُم مَن يَنتفعونَ بما جاءَ به الأنبياءُ والرُّسُــلُ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: ١١].

ثم انتقلتِ السُّورةُ إلى إثباتِ البَعثِ والنُّشور، وإحصاءِ أعمالِ الخَلقِ ومُجازاتِهــم عليها، بأسْــلوبِ التَّقريــرِ المُوجَــزِ، الذي لا يَعبــأُ بإقناعِ المُنكرِينَ، ولا يلتفتُ إلى أقــوالِ المُعانِدينَ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ

---

(١) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١١: ٢٧٠.

(٢) يُنظر: الكشــاف ٤: ٥، والمحــرر الوجيز في تفســير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلســي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشــافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ، ٤: ٤٤٧، والدر المصون ٩: ٢٤٧.

ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ [يس: ١٢]، فبهذه الكلماتِ المُوجزة قرَّرَ السِّياقُ القرآنيُّ أنّ اللهَ يَبعثُ المَوتى ويَجمعُهم للحِساب، وقد أُحصِيَت أعمالُهم في كتابٍ لا يُغفِلُ منها أدنى شَيء[1].

وبعدَ أن يَستوفيَ السِّياقُ القرآنيُّ عرضَ الحقائقِ الإيمانيّةِ الثابتة، بأسلوبِ التَّقريرِ المُوجَز، الذي يَحملُ ظلالَ الحَتميّةِ والحَسمِ، ويُناسِبُ وصفَ القرآنِ بالحكيم، تَستطرِدُ السُّورةُ في الحديث عن مصيرِ الأُمَمِ التي كذَّبَتِ الرُّسُلَ، وفي الإنكار على مَن لم يُؤمِنْ إخلادَه إلى الكُفرِ ورضاهُ بالضَّلالِ، مع أنّ كلَّ ما في الكونِ من عجائبِ الخَلقِ، ودِقّةِ النِّظامِ، يَشهدُ بصدقِ الرُّسُلِ ووَحدانيّةِ اللهِ.

وأهمُّ المشاهدِ الكونيّةِ التي عرضَتها السُّورةُ: «مشهدُ الأرضِ الميِّتةِ تدبُّ فيها الحياةُ، ومشهدُ اللَّيلِ يُسلَخ منه النَّهارُ فإذا هو ظلامٌ، ومَشهدُ الشَّمسِ تَجري لمُستقرٍّ لها، ومَشهدُ القمرِ يتدرَّجُ في منازله حتى يعودَ كالعُرجونِ القَديم، ومَشهدُ الفُلكِ المَشحونِ يَحملُ ذُرّيّةَ البشرِ الأوّلِينَ، ومشهدُ الأنعامِ مُسخَّرةً للآدَميِّينَ، ومَشهدُ النُّطفةِ ثم مَشهدُها إنسانًا وهو خَصيمٌ مُبين! ومشهدُ الشَّجرِ الأخضرِ تكمُنُ فيه النّارُ التي يُوقِدونَ»[2]. وجميعُ هذه المشاهدِ تدلُّ على عظمةِ اللهِ ووَحدانيّتِه، وهي في مُتناوَلِ البَشرِ، وتحتَ مَرأى أبصارِهم، وإدراكِ حَواسِّهم.

---

(١) يُنظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ٦: ٢٩٠.

(٢) في ظلال القرآن ص ٢٩٥٧.

ويَغلبُ على السُّــورة الفَواصِلُ القَصيرةُ، والإيقاعُ السَّريعُ، حيثُ تتلاحَقُ التَّعابِيرُ، وتتوالَى الصُّوَرُ والمَشاهدُ والأحداثُ، وهي تَعرضُ الحقائقَ الكُبرى بأسلوبٍ يغلبُ عليه التَّهديدُ، وتجاهُلُ أهلِ الضَّلال، واستصغارُ شأنِهم أمامَ القُدرة الإلهيّةِ، والحَقائقِ الرَّبّانيّةِ، التي تُجسِّدُها السُّــورةُ كأنّها الصَّواعِــقُ، التي تَســبِي البَصَرَ، وتَحارُ أمــامَ عظمتِها العُقــولُ، وتَتهاوَى فــي لَهيبِها ووَميضِهــا الخاطفِ حُجَــجُ الباطلِ، وادِّعاءاتُ الكافرينَ.

وهكذا تَظهرُ المُناسَبةُ واضحةً بينَ القسمِ بالقرآنِ الحكيمِ، ومَضمونِ ســورة «يس»، التي تَنهمِرُ آياتُها كتَتابُعِ المَطرِ، وتدفُّقِ السَّــيلِ، وتَعاقُبِ الشُّــهُبِ، وتَتالِي الصَّواعقِ، حيث لا ميدانَ إلا للحَقِّ، ولا أُلوهيّةَ إلا للهِ، ولا خُلودَ إلا للإيمان.

ثانيًا ـ القسمُ بالقرآنِ ذي الذِّكرِ في سُورة «ص»:

في افتتاحِ سُــورة «ص» جاءَ القســمُ بالقرآنِ الكريمِ موصوفًا بـ«ذِي الذِّكر»، في قوله تعالــى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: ١][(١)]. و«الذِّكر» هو في الأصل: مصدرٌ للفعل ذَكَر يَذكُرُ، ويدلُّ على خلافِ النِّســيانِ، ثم حُمِل عليه الذِّكرُ باللِّسان. ثم لأنّ ما يَدورُ على اللِّسانِ ذِكرُهُ يكونُ عظيمًا في ذاتِه، وشَــريفًا في مَقامِه، أصبــحَ الذِّكرُ يدلُّ على العظمةِ والشَّــرفِ والشُّــهرة، وهو المقصودُ في هذا المَوضع[(٢)]. واتِّصــافُ القرآنِ الكريمِ

(١) يُنظر: أسلوب القسم في القرآن الكريم: دراسة بلاغية ٢: ٤٠١.

(٢) يُنظر: المقاييس في اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط ٢، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨، ٢: ٣٥٨ (ذكر)، ومفردات القرآن ص ٣٢٨.

بالوَصفِ السّابقِ يدلُّ أيضًا على أنّ مَن أحاطَ عِلمًا بمَعانيهِ، وعَمِلَ بما فيه، فهو كذلك[١].

والذِّكرُ بحسبِ الدَّلالةِ السّابقةِ هو مصدرٌ يَجري على فعلِه المَبنيِّ للمَجهولِ لا المبنيِّ للمَعلومِ، لأن وَصْفَ القرآنِ بالشَّرفِ والعَظمةِ استُدِلَّ عليه من كونِه مَذكورًا على الألسنةِ في المجالسِ والأنديةِ وبينَ النّاسِ جَميعًا، سواءٌ كانُوا مِن المُؤمنينَ المُوقنينَ، أم مِنَ الكافرينَ المُنكِرينَ.

وقيل: إنّ وصفَ القرآنِ بـ«ذي الذِّكر»، لما فيه من ذِكرِ الأُمَمِ والشُّعوبِ وقِصَصِهم وأخبارهم[٢]، فهو إذنْ مصدرٌ جارٍ على فعلِه المَبنيِّ للمَعلوم ذَكَرَ، أي إنّه هو الذي يَذكُرُ كلَّ ذلكَ ويَحتويهِ.

وقيل: إنّ معنى «ذي الذِّكر»: أي ذِي التَّذكِرة، لأنّه يُذكِّرُ النّاسَ بالحقِّ ويَهديهِم إليه[٣]. فيكونُ وفقَ هذا المَعنى اسمَ مصدرٍ للفعل ذَكَّرَ يُذَكِّر.

واسمُ المَصدرِ: هو اسمٌ يدلُّ على الحدث، كالمَصدرِ الأصليِّ، إلا أنّ حروفَه أقلُّ من حروفِ المَصدرِ الأصليِّ، كالزِّينةِ والعَطاءِ والصَّلاةِ، التي هي أسماءُ مصادرَ للأفعال: تزَيَّن وأعطَى وصَلَّى، على حينَ أنّ المصادرَ الأصليّةَ هي: التَّزيُّنُ والإعطاءُ والتَّصلية[٤].

---

(١) الكشاف ٤: ٣٧٩.

(٢) يُنظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، بعناية: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢، ٩: ١٣٥.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٣: ٢٠٣.

(٤) يُنظر: شرح شافية ابن الحاجب ١: ١٦٠، وحاشية الصبان على شرح الأشموني، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧، ٢: ٤٣٣.

واســتعمالُ أســماءِ المَصادرِ في التَّعبيرِ يَنطوي على فوائدَ أسلوبيّةٍ أهمُّها التَّخفيفُ اللَّفظيُّ، والاتِّساعُ في اللُّغة، وتنوُّعُ الأساليب. فالتَّخفيفُ اللَّفظيُّ يتمثَّلُ في اســتعمالِ اســمٍ ذي أحرفٍ قليلةٍ للتَّعبيــرِ عن معنى المَصدرِ الذي يَزيدُ على ذلكَ الاســمِ في عددِ الحُروفِ. أمّا الاتِّساعُ في اللُّغةِ فيتلخَّصُ في إمكانِ اســتعمال اللَّفظِ الواحــدِ للتَّعبيرِ عن أكثرَ من مَعنًى، كالزِّينةِ التــي يُعبَّرُ بها عــن التَّزيينِ والتَّزيُّنِ وهمــا من المعاني الذِّهنيّــةِ، إضافةً إلى اســتعمالِها للدَّلالةِ علــى ما يُتَزيَّنُ به مــن الحُليِّ والجَواهِرِ وهي أشياءُ مَحسوســةٌ. وأمّا تنوُّعُ الأســاليبِ فيتجلّى في أنّ وُجودَ أكثرَ من لفظٍ للدّلالةِ على المَعنى الواحد، كدلالةِ المصدرِ واســمِ المصدرِ علــى المعنى ذاتِه، يُتيحُ للكاتب والشّــاعرِ والخَطيبِ إمكاناتٍ واســعةً للتَّعبيرِ عن الأفكارِ دونَ الوُقوعِ في التَّكرارِ اللَّفظِيِّ، أو المشقّةِ في مُوافاةِ المَعاني، وموافقةِ الأوزانِ العَروضيّة.

و«الذِّكر» في افتتاحِ ســورةِ «ص» يَحتملُ كلَّ المَعاني السّابقةِ ويدلُّ عليها، أي إنّ القرآنَ هو ذو الشَّرفِ والقَدْر، وهو الذي يتضمَّنُ ذِكرَ الأُممِ والشُّعوبِ وأخبارَهم، وهو الذي يُذكِّرُ النّاسَ بالحقّ ويَهديهِم إليه، وهو الذي يُعلِي مِن شأنِ مَن آمَنَ به وأحاطَ بمَعانيهِ[1].

ومُناسَــبةُ القَســمِ بـ«القــرآن ذي الذِّكر» فــي افتتاحِ ســورة «ص» لمَضمونِها يتجلّى في أنّ جوابَ القســمِ مَحذوفٌ[2]، وهذا يَعني أنّ كلَّ الحقائقِ التي تحدَّثَت عنها السُّــورةُ تحتملُ، بوَجهٍ من التّأويلِ والتَّقديرِ، أن تكونَ جَوابًا للقسم.

---

(١) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص ١٠ ـ ١١.

(٢) يُنظر: تفسير الرازي ٢٦: ٣٦٥.

والسُّـــورةُ تضمَّنَت أُمورًا خَطيرةً تتعلَّقُ بالعقيدة، كالوَحدانيّةِ وصِدقِ الرِّســـالةِ والحِســـابِ والجَزاء. وهذه الأمـــورُ لا يَفصِلُ فيهـــا إلا القرآنُ الكريمُ، فجاءَ القسمُ بلفظِ القرآنِ مُناسِبًا لذلك. ثم وَصْفُ القرآنِ بـ«ذي الذِّكر» يُناســـبُ أيضًا مَوضوعاتِ السُّـــورةِ ومَضمونَها، فمَدارُ السُّورة هو على عرضِ الحَقائقِ الإيمانيّةِ في أســـلوبِ الخِصامِ بيـــنَ الحقِّ وأتباعِه، وبينَ الباطلِ وأشـــياعِه[1]، ليَظهرَ النَّصرُ أخيرًا في جانبِ الحقِّ، والهَزيمةُ في جانبِ الباطلِ، فيتأكَّدَ الخلودُ والغَلَبةُ والشَّـــرفُ وعلوُّ الشّـــأنِ للقرآنِ الكريم والمُؤمنينَ به، وبهذا تظهرُ المُناســـبةُ واضحةً بين لفظِ القسمِ في افتتاح السُّورةِ، وبينَ مَضمونِها.

وأهمُّ الموضوعاتِ التـــي تضمَّنَتها السُّـــورةُ مَوقفُ كُفّـــارِ مكةَ من الرِّســـالةِ، وإنكارُهُم وَحدانيّـــةَ اللهِ تعالى، وتكبُّرُهُم وعِنادُهـــم، ووَلَعُهُم بالجَـــدَلِ والخِصام، قال تعالـــى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾ [ص: ٢]، وقد دفعَهُـــم عِنادُهُم وتكبُّرُهم إلى تكذيبِ النبيِّ ﷺ، واتِّهامِه بالسِّـــحر، ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ [ص: ٤]، كمـــا دفعَهُم ذلك إلى إنكارِ وَحدانيّةِ الله، قـــال تعالـــى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ ﴾ [ص: ٥]. وكلُّ هذا يُناسِـــبُ وصفَ القُرآنِ بذي الذِّكرِ، أي الشَّرفِ والعُلوِّ،

---

(١) يُنظر فيما احتوته السورة من مخاصمات تناســـب افتتاحها أيضًا بحرف الصاد: البرهان في علوم القرآن للزركشـــي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيـــق: محمد أبو الفضل إبراهيـــم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م، ١: ١٦٩ ـ ١٧٠. وفيه جاء: «فتأمّل ما اشتملت عليه ســـورة (ص) من الخصومات المتعدّدة فأوّلها خصومة الكفّار مع النّبـــيّ ﷺ وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا ﴾ إلى آخر كلامهم، ثـــمّ اختصام الخصمين عنـــد داود، ثمّ تخاصم أهـــل النّار، ثـــمّ اختصام المـــلأ الأعلى في العلم وهـــو الدّرجات والكفّارات، ثمّ تخاصم إبليس واعتراضه على ربّه وأمره بالسّـــجود، ثمّ اختصامه ثانيًا في شأن بنيه وحَلِفِه لَيُغوينَّهم أجمعين إلّا أهل الإخلاص منهم».

لأنّ الغلبــةَ والنَّصرَ والعِزَّ للقــرآنِ، ولمَن عَمِلَ بما فيــه، وليس لهؤلاءِ المُكذِّبينَ المُعاندِينَ.

ثم تنتقلُ السُّــورةُ إلى الوَعيدِ وتَهديدِ كُفّارِ مكّةَ بمَصيرِ المُكذِّبينَ من الأُممِ السّابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ١٥﴾ [ص: ١٥]. ثم تعرضُ السُّورةُ جانبًا من قِصَصِ الأنبياءِ والرُّسُل، وهذا الجانبُ يقتصرُ على تأييدِ الله تعالى لرُسُــلِه، وما اختصَّهُم به من مظاهرِ القوّةِ والغلبةِ والتَّشــريفِ والمَغفرة والرِّضــوانِ والنِّعَم، ليكونَ ذلك مُواســاةً للنبيِّ ﷺ، وتَصبيرًا له على ما يُلاقيهِ من أذى المُشركينَ وتعنُّتِهم، فذَكرتِ السُّــورةُ قصّةَ داوودَ عليه السلام وتَسخيرَ الجبالِ والطَّيرِ له، وتأييدَه بالمُلكِ والحِكمةِ، قــال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: ٢٠].

ثم ذكرَت قصّةَ ســليمانَ عليه السلام وتَســخيرَ الرِّياحِ والجنِّ له، وإعطاءَهُ مُلكًا لــم يُعطِه أحدٌ من أهلِ الأرض، قــال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٨]. ثم قصةَ أيُّوبَ عليه السلام، والتَّفضُّلَ عليه بالشِّــفاءِ من المرضِ، وتَعويضَه عمَّن فقدَهُ مــن أهلِه، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: ٤٣]. ثم التَّذكيرَ بإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، وإسماعيلَ واليَســعَ وذي الكِفلِ عليهم السلام، وما أنعمَه الله عليهم من القوّةِ والتّأييدِ والهِداية.

والتَّعرُّضُ لقِصَصِ الأنبياءِ يُناسبُ وصفَ القرآنِ بذي الذِّكر، من جهةِ أنّه يَذكُــرُ أخبارَهم، ومــن جهةِ أنّــه يُذكِّرُ النبــيَّ وأصحابَــه بالاقتداءِ بالمُؤمنينَ منهم في الإيمانِ والصَّبرِ، باعتبــارِ أنّ المُرادَ بالذِّكرِ: التَّذكِرةُ،

كما توضّحَ سابقًا، ومن جهةِ أنّ النّصرَ والغلبةَ والتّأييدَ والعاقبةَ ستكونُ لهم، باعتبارِ أنّ الذّكرَ بمعنى الشّرفِ والعُلوّ. يُضاف إلى ذلك أنّ السّياقَ القرآنيَّ يُعقّبُ على أخبارِ الأنبياءِ بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص: ٤٩]، فيكونُ هذا التّعقيبُ بمَثابةِ تَصريحٍ واضحٍ بالمُناسبةِ الدّلاليّةِ بينَ هذه الأخبارِ التي عرضَتها السّورةُ، وبينَ لفظِ القسمِ في افتتاحِها.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى ذكرِ الآخِرة والجَزاءِ، فالمُتّقونَ يَفوزُونَ بالجنّةِ ويَتمتّعونَ بظِلالِها ونَعيمِها، والطُّغاةُ الكفرةُ يُزَجُّ بهم في نارِ جهنَّمَ وعَذابِها، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٦]. وفي جهنَّمَ يختصِمُ الكُفّارُ، ويَلومُ بعضُهم بَعضًا، لأنّهم كانوا سَببًا في ضَلالِهم وغَوايتِهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص: ٦٤].

ثم يعودُ السّياقُ إلى تَقريرِ ما ابتدأت به السُّورةُ من صِدقِ الرّسالةِ، ووَحدانيّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ص: ٦٥]. ثم ينتقلُ إلى إثباتِ صِدقِ الوَحيِ، واختِصامِ المَلائكةِ في مِقدارِ ثَوابِ الأعمالِ، أو مُحاورتِهم لربِّهم عزَّ وجلَّ في شأنِ خلقِ آدمَ عليه السلام [1]، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص: ٦٩].

ثم تتوقّفُ السُّورةُ عند قصّةِ خلقِ آدمَ عليه السلام، وعِصيانِ إبليسَ لأمرِ اللهِ في السُّجودِ له، وطلبِه من الله تعالى أن يُمهِلَه إلى يومِ القِيامةِ، ليُضِلَّ ما استطاعَ من ذُرّيّةِ آدمَ، وقد أقسمَ على ذلك بعزّةِ اللهِ، قال تعالى:

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٥: ٢٢٦، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٢: ٦٥.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]. وبذلك تتحدَّدُ مَعالِـمُ المَعركةِ الخالدةِ بينَ الإنسانِ والشَّيطانِ، بينَ الإيمانِ والكُفر، بينَ نُزوعِ الرُّوحِ نحوَ الطُّهرِ والعِبادةِ وبينَ وَساوِسِ الشَّياطينِ التي تَدعو إلى الضَّلالِ والبَغيِ والنّار.

وفي نهايةِ السُّورة يأمرُ اللهُ تعالى رسولَه أن يُلقيَ إلى قومِه القولَ الأخيرَ، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٨]، «إنّها الدَّعوةُ الخالصةُ للنَّجاةِ، بعدَ كشفِ المَصيرِ وإعلانِ النَّذيرِ، الدَّعوةُ الخالصةُ التي لا يَطلبُ صاحبُها أجرًا، وهو الدّاعيةُ السَّليمُ الفِطرةِ، الذي ينطقُ بلسانِه، لا يتكلَّفُ ولا يتصنَّعُ، ولا يأمرُ إلا بما يُوحي منطقُ الفِطرة القريبُ. وإنّه لَلتَّذكيرُ للعالَمِينَ أجمعِينَ فقد يَنسَون ويَغفلُونَ، وإنّه لَلنَّبأُ العَظيم الذي لا يُلقُونَ بالَهم إليه اليومَ، ولَيعلَمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ، نبأَهُ في الأرض، وقد عَلِمُوهُ بعدَ سنواتٍ من هذا القَولِ، ونبأَهُ في اليومِ المعلومِ عندَما يَحِقُّ وعـدُ اللهُ اليَقينُ: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص: ٨٥]. إنّه الخِتامُ الذي يتناسَقُ مع افتتاحِ السُّورة ومعَ مَوضوعِها والقَضايا التـي تُعالِجُها، وهو الإيقاعُ المُـدوِّي العَميقُ، المُوحِي بضَخامةِ ما سيكونُ: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾»[1].

والذِّكرُ في هذه الخاتمةِ معناهُ: العِظةُ والتَّذكِرةُ، أي إنّ القُرآنَ الكريمَ عِظةٌ وتَذكرةٌ للعالَمِينَ عامّةً[2]. فالذِّكـرُ هنا لا يَجري على الفعل الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ ذَكَر، ولذلك فهو ليـس مَصدرًا له، بل هو اسـمُ مصدرٍ للفعلِ الثُّلاثيِّ المَزيدِ بالتَّضعيفِ ذَكَّرَ.

---

(١) يُنظر: في ظلال القرآن ص٣٠٢٩.

(٢) تفسير القرطبي ٩: ٢٧١.

وفي هذا الاستعمالِ تحقيقٌ للخِفّةِ اللَّفظيّةِ، مع تنوُّعِ الأُسلوبِ، إذ استُعمِلَ مصدرُ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ دالًّا على مصدرِ الثُّلاثيِّ المزيدِ بالتَّضعيفِ لمعنى الجَعلِ والتَّعديةِ، أي إنّ المَعنى الذي يدلُّ عليه لفظُ التَّذكيرِ قد عُبِّرَ عنه بلفظِ الذِّكرِ، الذي يُوصَفُ بالخِفّةِ اللَّفظيّةِ، لقِلّةِ حُروفِه مُقارَنةً بحروفِ المَصدرِ الأصليِّ: التَّذكير أو التَّذكِرة.

وبينَ هذه الخاتمةِ ولفظِ القَسمِ «والقرآنِ ذي الذِّكرِ» مناسبةٌ لفظيّةٌ تتمثَّلُ في تَكرارِ لفظِ الذِّكر، وإثباتِ هذه الصِّفةِ للقرآنِ، ومناسبةٌ دلاليّةٌ تتجلّى في استعمالِ الذِّكر هنا بمعنى التَّذكرة أو التَّذكير، الذي نصَّ عليه المُفسِّرونَ، كما توضَّح سابقًا، على أنّه أحدُ المَعاني التي يدلُّ عليها لفظُ الذِّكرِ في افتتاحِ السُّورة.

واللافتُ للانتباهِ في هذه السُّورةِ أنّ المُناسبةَ بين المُقسَم به ومضمونِ السُّورةِ لا تَقتصرُ على الأمورِ الدَّلاليّة، التي عرضتُها فيما تقدَّم، بل تتعدّاها إلى وجودِ مُناسباتٍ لفظيّةٍ تتمثَّلُ في استعمالِ الذِّكرِ وما يُشتَقُّ منه من أفعالٍ ومَصادرَ مَزيدةٍ في مواضِعَ كثيرةٍ من السُّورةِ، بلغَت أحدَ عشرَ مَوضِعًا، إضافةً إلى لفظِ الذِّكرِ الواردِ في سياقِ القسمِ. وقد وردَ لفظُ الذِّكرِ في تلك المَواضعِ مُستوفيًا ما عرضَه المُفسِّرونَ من معانٍ يَحتملها اللَّفظُ الواردُ في سِياقِ القَسم.

ومن المواضعِ التي وردَ فيها «الذِّكر» في السُّورة قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴿٣٢﴾﴾ [ص: ٣٢]، وهو هنا مصدرُ «ذَكَر» مُضافٌ إلى مفعولِه في المعنى، على تقدير: أن أذكُرَ ربِّي[١]. وفائدةُ

---

(١) الدر المصون ٩: ٣٧٦. وقيل: الذِّكرُ في الآية مُضاف إلى فاعله في المعنى، والتقدير: أن يذكرني ربّي.

استعمالِ المَصدرِ هنا التَّعبيرُ عن شُمولِ كلِّ ما يَنتمي إلى جنسِ الذِّكر، من صَلاةٍ وتَسبيحٍ ودُعاءٍ وغيرِ ذلك.

ومن تلك المَواضعِ قولُه تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾، فالذِّكر في الموضعَينِ استُعمِلَ بمعنى القرآنِ الكريم، وسُمِّي القرآنُ ذِكرًا، لِمَا فيه من ذِكرِ الأُمَمِ وأخبارِها[1]. وهذا الاستعمالُ مبنيٌّ على تَوظيفِ المَصدرِ في الدَّلالةِ على اسمِ الذّات، فالذِّكرُ من حيثُ اللَّفظُ هو: مصدرٌ، أمّا القرآنُ فيدلُّ على ذاتٍ تُدرَك بالحَواسّ، أي إنّ بناءَ المَصدرِ قد وُظِّفَ للدَّلالةِ على اسمِ الذّات.

وفائدةُ هذا الاستعمالِ المُبالغةُ في التَّعبيرِ عن دِقّةِ المَعنى، لأنّ استعمالَ بناءِ المَصدرِ للدَّلالةِ على اسمِ الذّاتِ يَجعلُ اللَّفظَ يُؤدِّي وَظيفتَينِ صَرفيَّتَينِ معًا، كما توضَّح سابقًا، فيظهرُ اسمُ الذّاتِ مُرتبِطًا بمعنَى الحَدثِ الذي يدلُّ عليه بناءُ المَصدرِ، ولا يَنفكُّ عنه، أي إنّ إطلاقَ لفظِ الذِّكرِ على القرآنِ يدلُّ في آنٍ واحدٍ عليه وعلى وصفٍ مُلازِمٍ له وهو تضمُّنُه أخبارَ الأُممِ والنُّطقُ بها.

ومِن مَجيءِ الذِّكرِ في السُّورةِ مُرادًا به القرآنُ الكريمُ أيضًا قولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾، قال الزّمخشريُّ: «هذا ذِكرٌ أي: هذا نوعٌ مِن الذِّكرِ وهو القُرآنُ»[2]. فالذِّكرُ في الآية، باعتباره يدلُّ على القرآنِ، هو مصدرٌ عُبِّرَ به عن اسمِ الذّاتِ، لدلالتِه على مُسمًّى في حُكمِ المُدرَكِ بالحَواسّ، كما ظهرَ قبلَ قليل.

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١١: ٣٤٣.

(٢) الكشاف ٤: ١٠٠.

وممّا وردَ في السُّورة مُرتبِطًا بالذِّكر: الذِّكرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: ٤٦]. والذِّكرى في الأصل هي: كَثرةُ الذِّكر، فهي مصدرٌ للفعل ذَكَر، وهي أبلغُ مِن الذِّكر[1]. والمُرادُ بالدّارِ: الدّارُ الآخرةُ، وأخلصناهُم: جعلناهُم خالِصينَ لنا مُتجرِّدينَ من كلِّ ما يَشغلُهُم عن الدّارِ الآخِرة. والخالصةُ: الخَصلةُ الصّافيةُ التي لا شَوبَ فيها. والذّكرى معناها هنا: الذِّكرُ، الذي هو نقيضُ النِّسيان، فهي مصدرٌ للفعل ذَكَر، استُعمِلَ بحسبِ دلالتِه المَصدريّةِ، وهي بدلٌ من «خالصة» أفادَ تفسيرَ المُبدَل منه وتَخصيصَه[2].

وقُرِئَ [بِخالِصةِ ذِكرَى الدّارِ] بإضافةِ الخالصةِ إلى الذِّكرى، وهو من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوف، والتَّقديرُ: أخلصناهُم بذكرى الدّارِ الخالِصةِ من كلِّ شَوبٍ[3]. وإضافةُ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ فيها مُبالَغةٌ، لأنّ الصِّفةَ تَبدو قد استَحكمَت في المَوصوفِ، واستأثرَت به تمامًا، حتى امتزجَت به وأصبحَت معه جِنسًا قائِمًا بذاتِه.

---

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص٣٢٩.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٩٩. والخالصة قيل فيها: إنها مصدر كالعافية والعاقبة، بمعنى الخلوص، فيكون مصدرًا للثلاثي المجرَّد خَلَص، وقيل: هي بمعنى الإخلاص، فتكون اسمَ مصدر للفعل أخلص. وقيل هي: اسم فاعل، على تقدير: بِخَالِصٍ ذِكْرَى الدَّارِ؛ أَيْ خَالِصٍ مِنْ أَنْ يُشَابَ بِغَيْرِهِ. يُنظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (ت ٦١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط ٢، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧، ص١١٠٢.

(٣) يُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٦: ٣٩٧. والمراد بالصفة: الصفة المعنوية لا النعت. يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٣، دار الجيل، بيروت، ٣: ٨.

وجاءتِ الذِّكرى في السُّـورة أيضًا في قولـه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾، فالذِّكرى فـي الآية معناها: التَّذكير. فتكون اسـمَ مصدرٍ للفعـلِ ذَكَّر، والتقديـرُ: وهبناهُم له لأجلِ رَحمتِنا إيَّاه ولتَذكيرِ أُولي الألبابِ بحالهِ[1]. وفي اسـتعمالِ الذِّكرى اسمَ مصدرٍ تحقيقٌ للتَّخفيفِ اللَّفظيِّ مع تنوُّعِ الأُسـلوبِ والاتِّسـاعِ اللَّفظيِّ، كما ظهرَ سابقًا.

وممّا يتَّصلُ بالذِّكرِ في السُّورة قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، والتَّذكُّرُ: الاتِّعاظُ، وأصلُه استِحضارُ ما في الذِّهنِ من العِلم، ويَصدقُ على استِحضارِ ما هو مَنسِيٌّ، وعلى اسـتِحضارِ ما لا يَنبغـي أن يُغفَلَ عنه. والفعـلُ «يتذكَّرُ» مضارعٌ، ماضيه: تَذكَّرَ، فهو ثلاثيٌّ مزيدٌ بحَرفَينِ هما التّاءُ والتَّضعيفُ، والزِّيادةُ فيه لمُطاوَعـةِ الفِعل: ذَكَّـرَ، فيكـونُ التَّقديرُ: يُذَكِّرُهـُمُ القُـرآنَ أي يَعِظُهُم فيَتذكَّرونَ أي يتَّعظُونَ. والتَّذكُّرُ من آثارِ التَّدبُّرِ الذي وردَ في الآية[2].

ممّا سبقَ يتَّضحُ أنَّ ثمةَ مُناسبةً لفظيّةً ودلاليّةً بين القسمِ بالقرآنِ ذي الذِّكرِ في افتتاحِ سُـورة «ص» وبينَ مَضمونِها عامّةً. وهذه المُناسبةُ تؤكِّدُ فكرةَ البَحثِ التي تقـومُ على وجودِ علاقةٍ دَلاليّةٍ بينَ ألفاظِ القسـمِ في افتتاحِ السُّورة من جهةٍ، وبينَ جوابِ القسـمِ ومَضمونِ تلك السُّورة من جِهةٍ أُخرى.

---

(١) يُنظر: الدر المصون ٩: ٣٨١.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٣: ٢٥٢. وقال ابن عطية فيما يُسـتخلص من وصف القرآن بالبركة: «وفي هذه الآيات اقتضابٌ وإيجازٌ بديع حسـب إعجاز القرآن العزيز ووصفه بالبركة، لأن أجمعَها فيه، لأنه يُورث الجنة، ويُنقذ من النار، ويَحفظ المرءَ في حال الحياة الدنيا، ويكون سببَ رِفعةِ شأنه في الحياة الآخرة». تفسير ابن عطية ٤: ٥٠٢.

ثالثًا ـ القسم بالقرآن المجيد في سورة «ق»:

وُصِف القرآنُ في سورة «ق» بـ«المجيد»، في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١][1]، وجوابُ القسم محذوفٌ، ذكرَ المُفسّرونَ عِدّةَ أوجهٍ لتَقديره، أشهرُها: لتُبعَثُنَّ[2]. والرّاجحُ أنّ الجَوابَ حُذِفَ لغَرضٍ دَلاليٍّ، كما في سُورة «ص»، يتمثَّلُ في إخراجِ القسمِ من الخُصوصِ إلى العُمومِ، بحيثُ أصبحَت كلُّ الحقائقِ التي تحدَّثَت عنها السُّورةُ تحتملُ، بوجهٍ من التّأويلِ والتَّقديرِ، أن تكونَ جوابًا للقسمِ، أي إنّ اللهَ تعالى يُقسِمُ على صدقِ نبيِّه وعَظمةِ القُرآنِ ووقوعِ المَوتِ والبعثِ والحَشرِ والحسابِ ودُخولِ النّاسِ الجنةَ أو النّار. وهذه الحقائقُ إنّما تُعلَمُ ويُتوصَّلُ إلى معرفتِها بقراءةِ القرآنِ وتِلاوتِه وتدبُّرِ مَعانيهِ، وهذه هي المُناسبةُ الدّلاليّةُ للقسمِ بلفظِ «القرآن» في افتتاحِ السُّورة.

أمّا وصفُ القرآنِ في افتتاحِ السُّورة بـ«المَجيد» فله أيضًا مناسبةٌ دلاليّةٌ ترتبطُ بمَضمونِ السُّورة كلِّها. فالمَجيدُ: صفةٌ مُشبَّهةٌ للفعل: مَجُد يَمجُدُ، أي عَظُم وشَرُف، تدلُّ على الدّوامِ والثُّبوت، أي على دوامِ نِسبتِها إلى المَوصوفِ وهو القرآنُ. ووصفُ القرآنِ المُقسَمِ به بـ«المَجيد» فيه دلالةٌ على تفوُّقِ القرآنِ الكريمِ على المُعانِدينَ وأساليبِهِم في الجدلِ والإنكار، وفيه تَشريفٌ للمُؤمنينَ بانتِسابِهِم إلى هذا الكتابِ العظيمِ، فمعنى المَجيد: «ذو المَجدِ والشَّرَفِ على غيرِه من الكُتب، ومَن أحاطَ عِلمًا بمَعانيهِ، وعَمِل بما فيه، مَجُد عندَ الله وعندَ النّاس»[3].

---

(١) يُنظر: أسلوب القسم في القرآن الكريم: دراسة بلاغية ٢: ٤١٥.

(٢) يُنظر: التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، ط١، دار الأرقم، بيروت ١٤١٦هـ، ٢: ٣٠٠، والبحر المحيط ٩: ٥٢٨.

(٣) الكشاف ٤: ٣٧٩.

فهذا الوصفُ أكسبَ القسمَ دلالةً على أنّ القرآنَ، المُقسَمَ به، قد تَجاوزَ بإحكامِه وإعجازه وعُلوِّ شأنِه ما سيُذكَرُ بعدَ القسمِ من تخبُّطِ الكافرينَ وشكِّهِم بالبَعثِ والنُّشور، ولهذا اشتملت خاتمة السُّورةُ على لفظِ «القرآن» في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] إعلامًا بأنَّ ما جاءَ به القرآنُ هو الحقُّ الثّابتُ الرّاسخُ الذي لا ريبَ فيه، ولم يُوصَفْ في نهايةِ السُّورة بما يدلُّ على المَجدِ والشَّرفِ، كما في بدايتِها، لأنّه لم يَعُدْ يحتاجُ إلى الوصفِ، بعد أن ظهرَ الفرقُ الكبيرُ بين عظمتِه وإحكامِه، وحالِ الكافرينَ من التَّخبُّطِ والضَّلالِ والضَّياع.

وتتلخَّصُ المناسبةُ بين لفظِ «القرآن المجيد» ومضمونِ سورة «ق» في كثيرٍ من الأمور، أهمُّها أنّ ما تضمَّنَته السُّورةُ من مَسائلِ العَقيدةِ، كالمَوتِ والبَعثِ والحِسابِ والوَحدانيّةِ وصدقِ الرِّسالةِ وغيرِها من الأُمور، لا يَفصِلُ فيها إلا القرآنُ الكريمُ، الذي أنزلَه اللهُ تعالى على نبيِّه مَجيدًا عَظيمًا، لا تَثبُتُ أمامَ عظمتِه وإحكامِه أباطيلُ الكُفّارِ وحججُهم الواهية.

ومُناسبةُ وصفِ القرآنِ بالمجيدِ أنّ هذه السُّورةَ هي أوضحُ سُوَرِ القرآنِ تَعبيرًا عن عظمةِ اللهِ وألوهيّتِه، وتفرُّدِه بالمُلك والسُّلطانِ، وتحكُّمِه وحدَه بنَواميسِ الكونِ، وفيها تتجلَّى مظاهرُ قدرته العَظيمةِ، وقوّتِه الباهرة، وجَبروتِه القاهر.

«إنّها سورةٌ رهيبةٌ، شديدةُ الوَقعِ بحقائقِها، شديدةُ الإيقاعِ ببنائِها التَّعبيريّ، وصُوَرِها وظِلالِها وجرسِ فواصِلِها، تأخذُ على النَّفسِ أقطارَها، وتُلاحِقُها في خَطَراتِها وحَركاتِها، وتتعقَّبُها في سِرِّها وجَهرِها، وفي باطِنِها وظاهرِها، تتعقَّبُها برقابةِ اللهِ، التي لا تدعُها لحظةً واحدةً من

المَولد، إلى المَمات، إلى البعثِ، إلى الحَشر، إلى الحسابِ. وهي رقابةٌ شـديدةٌ دقيقةٌ رهيبةٌ، تُطبِقُ على هذا المَخلوقِ الإنسانيِّ الضَّعيفِ إطباقًا كامِلًا شامِلًا.

فهو في القَبضةِ التي لا تَغفلُ عنه أبـدًا، ولا تُغفِلُ مِن أمره دقيقًا ولا جَليـلًا، ولا تفارقُه كثيـرًا ولا قليـلًا. كلُّ نفَسٍ معدودٌ، وكلُّ هاجسـةٍ معلومةٌ، وكلُّ لفظٍ مكتوبٌ، وكلُّ حركةٍ مَحسوبةٌ...

وكلُّ هذه حقائقُ معلومةٌ، ولكنها تُعرَضُ في الأسـلوبِ الذي يُبديها وكأنّها جديدةٌ، تَروعُ الحِسَّ روعةَ المُفاجأةِ، وتَهـزُّ النَّفسَ هزًّا، وترجُّها رَجًّا، وتُثيرُ فيها رعشـةَ الخَوفِ، ورَوعةَ الإعجـابِ، ورَجفةَ الصَّحوِ من الغَفلةِ على الأمرِ المَهولِ الرَّهيب! وذلك كلُّـه إلى صُوَرِ الحَياة، وصُوَرِ المَوتِ، وصُـوَر البِلى، وصُـوَرِ البَعث، وصُوَرِ الحَشـرِ، وإلى إرهاصِ السّـاعةِ في النَّفسِ وتوقُّعِها في الحِسّ، وإلى الحقائق الكونيّةِ المُتجلّيةِ في السَّماءِ والأرضِ، وفي الماءِ والنَّبتِ، وفي الثَّمَرِ والطَّلْع»[(١)].

والمَجيدُ: من صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٥]. فلعلَّ القـرآنَ وُصِفَ بالمجيدِ على صفةِ مُنزِله والمتكلِّمِ به، وهو اللهُ سـبحانَه وتَعالى، كما وُصِـفَ بصفةِ مُنزِله والمتكلِّـم به «الحكيم» في سـورة (يس)، على ما ذهـبَ إليه كثيرٌ من المُفسِّـرين[(٢)]. ويُؤيِّدُ ذلك أنّ آياتِ السُّـورة تتجلَّى فيها من صفاتِ اللهِ تَعالى صفةُ المَجيدِ، وما يَرتبطُ بها من العِـزّة والعَظمةِ والقوّة والإحاطةِ والجَبروتِ وغيرها.

(١) في ظلال القرآن ص٣٣٥٦ ـ ٣٣٥٧.

(٢) يُنظر: الكشاف ٣:٤، وتفسير الرازي ٢٦: ٢٥١، والدر المصون ٣: ٢١٧.

وسواءٌ كانَت صِفةُ المَجيدِ، الواردةُ في القَسم، للقرآنِ ذاتِه أم مُستعارةً من صفةِ مُنزِلِه تباركَ وتَعالى، فإنّها تُوحِي بمَضمونِ السُّورة الذي تتجلّى فيه كلُّ مظاهرِ المَجدِ والعَظمةِ الربّانيّةِ والتّفرُّدِ بالأُلوهيّة، ولا يَخفى ما في ذلك من دِقّةِ المُناسبةِ بين ألفاظِ القَسمِ ومَضمونِ السُّورة.

ومن مظاهرِ العظمةِ والمَجدِ الإلهيِّ في السُّورة الرَّدُّ على مُنكرِي البَعثِ والحِسابِ بأنَّ اللهَ عالمٌ بما تأكلُه الأرضُ من أجسادِهِم بعدَ الموتِ، ومُحصٍ لأعمالِهِم في الحياةِ الدُّنيا، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ [ق: ٤][1]، ومنها التّذكيرُ بعظمةِ السَّماواتِ ودِقّةِ بنائِها وما فيها من الأجرامِ والكواكبِ، وانبساطِ الأرضِ وما فيها من الجبالِ وأخلاطِ النّبات. والسَّماواتُ والأرضُ وما فيهما من عجائبِ الخَلقِ ودِقّةِ الصُّنعِ أبلغُ دليلٍ على عظمةِ الخالقِ تباركَ وتَعالى، وأقربُ البَراهينِ إلى الحسِّ البَشريّ، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: ٦ ـ ٧].

وفَوقَهم: ظرفُ مكانٍ متعلّقٌ بحالٍ مَحذوفةٍ من السَّماء[2]، والتَّقدير: أفلم يَنظروا إلى السَّماءِ وهي فوقَهم. وفي استعمالِ هذا الظَّرفِ في موضعِ الحالِ «تنديدٌ عليهم لإهمالِهم التأمُّلَ مع المُكنةِ منه، إذ السَّماءُ قريبةٌ فوقَهم، لا يُكلِّفُهُمُ النَّظرُ فيها إلا رفعَ رُؤوسِهِم»[3]. وقال تعالى: «أفلَمْ يَنظرُوا» ولم يقلْ: يَرَوا، لأنّ الرُّؤيةَ أتمُّ وأكملُ من النَّظرِ، فهذا

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٧: ٤.
(٢) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ١١٧٣.
(٣) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٦: ٢٨٦.

تأكيدٌ علـى أنّ أدنَى نظرٍ وأقـلَّ لَمحٍ يُوصِلُهُـم إلى اليَقيـنِ بالأُلوهيّةِ والوَحدانيّةِ، ولكنَّهُم لم يَفعلوا، وقال «يَنظـروا إلى» ولم يقلْ: في، لأنّ النَّظرَ في الشَّيءِ يُنبِئُ عن التّأمُّلِ والمُبالَغةِ، أمّا النَّظرُ إلى الشَّيءِ فلا يُنبِئُ عنـه[1]، وهذا دليلٌ ثالـثٌ على أنّـه كان يَكفيهِم أدنَى نظـرٍ وأقلُّ لَمحٍ لِيتَّعظُوا، ولكنَّ عِنادَهُم منعَهُم من الحَقّ، وتكبُّرَهُم حجبَهم عن الإيمان.

وفي ذِكرِ خلـقِ السَّـماواتِ والأرضِ وما فيهما مـن مظاهرِ عظمةِ الخالقِ، وعجائبِ حكمتِه وتَدبيرِه، وقُربِهما من البشرِ ومَداركِهِم، إشارةٌ إلى أنّ اللهَ تَعالى مُحيطٌ بهم من فوقِهم بسَـمائِه، ومـن تَحتِهم بأرضِه، ومن حولهم بجوِّ السَّـماءِ والأرضِ، وهم يعلمونَ يَقينًـا أنّ الذي يُنزلُ الغيثَ يُرسِـلُ الصَّواعِقَ، والذي يبعثُ النَّسـيمَ يُؤلِّفُ الأعاصيرَ، والذي يُخرِجُ بَركاتِ الأرضِ وخَيراتِها يُفجِّرُ البَراكينَ والزَّلازِلَ والطُّوفانَ. وذلك من أجَلِّ مظاهرِ المجدِ الإلهي والعظمةِ والقوّة، التي تَظهرُ في السُّـورة، وتَتناسبُ والقَسمُ بلفظِ القرآنِ المَجيد.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى ذِكرِ مآلِ الأُممِ السّابقةِ التي كذَّبَتِ الرُّسُلَ، وما حلَّ بهـا من العَذابِ، وإنفـاذِ الوَعيدِ، قال تعالـى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤]، وإهـلاكِ المُكذِّبينَ مِـن الأُمَمِ، على ما بلغُوهُ من القُوّةِ والتَّمكينِ في الأرضِ، من أعلى مظاهرِ المَجدِ الإلهيِّ والقوّةِ والإحاطةِ بالنّاسِ والقُدرة عليهم. وفي ذِكرِ مَصيرِ المُكذِّبينَ بيانٌ لعادةِ اللهِ تَعالى فـي أمثالِهِم، وهو تَهديدٌ صَريحٌ، ووعيـدٌ مَحتومٌ لكُفّارِ مكّةَ، بأن يتجرّعُوا كأسَ العذابِ والهَلاكِ ذاتِها.

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٢٨.

وتَتوالى في السُّورة مظاهرُ القوّةِ الإلهيّةِ والسُّلطانِ والمَجدِ والقُدرة، وتبلغُ الإحاطةُ بالإنسان أقصَى درجاتِها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، فاللهُ تعالى يعلمُ ما يَدورُ في النَّفسِ الإنسانيّةِ من الخَطراتِ والوَساوِسِ، وما تُخفيهِ في باطنِها من أسرارٍ وما تُبديهِ من أقوالٍ وأفعال، وما تُسِرُّهُ في أعماقِها من النيّاتِ وما تُعلِنُه من مواقفَ وأعمال. وهذا في غايةِ القُدرة الإلهيّةِ والإحاطةِ بهذا المَخلوق، ويُناسِبُ القسمَ بلفظِ القُرآنِ المَجيد.

ويبلغُ السُّلطانُ الإلهيُّ مَداهُ في تصويرِ مشهدِ المَوتِ وقَبضِ الرُّوح، والانتقالِ مباشرةً إلى مَشهدِ الحَشرِ والجَزاء، حيثُ يَستسلمُ الإنسانُ لقَضاءِ اللهِ تعالى، ويُذعِنُ صاغرًا لأمره وحُكمِه، فإذا برُوحِه تُنتزَعُ وهو كارهٌ يُعاني سَكَراتِ المَوتِ، وإذا بنفسِه تُساقُ إلى المَحشَرِ مُذعِنًا لسَطوةِ المَلِكِ الجَبّارِ، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ١٩ ـ ٢٢]. وهذانِ المَشهدانِ من أعظمِ مظاهرِ القُدرة والمَجدِ والسُّلطانِ والجَبروتِ والإحاطةِ بالإنسان.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى تصويرِ مشاهدِ العَذابِ في نارِ جهنَّمَ، واختِصامِ أهلِ النّارِ، حيثُ لا مُلكَ إلا لله، ولا قُدرةَ إلا لَه، قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦]. ففي هذا المَشهدِ تتجلّى سَطوةُ الملكِ الجَبّارِ، في أعظمِ صُوَرِها، على جبابرةِ الأرضِ وطُغاتِها، فتُلقي بهمُ المَلائكةُ في جهنَّمَ، ويَتهاوَونَ في جَوفِها أذِلّاءَ صاغرينَ، وهذا المَشهدُ في غايةِ المُناسبةِ للقسمِ بلفظِ القرآنِ المَجيد.

وفي مقابلِ هذا المَشــهدِ المُخيفِ، الذي تَنفطرُ له القلوبُ، وتَذهَلُ في تخيُّلِه النُّفوسُ، وتضطــربُ تحتَ وَقعِه العُقولُ، تنتقلُ السُّــورةُ إلى مُواســاةِ المُؤمنينَ، وتَهدئةِ نُفوسِــهِم، فتُصوِّرُ ما أعدَّهُ اللهُ لهم من ثوابٍ عَظيمٍ، ونَعيمٍ مُقيمٍ، قال تعالــى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٣]. فمَن خَشِــيَ اللهَ في الدُّنيا، ومجَّدَه وأقرَّ له بالعُبوديّةِ، فسوفَ يَجِدُ مَولاهُ غفورًا رَحيمًا، يأمَنُ عندَه من الفَــزَعِ الأكبرِ، ويَنعَمُ في جنّتِه بالرّاحةِ والسَّعادةِ والسُّــرور، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥].

ثم تعودُ السُّورةُ، بلَمحةٍ مُوجَزةٍ، إلى إيقاعِ التَّهديدِ، ولُغةِ الوَعيدِ، اللّذينِ تتجلّــى فيهما مظاهرُ القــوةِ والمَجدِ والسُّــلطان، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾ [ق: ٣٦].

ثم يَخِفُّ الإيقاعُ ويهدأُ، وتتّجهُ الســورةُ إلى مُواساةِ النُّفوسِ المُؤمنةِ بأنّ لها ربًّــا عظيمَ القُدرة والقوّة، لا يُعجِزُهُ شــيءٌ فــي الأرضِ ولا في السَّــماءِ، ولا يَغفلُ عن مكائدِ المُشركينَ وأذاهُم للمُســلِمينَ، ولعلَّ من أســمَى مَظاهرِ القُــدرة الإلهيّةِ خَلــقَ السَّــماواتِ والأرضِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨].

ثم تتوجّهُ السُّــورةُ إلــى النبيِّ ﷺ، فتَدعــوهُ إلى الصَّبــرِ على أذَى المُشركينَ، وإخلاصِ العِبادةِ والتَّسبيحِ لله، وانتظارِ اليَومِ المَوعودِ، حيثُ تُصعَقُ فيه الخَلائقُ، ثم يُحشَرُ النّاسُ للحِسابِ والجَزاءِ، وتُجازَى النُّفوسُ

على أعمالِها، قال تعالــى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٣]. ويومُ القيامةِ والحَشــرُ من أعظمِ المشــاهدِ التي تظهرُ فيها القدرةُ الإلهيّةُ، والسّطوةُ الرّبانيّة، وذِكرُها يُناسبُ تمامًا القَسمَ بلفظِ القرآنِ المَجيد.

وأخيرًا تُختَتَمُ السُّــورةُ بتأكيدِ قُــدرةِ اللهِ تَعالــى وإحاطتِه بالنّاسِ، وسُمُوِّ القُرآنِ وتَفوُّقِه، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: ٤٥]. فاللهُ عالمٌ لا يَغيبُ عن علمِه شَــيءٌ، وهو مُحيطٌ بكلِّ شَيءٍ، فله المَجدُ والسُّــلطانُ، ولِقُرآنِه التَّفوُّقُ والقَولُ الفَصل.

مما تقدَّمَ يتَّضِحُ أنّ سورةَ (ق) تضمَّنَت أُمورًا خَطيرةً، كصِدق الرِّسالةِ والوَحدانيّةِ والبَعثِ والنُّشــورِ والجَزاء، وهذه الأمــورُ لا يَفصِلُ فيها إلا القرآنُ الكريمُ، فكانَ القســمُ بلفظِ القرآنِ مُناسِــبًا لمَضمونِ السُّورة، أمّا وَصفُه بالمَجيدِ فقد تجلَّت مناســبتُه لمَضمونِ السُّورة في شِدّةِ أسلوبِها، وصَخَبِ إيقاعِها، وتَصويرِها لمَظاهرِ قُدرةِ اللهِ وسُلطانِه ومَجدِه[1].

(١) وتجدر الإشارة إلى وجود مناسبة صوتية أيضًا بين القسم والسورة، فجملة القسم (والقرآن المجيد) معظم حروفهــا تتصف بالجهر والشــدة والانفتاح والقلقلة، كمــا أن الألفاظ في السورة غلب عليها أحرف الجهر والشــدة والانفتاح والقلقلة. فجاء الإيقاع الصوتي للسورة مناسـبًا لموضوعها المتمثل في تصوير مظاهــر العظمة الربانية والمجــد الإلهي. يُنظر في مخارج الحروف وصفاتها: الكتاب لسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجــي، القاهــرة ١٩٨٨، ٤: ٤٣٣، والنشــر في القراءات العشــر لابــن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١: ١٩٨، ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٩، ص ٢٧٥.

القسمُ بالقرآنِ الكريمِ بلفظِ الكِتاب

وردَ القسمُ بالقرآنِ الكريمِ في افتتاحِ السُّوَرِ في خَمسةِ مواضعَ، ثلاثةٍ منها جاءَ القسمُ فيها بلفظِ «القرآن»، وقد عرضتُها سابقًا، واثنَينِ منها جاءَ القسمُ فيهما بلفظِ «الكتاب» مَوصُوفًا بالمُبينِ في المَوضعَينِ.

فقد جاءَ القسمُ بالكتابِ المُبينِ، في افتتاحِ سُورةِ الزُّخرُفِ، في قولِه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ١ ـ ٣]، كما جاءَ في افتتاحِ سُورة الدُّخانِ التي تَلِي سُورةَ الزُّخرُفِ في ترتيبِ المُصحَفِ في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ١ ـ ٣]. وقد وُصِفَ القُرآنُ في المَوضعينِ، كما هو مُلاحَظٌ، بصِفةِ المُبين.

والكتابُ من النّاحيةِ الصَّرفيّةِ هو في الأصل: مصدرُ كتبَ يَكتُبُ، وأصلُ مَعناهُ الجَمعُ، يُقال: كتَبَ الشَّيءَ إلى الشَّيءِ كَتبًا وكِتابًا وكِتابةً، أي ضَمَّهُ إليه وجمَعَه. ومن معنى الجمعِ الكِتابةُ المعروفةُ، لأنها ضَمٌّ للحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعض[1].

ثم أُطلِقَ لفظُ الكتابِ على ما هو مُسجَّلٌ مكتوبٌ، فيكونُ وَفقَ هذه التَّسميةِ مَصدرًا للفعل كتَبَ يكتُبُ، أي خَطَّ، بمعنى اسمِ المَفعولِ المكتوبِ المَخطوطِ للمُبالَغة، عُبِّرَ به عن اسمِ الذّاتِ لتَوكيدِ المُبالَغة[2]،

(١) يُنظر: المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب، وتاج العروس (كتب)، والكليات للكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٧٦٧.

(٢) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن ١: ٨١.

وهذه هي الدِّلالةُ الصَّرفيّةُ لإطلاقِ اسـمِ «الكتاب» على القرآنِ الكريم. والمُرادُ بالمُبالَغةِ وتَوكيدِها في علمِ الصَّرفِ قوةُ المَعنى ودقّتُه، كما ظهرَ سـابقًا، وإنّما أتَـتِ المُبالغةُ من اسـتعمالِ اللّفظِ مُؤدِّيًـا ثلاثَ وظائفَ صرفيّةٍ، هي الوظيفةُ المَصدريّةُ، والوَظيفةُ الوَصفيّةُ، والدَّلالةُ على اسـمِ الذّاتِ الذي يُدرَكُ بالحَـواسّ، ويُبنَى على هذا الاسـتعمالِ من النّاحيةِ الدَّلاليّةِ ربطُ مَضمونِ القُـرآنِ الكريم بحدثِ الكِتابـةِ، لإفادةِ أنّ ما فيه ثابتٌ مَحفـوظٌ لا يتغيَّرُ ولا يتبـدَّلُ ولا يَضيعُ. ولا يَخفَـى ما في هذه التَّسميةِ من قوّةِ المَعنى ودقّتِه، المُعبَّرِ عنهما بالمُبالَغة.

وأُطلِقَـتِ الكِتابةُ، في القـرآنِ الكريمِ، على كلِّ أمرٍ من شـأنِه أن يُكتَبَ كالأحـكامِ والفروضِ والقَضـاءِ والعَزمِ وغيرِها، قـال الرّاغبُ الأصفهاني: «ويُعبَّرُ عن الإثباتِ والتّقديرِ والإيجـابِ والفَرضِ والعَزمِ بالكِتابة، ووَجهُ ذلك أنّ الشَّـيءَ يُرادُ ثم يقالُ ثم يُكتَبُ، فالإرادةُ مَبدأٌ، والكِتابةُ مُنتهًى. ثم يُعبَّرُ عن المُراد الذي هـو المَبدأُ، إذا أُرِيدَ تَوكيدُه، بالكتابةِ التي هي المُنتَهى...

قال تعالـى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبـة: ٥١]... وقـال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفـال: ٧٥] أي: فـي حُكمِه، وقولـه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائـدة: ٤٥] أي: أوجَبْنا وفرَضْنا... وقوله: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٤] فإشارةٌ إلى أنّ ذلك مُثبَتٌ له ومُجازًى به. وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣] أي: اجعَلْنا في زُمرتِهم»[1].

---

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص ٦٩٩.

أما «المُبين» فهو اسـمُ فاعلٍ للفعلِ أبانَ أي أوضَحَ وأظهَرَ، ويَحتملُ أن يكونَ بمعنَى الصِّفةِ المُشـبَّهةِ البَيِّنِ، أي الواضح الظّاهرِ لمَن يتَدبَّرُهُ، فيكونُ في هذا الاسـتعمالِ مبالغةٌ تتمثَّلُ في أن التَّلفُّـظَ بلفظِ «المُبين» استدعَى لفظَ «البَيِّن» ومَعناهُ، فكأنَّ المَعنى الواحدَ قد وُضِعَ للدَّلالةِ عليه لفظانِ، وهذا الأسلوبُ يُفيدُ المُبالَغةَ المُرادَ بها قوّةُ المَعنى وتوكيدُه[1].

ويَحتمـلُ «المُبين» أيضًا أن يكونَ اسـمَ فاعلٍ علـى بابِه، فيكونَ المُرادُ بالكتابِ المُبيـن: «الذي أبانَ طُرُقَ الهُدى مـن طُرقِ الضَّلالةِ، وأبانَ ما تَحتاجُ إليـه الأمةُ في أبوابِ الدّيانةِ»[2]. ومِن المُفسِّـرينَ مَن ذهبَ إلى أن وصفَ الكتابِ بالمُبينِ «مَجازٌ، لأن المُبينَ هو اللهُ تعالى، وسُمِّيَ القرآنُ بذلك توسُّعًا من حيثُ إنّه حصلَ البَيانُ عندَه»[3]. أي إنّ الكتابَ وُصِفَ بصِفةِ مُنزِله وهو اللهُ تَعالى، كمـا وُصِفَ القرآنُ بصِفةِ مُنزله «الحكيم» في سورة (يس) والمَجيدِ في سورة (ق)، وقد توضَّحَ ذلكَ سابقًا.

فسُـورتا الزُّخرُفِ والدُّخانِ افتُتِحَتا بالقسـمِ بلفظِ «الكتاب المبين»، وجوابُ القسمِ في السُّورتَينِ مذكورٌ، وهو في سورةِ الزُّخرفِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٣ ـ ٤][4]، وفي سورة الدُّخانِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ٣][5].

---

(١) يُنظر في مثل هذا التوجيه: تفسير الرازي ٢٨: ١٣١.

(٢) الكشاف ٤: ٢٣٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٧: ٦١٦.

(٤) يُنظر: تفسير القرطبي ١٦: ٦١ ـ ٦٢.

(٥) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٤.

فمُناسبةُ المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليه تتجلّى في أنّ كليهما واحدٌ وهو القرآنُ الكريم، إلّا أنّ لفظَ القسمِ «الكتاب» دلَّ على القرآنِ باعتبارِه مَكتوبًا مَحفوظًا من التَّحريفِ والتَّبديلِ، وفي مأمَنٍ من الضَّياعِ والنِّسيانِ، ولفظَ المُقسَمِ عليه وهو القرآنُ دلَّ على أنّ قراءتَه مُيَسَّرةٌ، وفهمَهُ مُتاحٌ. وفي هذا تَنويهٌ بأنّ المُقسَمَ عليه قد بلغَ من الشَّرفِ والعُلوِّ ما لا يُلتَفَتُ إلى غيرِه، فأقسمَ به عليه، إيذانًا بأنّه لا يُوجَدُ ما هو أعلَى منه وأجلُّ[(١)].

أمّا مُناسبةُ المُقسَمِ به وهو «الكتاب المبين» لمضمونِ السُّورتَينِ فتتجلّى في أنّ الدَّلالةَ الصَّرفيّةَ لإطلاقِ اسمِ الكتابِ على القرآنِ الكريمِ تَستدعِي حدثَ الكتابةِ، الذي يُفهَمُ منه أنّ القرآنَ مَحفوظٌ من التَّحريفِ والتَّبديلِ، وأنّ ما جاءَ فيه من الحَقائقِ والأُمورِ الغَيبيّةِ والقَصَصِ والأخبارِ هو حقٌّ ثابتٌ راسخٌ، متاحٌ لكلِّ جيلٍ، وفي كلِّ زمانٍ، للاطِّلاعِ عليه والوقوفِ على تَفاصيلِه وأخبارِه.

وفي المُقابلِ نجدُ مضمونَ السُّورتَينِ يدورُ حولَ إثباتِ أُمورِ العَقيدةِ، وإبطالِ دَعوى الكافرينَ وحِجَجِهم الواهيةِ، وما يَنسبونَه لله تعالى من الولدِ وما يُشيعونَهُ من دَعاوَى الكُفرِ والضَّلالِ، معَ الإشارة المُوجَزةِ إلى مَصيرِ المُكذِّبينَ والمُعانِدينَ من الأُمَمِ السّابقةِ، وأباطيلِهم التي لم تَثبتْ أمامَ الحقِّ.

فالسُّورتانِ اتَّجهَتا إلى الفصلِ المُطلَقِ والحَسمِ النِّهائيِّ في هذِه الأُمورِ، بحيثُ تزولُ الشُّبُهاتُ في طريقِ الإيمان، ويظهرُ الحقُّ واضحًا لا يَشوبُه شكٌّ أو رَيبٌ، وهذا المَنهَجُ في الحَسمِ والإثباتِ القَطعيِّ

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٥: ١٥٩.

يَســتلزمُ ذِكرَ الكتابةِ وثُبوتَ النَّصّ، لكي تُطوَى صفحةُ الزَّيغِ والضَّلالِ، وتُنشرَ صفحاتُ الاســتِقامةِ واليَقين. فكان القسمُ بالكتابِ المُبينِ مُناسِبًا لمضمونِ السُّــورتَين، لبيانِ أنّ ما جــاءَ فيهما هو أحــكامٌ خالدةٌ باقيةٌ، مُسجَّلةٌ في آياتِ الذِّكرِ الحَكيم، وكأنّ معركةَ الجدلِ والخِصامِ بينَ الكفرِ والإيمانِ قد آنَ لها أن تُطوى أمامَ البَراهينِ التي تتابعَت في السُّــورتَين، بحيثُ لم تُغادِرْ مسألةً إلا وقد حُسِمَت لصالحِ الإيمان.

وفيما يلي عرضٌ لمضمونِ كلِّ ســورةٍ على حِدةٍ، مــع بيانِ ما بينَه وبينَ القسمِ بالكتابِ المُبينِ من مُناسباتٍ لَفظيّةٍ ودَلاليّة.

أولًا ـ القسمُ بلفظِ «الكتاب المبين» في سُورة الزُّخرُف:

تبدأُ السُّورةُ بعدَ القسمِ وجوابِه بتأكيدِ شرفِ القرآنِ الكريمِ، ووَصفِه بالعُلُــوِّ والحِكمةِ، في قولــه تعالــى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، وهذا التّأكيدُ والوصفُ يناسِــبُ القسمَ بالكتابِ المُبينِ، باعتبارِه ثابتًا راسخًا مُفصِحًا عن العلمِ والحِكمةِ مُتفوِّقًا على كلِّ مَقولٍ ومَسطور.

ثم يَنتقِلُ السِّــياقُ إلى التَّعبيرِ، بأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، عن أنّ القرآنَ ماضٍ في رسالتِه وتَذكيرِه، وإبانتِه عن الحَقِّ والهُدى، وإن صادَفَ قلوبًا لا تَعقِلُ، ونُفوسًا استبدَّ بها الشِّركُ والجَدلُ والعِنادُ، مذكِّرًا بمَوقفِ أمثالِهِم من إنكارِ الرِّســالاتِ، والاستِهزاءِ بالرُّسُلِ، ثم سُنّةِ اللهِ في إهلاكِ المُنكرينَ مهما بلغُوا من القوّةِ والبَطــشِ، قال تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ [الزخــرف: ٥]. والمُناسَــبةُ واضحةٌ بين هذا السِّياقِ والقَسمِ بلفظِ الكتابِ المُبين.

ثم يُعقِّبُ السِّياقُ القرآنيُّ بعَرضِ اعترافِ المُشركينَ بالأُلوهيّةِ، وهذا يُعبِّرُ عن انبهارِهم بالكتاب المُبين، وما فيه من الحِجَجِ والبَراهينِ، التي لا تُنكرُها الفِطرةُ الإنسانيّةُ الصّافيةُ، مهما بلغَ بأصحابِها العِنادُ واللّجاجُ، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩]، والقسمُ بالكتابِ المُبينِ يُفيدُ بأنّ اعترافَهم هذا مَحفوظٌ مُدوَّنٌ في كتابِ الله، يَنطقُ به ويُظهِرُه عليهم إلى أن يَلقَوا ربَّهم.

وقد تكرَّرَ اعترافُهم بالأُلوهيّةِ في السُّورة في قولِه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقولِه تعالى في نهايةِ السُّورة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فاعترافُهم بمَشيئةِ اللهِ القاهرة، وإن كانت على غيرِ صُورتِها الحَقيقيّةِ، هي إذعانٌ لسُلطانِ الله تَعالى عليهم، واعترافٌ لـه بالأُلوهيّةِ والقُدرةِ والتَّصرُّفِ في المُلك. وكلُّ ذلكَ ممّا حَفِظَه الكتابُ، وأبانَ عنه إبانةً قَطعيّة.

وفي هذا المَقامِ يتراجعُ أسلوبُ الوَعيدِ، ويَهدأُ إيقاعُ السُّورة، ليُفسِحَ للرَّحمةِ الرَّبانيّةِ بأن تُفصِحَ عن نِعَمِ اللهِ تعالى على النّاس وتفضُّلِه عليهم، فكأنَّ الاعترافَ بالأُلوهيّةِ قد قابلَه فيضٌ من الودِّ والعَطفِ الإلهيِّ على تلكَ النُّفوسِ التي نطقَت بالفِطرة التي فطرَ اللهُ النّاسَ عليها، وإن كان أصحابُها يُظهِرونَ الشِّركَ والعِناد، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزخرف: ١٠].

وهكذا يَمضي السِّياقُ في تذكيرِهم بمظاهرِ العظمةِ الإلهيّةِ، والأدلّةِ الكونيّةِ على الوَحدانيّة، وما أنعمَهُ اللهُ عليهم من إنزالِ الغَيثِ وإخراجِ النَّبات، وتَسخيرِ الطَّبيعةِ لهم، وما فيها من الدَّوابِّ والفُلك، في أسلوبٍ

هادئ يدعو إلى التَّفكُّر والتَّأمُّلِ والاتِّعاظِ. وهــذه الأدلةُ والنِّعمُ والدَّعوةُ إلى الإيمانِ أبانَها القرآنُ المُبينُ في كثيرٍ من السُّوَرِ والآيات.

وبمِثلِ هذا الإيقاعِ الهــادئ يُحاوِرُهُمُ القرآنُ مُظهِرًا بُطلانَ تصوُّرِهم، وفســادَ اعتقادِهم، وإصرارَهم على الباطلِ، قــال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخـرف: ١٦ ـ ١٧]. ثم ينتقلُ السِّياقُ إلى الحديثِ عن مَوقفِ أمثالِهِم في الأُمَمِ السّــابقةِ من الإيمانِ، الذينَ نبذُوا الحقَّ وراءَ ظُهورِهم، واختارُوا طريقَ الشِّــركِ والعِنــادِ، فكانَت عاقبتُهُم الهَلاكَ، قال تعالــى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخـرف: ٢٥]. وهذِه الأخبــارُ الغَيبيّــةُ لا يَعــرفُ تفاصيلَهــا، ولا يَنطِقُ بحَقيقتِها، إلا الكتابُ المُبين.

ثم يَذكرُ التَّعبيرُ القرآنيُّ قصةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِه، مُشــيرًا إلى أنّ فِطرتَه السَّــليمةَ هي التي جعلَتهُ يأبَــى عبادةَ الأصنــام، ويتوجَّهُ لخالقِ السَّــماواتِ والأرضِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخـرف: ٢٦ ـ ٢٧]. وفي هذا السِّــياقِ مُقابَلةٌ بينَ أولئك الذينَ يَعترفونَ بفِطرتهم بألوهيّةِ اللهِ وقدرتِه وتفرُّدِهِ بالخَلق، وبينَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنْ شَــتّانَ بين مَن تَنكَّرَ لفِطرته واختارَ الضَّلالَ والشِّــركَ، وبين مَن احتكَمَ إليهــا مُوقِنًا بأنّ اللهَ تعالى الذي خلقَه ســوف يتولّى هِدايتَه. وكلُّ هذه الحَقائــقِ والغَيبيّاتِ ينطقُ بها الكتابُ المُبين.

ثم تَستطرِدُ السُّــورةُ في تَصويرِ عِنادِ المُشركينَ، وجدَلِهم الواهي في الامتناعِ عن وُلــوجِ طريقِ الإيمان، الذي أنجَى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من السُّــقمِ

والضِّيقِ والضَّلالِ إلى فضاءِ التَّوحيدِ والفَوزِ والنَّجاة، وتُبيِّنُ السُّورةُ هَوانَ الدُّنيا ومَنِ اطمأنَّ ورَكنَ إليها، وقلّةَ شأنِها وشأنِهم عندَ الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، فاللهُ تعالى يُعطي الكافرينَ من مَتاعِ الدُّنيا، ويَمنحُهم من كنوزها وزينتِها، لهوانِها وقلّةِ شأنِها في مُقابلِ حياةِ الخلودِ والنَّعيمِ في الآخرة. وهوانُ الدُّنيا وعُشّاقِها على الله حقيقةٌ ثابتةٌ ينطقُ بها الكتابُ المُبين.

ثم يَشتدُّ إيقاعُ السُّورةِ مُحاكِيًا مشاهدَ الإغواءِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخرة، فإذا بالعنايةِ الرَّبّانيّةِ تتخلّى عمَّن تغافَلَ عن ذِكرِ اللهِ والإيمانِ به، وتُسلِمُه للشَّياطينِ، تتقاذَفُه في أوديةِ الضَّلالِ، وتُزيِّنُ له باطلَ الأعمالِ، ثم تُرديهِ في عذابِ الآخرةِ ووَيلاتِها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٨ ـ ٣٩]، وهذا المَصيرُ المَحتومُ، والوعدُ الحقُّ، والحَسرةُ والنَّدمُ يومَ القيامةِ، لا ينطقُ بها إلا الكتابُ المُبين.

ثم تتوجَّهُ السُّورةُ إلى مُواساةِ النبيِّ ﷺ، وتَصبيرِه على أذى المُشركينَ، وتَدعوهُ ألّا يَحزنَ لتكذيبِ قومِه له، وألا يتحسَّرَ لأنّهُم لم يُؤمنُوا، وألا يتأسَّفَ لِسُوءِ مَصيرِهِم في الآخرة، وما قد يَلحقُهُم من عذابٍ في الدُّنيا، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٢].

ثم تَدعوهُ السُّــورةُ إلى الثَّباتِ على طريقِ الحقّ، والتَّمسُّــكِ بهَدي القرآنِ، الذي جعلَه اللهُ تذكرةً ومَوعظةً للنبيِّ ﷺ وقومِه، وسوف يُسألُونَ عن كلِّ ما جاءَ به القرآنُ، ويُحاسَبُونَ على تكذيبِهِم وتَماديهِم في العِنادِ والكُفرِ، قال تعالــى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخـرف: ٤٣ ـ ٤٤]. وكلُّ هــذِه الحقائقِ والوُعودِ، التي يُفصِحُ عنها القرآنُ الكريمُ، تُناسِــبُ القســمَ في افتتاحِ السُّورة بلفظِ الكتابِ المُبين.

ثم تنتقلُ السُّــورةُ إلى عرضِ جانبٍ من قصّةِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لَقِيَه من عنَتِ فرعونَ وتَعاليهِ وادِّعائِه الأُلوهيّةَ، ثم ما أنزلَهُ اللهُ تعالى بآلِ فرعــونَ من صُنوفِ العَــذابِ لعلَّهُم يتّعظــونَ ويَعتبرونَ، حتى ضاقَت بهمُ الدُّنيا ومسَّــهُمُ النَّصبُ والجُوعِ، فطلبوا إلى مُوسى أن يدعوَ ربَّه لِيَرفــعَ عنهم ما نزلَ بهم، وأنَّهم ســوف يُؤمنونَ به، فلما كُشِفَ عنهمُ العذابُ نقضُوا عهدَهُم، واستَمرُّوا على كُفرِهم وغَيِّهم، فكان المَصيــرُ المَحتــومُ الذي لا بــدَّ منه، قــال تـعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخـرف: ٥٥ ـ ٥٦]. وهــذه الأخبارُ لا يَنطــقُ بها على حقيقتِها إلا الكتابُ المُبين.

ثم تعرضُ السُّــورةُ وَلَعَ كُفّارِ مكّةَ بالجدلِ والخِصــام، وميلَهم إلى العِنادِ والانصرافِ عن الحقِّ والهُدى، ومن ذلك جدلُهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وادعاؤُهم أنّه في النّار مع آلهتِهم، حين نزلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، إذ ادَّعَوا أنّ الآيــةَ تَحكُم بالنّار على كلِّ ما عُبِدَ مــن الأصنامِ والملائكةِ

والصّالحيــنَ والأنبياءِ ومنهــم عيســى بنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، قــال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ ﴾ [الزخـرف: ٥٨ ـ ٥٩]. فيأتي النَّصُّ القرآنيُّ مُبيِّنًا ضَلالَهم ووَلَعَهُم بالخِصامِ، مُشـيرًا إلى مكانةِ عيســى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ربِّه، ومُعجزةِ خلقِه التي جعلَهـا اللهُ دليلًا على قُدرتِه، وعِبرةً ومَوعظةً لقَومِه.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى مشاهدِ القيامةِ والآخرة، فإذا بالمُؤمنينَ يَنعمونَ بالأمنِ والطُّمأنينةِ في ظلالِ الجنّةِ ونَعيمِهــا، قال تعـالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٣ ﴾ [الزخرف: ٧٢ ـ ٧٣]، وإذا بالكُفّار يتبرّأُ بعضُهم من بعضٍ، وهم يُســاقونَ إلى العــذابِ الأليمِ، قال تعالــى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ ﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٦]. وهذه المَشــاهدُ الغَيبيّةُ التي تتعلَّقُ بالآخرة وما فيها من الجَزاءِ يختصُّ بالإفصاحِ عنها وروايةِ تفاصيلِها الكتابُ المُبين.

ثم تعودُ السُّــورةُ، بعــد أن يرتفــعَ إيقاعُها ويشــتدَّ، إلــى مُواجهةِ المُشركينَ، وتَصحيحِ فسادِ عقيدتِهم، وبيانِ أنّ اللهَ مُحيطٌ بهم، وهو الإلهُ الحقُّ المتصرِّفُ في ملَكوتِ السَّــماواتِ والأرض، وأنّه سوف يُحاسِبُهُم على ضَلالِهم وتَمادِيهِم في الباطــلِ، قال تعالى: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٨٣ ﴾ [الزخـرف: ٨٣]. ثم تَنتهي السُّــورةُ بتَوجيهِ النبيِّ ﷺ بــأن يُعرِضَ عنهــم ويتجاهلَهُم، فإنّهُم مُلاقُــو وعيدِ اللهِ إن لم

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٢٥٩.

يؤمنــوا[١]، قــال تعالــى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩].

ولا تقتصرُ المُناسبةُ بين القسمِ بلفظِ «الكتاب المبين» ومضمونِ السُّورة على النَّواحي الدَّلاليّــةِ فقط، بل تتعدّاها إلى النَّواحــي اللَّفظيّةِ، إذ إنّ لفظَ الكتابةِ والإبانةِ يتكرَّرُ في السُّورة في مواضعَ عدّةٍ، وهذا يدلُّ على أنّ القسمَ في افتتاحِ السُّورة بالكتابِ المُبينِ إنّما كان لغَرضٍ دلاليٍّ ولفظيٍّ مقصود.

فمِن تَكرارِ الكتابةِ في السُّــورة قولُــه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخــرف: ١٩]، وقولُــه تعالــى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الزخــرف: ٢١]، وقولُه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

ومن تَكرارِ لفظِ الإبانةِ في السُّورة قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخــرف: ١٥]، وقولُــه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخــرف: ٢٩]، وقولُــه تعالــى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠]، وقولُــه تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخــرف: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخــرف: ٦٢]، وقــولُــه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٦: ١٢٤.

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].

ممّا تقدّم يتّضحُ وجودُ مناسباتٍ دلاليّةٍ ولفظيّةٍ في سُورة الزُّخرُفِ، بينَ القسمِ في افتتاحِها بلفظِ «الكتاب المبين»، وبينَ مضمونِ السُّورة، إذ تجلَّتِ المُناسَبةُ اللَّفظيةُ بتَكرارِ وُرودِ الكتابةِ والإبانةِ فيها، كما تمثَّلَتِ المُناسَبةُ الدَّلاليةُ في أنّ مَضمونَ السُّورةِ يُعالِجُ حقائقَ راسخةً، ويَروي أخبارًا غيبيّةً ثابتة، لا يُعلَمُ كُنهُها إلا بما جاءَ به القرآنُ الكريمُ، الذي عُبِّرَ عنه بلفظِ الكتابِ المُبينِ، ليدلَّ على أنّها حقائقُ مَكتوبةٌ مُدوَّنةٌ، فلا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ ولا يَسري إليها الشَّكُّ.

ثانيًا ـ القسمُ بلفظِ «الكتاب المبين» في افتتاحِ سورة الدُّخان:

تأتي سورةُ الدُّخانِ بعدَ سورة الزُّخرفِ في ترتيبِ المُصحَف، والسُّورتانِ تَتشابَهانِ في افتتاحِهما بالحَرفَينِ «حم» باعتبارِهما من الأحرُفِ المُقطَّعةِ، كما تَتشابَهانِ بالقسمِ بلفظِ «الكتاب المُبين»، وفي جوابِ القَسمِ الذي ينصُّ على صِدقيّةِ القرآنِ الكريمِ، وأنّه كلامُ الله المُنزَلُ على نبيِّه، كما تتشابهانِ أيضًا في المَضمونِ، إذ تَعرضُ كلٌّ منهما مبادئَ العقيدة، كالوَحدانيّةِ وصِدقِ الرِّسالةِ والسّاعةِ والحَشرِ والجَزاءِ والجَنّةِ والنار، وإنما تختلفانِ في الأسلوبِ والإيقاع.

فسُورةُ الزُّخرُفِ فصّلَت في عرضِ مواقفِ مُشركي مكةَ وأمثالِهم من الأُمَمِ السّابقةِ، وعاداتِهم في تكذيبِ الرُّسُلِ وإيذائِهم، واتّهامِهم بالسِّحرِ والكَذِب، ووَلَعِهِم بالجَدلِ والخِصام والعِناد، ودأبِهِم في نقضِ العُهودِ، وادِّعائِهِم على الله ما لا يَليقُ بعظمتِه ووَحدانيّتِه.

وقد وقفَتِ السُّورةُ بإزاء معظمِ أقوالِ المُشركينَ وحِجَجِهم وأفعالِهم واعتقاداتِهِمُ الفاسدةِ وتصوُّراتِهِمُ الخاطئةِ، لتَصحيحِها وبيانِ طريقِ الحقِّ والهُدَى. كما فصَّلَت في مُواساةِ النَّبيِّ وأصحابِه، وتَصويرِ مَشاهدِ النَّعيمِ في الجنّة.

أما مشاهدُ العَذابِ والانتقامِ الإلهيِّ من المُجرمينَ فقد جاءَت مُجمَلةً مُختصَرة، فكان الأسلوبُ أقربَ إلى اللِّينِ، وتَجسيدِ الصِّفاتِ الرَّبانيّةِ التي يَغلبُ عليها الصَّبرُ والحلمُ والرَّحمة، كما كان الإيقاعُ هادئًا بصورة عامّة، يأذَنُ بالتَّفكُّر والتّأمُّل، ويُغري بالتَّوبة، ويُطمِعُ بالعَفوِ والمَغفرة.

أما سورة الدُّخانِ فقد أجمَلَت في عرضِ العَقائدِ الفاسدةِ لمُشركي مكّةَ وأمثالِهم من الأُمَمِ السّابقةِ، وأوجزَت في مُناقشتِهم والوُقوفِ على أقوالِهم وادِّعاءاتِهم، على حينَ فصَّلَت في تَصويرِ مَشاهدِ العَذابِ في الدُّنيا والآخرة التي تَنزلُ بالمُشركينَ المُعاندِينَ، فكان الأسلوبُ أقربَ إلى الشِّدّة، وكان الإيقاعُ صاخِبًا مُدوِّيًا يَتناغَمُ مع المَضمونِ الذي تَتوالى فيه مَشاهدُ العذابِ والانتقامِ في عرضٍ مُرعبٍ مَهيب.

«إنّها سورةٌ تَهجمُ على القلبِ البشريِّ من مَطلَعِها إلى خِتامِها، في إيقاعٍ سريعٍ مُتواصِل، تَهجمُ عليه بإيقاعِها كما تَهجُمُ عليه بصُوَرِها وظِلالِها المُتنوِّعةِ المُتَّحدةِ في سِمةِ العُنفِ والتَّتابُعِ، وتَطوفُ به في عوالِمَ شتّى بين السَّماءِ والأرضِ، والدُّنيا والآخرة، والجَحيمِ والجنّةِ، والماضي والحاضرِ، والغَيبِ والشَّهادةِ، والمَوتِ والحياةِ، وسُنَنِ الخَلقِ ونَواميسِ الوُجود. فهي على قِصَرِها نِسبيًّا رحلةٌ ضَخمةٌ في عالمِ الغَيبِ وعالَمِ الشُّهُود»[1].

---

(١) يُنظر: في ظلال القرآن ٥: ٣٢٠٧.

تبدأُ سـورةُ الدُّخانِ بعدَ القسـمِ وجوابِه بوصفِ اللَّيلةِ المُبارَكةِ التي أُنزلَ فيهـا القُرآنُ بقوله تعالـى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ [الدخان: ٤]، فتأتي هذه البِدايةُ مُدوّيةً تُوحي بمَضمونِ السُّورة الذي يَغلبُ عليه الحَسمُ في المَواقفِ والمَشاهد، والفَصـلُ في الأقوال والأحـكام. وكلُّ ذلك يُفصِحُ عنه الكتابُ المُبين.

ثم تنتقلُ السـورةُ إلى ذِكر الصِّفـاتِ الإلهيّةِ التي تُعبِّـرُ عن القُدرة المُطلَقةِ، والسُّلطانِ العَظيمِ، والتَّفرُّدِ بالتَّصرُّفِ في نوامِيسِ الكونِ وأمورِ الخَلـق، ومن ذلك قولُـه تعالـى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾ [الدخان: ٨]. ثم تُشـيرُ السُّورةُ إلى حالِ المُشركينَ، وقد أحاطَت بهم مَظاهـرُ القُدرة والأُلوهيّـةِ، على حينَ كانـوا غافِلِينَ عابثِينَ، لا يُدرِكونَ ما يَنتظِرُهُم من سُـوءِ المُنقلَبِ والمَصير، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾ [الدخان: ٩].

وهنا يتحوَّلُ السِّـياقُ إلى التَّهديـدِ والوَعيدِ بعذابِ الدُّنيـا، فيَزدادُ الأسـلوبُ شِـدّةً، ويَرتفِعُ صَخَبُ الإيقاعِ، قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ ﴾ [الدخـان: ١٠ ـ ١١]. ثم تنتقلُ السُّـورةُ إلى تَصويرِ حالِ المُشـركينَ وهـم يتوجَّهُونَ إلى الله مُتوسِّـلينَ إليه أن يكشـفَ عنهـم ما لَحِقَ بهم مـن الجُوعِ والمَشـقّةِ والعَذاب، كما تَوسَّلَ آلُ فرعونَ إلى موسى، في سورة الزُّخرف، أن يرفعَ اللهُ عنهم ما نزلَ بهم من العَذاب، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ ﴾ [الدخان: ١٢].

وفي سـورة الزُّخرُفِ أعلنُوا لموسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ إيمانَهم، وطلبُوا إليه رفعَ العَذابِ، ثـم نقضُوا عهدَهم، وعـادوا إلى التَّمادي في الكُفـرِ والعِناد.

وهاهُم كُفّارُ مكّةَ حينَ أصابَتهُم نَفحةٌ من عـذابِ اللهِ، يتوجَّهونَ إلى اللهِ وحدَه، مُذعنيـنَ لقدرته ومَشـيئتِه، مُعترِفينَ بأُلوهيّتِـه ووَحدانيّتِه، فلما كشـفَ عنهُمُ العَذابَ عادُوا إلـى ما كانُوا عليه من الكفـرِ والعِناد، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ [الدخان: ١٥].

إنّ كلَّ هذه الأخبارِ والحقائقِ التي ساقَها النصُّ القرآنيُّ، ومنها اعترافُ المُشـركينَ بالألوهيّةِ والوَحدانيّة، قد حَفِظَها الكتابُ المُبينُ، لتكونَ حُجّةً راسخةً عليهم، ولأنّ صفحةَ الجَدلِ والخِصام معهم آنَ لها أن تُطوَى، معَ الأدلّةِ والحججِ التي تضمَّنَها القرآنُ الكريم. وهنا يشـتدُّ أسلوبُ الوَعيد، ويَبلغُ الإيقاعُ مداهُ من الصَّخَبِ، معَ التَّهديدِ بالبَطشِ والانتِقام، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ [الدخان: ١٦].

ثم تنتقلُ السُّـورةُ إلى تصويرِ ما حلَّ بآلِ فرعونَ جزاءً على تعاليهِم وإسرافِهم وتكذيبِهم لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: ٢٣ ـ ٢٤]. وفي هذا تهديدٌ لكُفّار مكّةَ بأن يَذوقوا ما حلَّ بأمثالِهم من العذاب.

ثم تُشـيرُ السُّـورةُ بإيجازٍ إلى إنكارِ مُشـركي مكّةَ للبَعثِ والجَزاء، وتستحضِرُ في هذا الشّـأنِ حالَ أمثالِهم من الأُمَمِ السّابقةِ، ثم تَصْفَعُهم جميعًا بحقيقةٍ ثابتةٍ تتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

وتستمرُّ السُّورةُ في الوعيدِ، ويتواصلُ صخبُ الإيقاع، ويَنتقلُ السِّياقُ القرآنيُّ إلى التَّهديدِ بعـذابِ الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ

ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤٠ ـ ٤٢]. ثم تَستوفِي السُّورةُ تَصويرَ ما يُلاقيهِ الكافرُ المُعانِدُ من ألوانِ العَذابِ في جهنَّمَ، إذ تَسوقُه ملائكةُ العذابِ مُهانًا صاغرًا إلى الجَحيم، فيُصَبُّ عليه الحَميم، ويتجرَّعُ الزَّقُّومَ الذي يَغلي في البُطون، قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٩ ـ ٥٠].

وفي المقابلِ تنتقلُ السُّورةُ إلى تصوير ما يَجِدُه المُؤمنونَ من مقامٍ كريم، ونَعيمٍ دائمٍ في رياضِ الجنّةِ، وسُرورٍ عَظيمٍ بالنَّجاةِ من النّار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٧].

ثم تُختَتم السُّورةُ بالتَّوجُّهِ إلى النبيِّ ﷺ، فتدعوهُ إلى أداءِ الرِّسالةِ، واتِّباعِ القُرآن، الذي افتُتِحَت السُّورةُ بذِكرِه، وانتظارِ النَّصرِ على المُشركينَ، الذين ينتظرونَ ويتمنَّونَ له الهَلاكَ والهَزيمة[1]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: ٥٨ ـ ٥٩].

يتَّضحُ ممّا تقدَّمَ أنّ سورةَ الدُّخانِ تضمَّنَت فَصلًا من المُواجَهةِ والتَّهديدِ والوَعيد، تجلّى بمَشاهدِ العَذابِ، والمَصيرِ المُرعبِ، الذي ينتظرُ المُشركينَ في الدُّنيا والآخرة، وكأنها تُوحي بطَيِّ صفحةِ الجَدلِ والإقناعِ والحجّةِ معهم، وتَنحُو إلى لغةِ السَّيفِ والعَذابِ والانتقام. وأسلوبُ السُّورةِ وما تضمَّنَتهُ من الحَقائقِ الرّاسخةِ والأخبارِ الصّادقةِ والوَعيدِ الحاسِمِ يُناسبُه

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٦: ١٥٥.

القَسمُ في افتتاحِها بلفظِ «الكتابِ المُبين»، الذي يدلُّ على ثبوتِ الأحكامِ وصِدقِ الأخبارِ، وأنّها في مأمَنٍ من التَّبديلِ والتَّحريفِ والنِّسيان.

هذا بالنسبة إلى المُناسبةِ الدَّلاليّةِ بين لفظِ القسمِ ومضمونِ السُّورة، أمّا المُناسبةُ اللفظيّةُ فتتمثَّلُ في تكرارِ لفظ الإبانةِ في السُّورة، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: ١٠]، وقولُه تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [الدخان: ١٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان: ١٩]، وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٣].

✿ ✿ ✿

ممّا سبقَ يظهرُ أنّ ثمّةَ مناسبةً دلاليةً واضحةً بين ألفاظِ القسَمِ في افتتاحِ السُّوَرِ وبينَ مَضمونِها، وقد عرضتُ في هذا الفصلِ خمسةَ مواضعَ، أقسمَ الله تعالى فيها بالقرآنِ الكريم، وجاءَ فيها القسمُ بلفظِ القرآنِ في ثلاثةِ مَواضعَ، وبلفظِ الكتابِ المُبين في موضعين. وقد تبيَّن أنّ القسمَ بلفظِ القرآنِ والكتابِ إنّما جاءَ في افتتاحِ السُّوَرِ التي تضمَّنَت قضايا مُهمةً تتَّصلُ بالعَقيدة، كالأُلوهيّةِ وصِدقِ الرِّسالةِ، والبَعثِ والنُّشُور، ومَصيرِ الأُمَمِ السّابقةِ وأخبارِها...

وتتجلّى المُناسبةُ بين اللَّفظِ المُقسَمِ به ومضمونِ السُّوَرِ التي أُشيرَ إليها، في أنّ القَضايا والأخبارَ التي وردَت في تلكَ السُّوَرِ هي أمورٌ خطيرةٌ لا يَفصلُ فيها إلا القرآنُ الكريمُ، باعتباره مَتلُوًّا مَقروءًا في السُّورِ التي افتُتِحَت بلَفظِه، وباعتبارِه مَكتوبًا مَحفوظًا من التَّبديلِ والتَّغييرِ في السُّوَرِ التي افتُتِحَت بلفظِ الكتابِ المُبين.

الفَصلُ الثَّاني

القَسَم بالغَيبِيّات وعوالمِ السَّماء

أقسَم اللهُ تعالى بأصنافٍ متعدّدةٍ من مَخلوقاتِه، التي تدلُّ على كمالِ قدرته وعَظمةِ سُلطانِه، ومن ذلك الملائكةُ والسَّماء والنُّجوم وغيرُها مما سيأتي الحديث عنه، جاء في التَّحرير والتَّنوير: «وقَسَمُ اللهِ بمخلوقاتِه يُومِئُ إلى التَّنويهِ بشأنِ المُقسَمِ به، من حيثُ هو دالٌّ على عظيمِ قُدرة الخالقِ، أو كونُه مُشرَّفًا عند الله تعالى»[1]. وفي هذا الفصلِ سأتحدثُ عن القسَم بالغَيبيّاتِ وعَوالِم السَّماء.

القَسم بالغَيبيّات

عالَمُ الغَيبِ عالَمٌ واسعٌ فيه الكثيرُ من الأسرارِ والعجائبِ والمَخلوقاتِ والنَّواميس المَحجوبةِ عن الحسّ الإنساني، وهذا العالَم لا يُعرَف من أخباره وخفاياه إلا ما شاءَ الله أن يُطلِع عليه الرُّسُلَ والأنبياءَ، وما نزلَ به الوحيُ من الخبرِ الصّادق، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

وتشملُ الغَيبيّاتُ المُقسَمُ بها في افتتاحِ السُّوَر: الملائكةَ والقلمَ والقِيامة، حيث أقسم بالملائكةِ في ثلاثةِ مواضعَ، على حين أقسم بكلٍّ من القَلم والقيامة في موضع واحد.

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٣: ٨٤.

القَسَم بالملائكة

الملائكةُ هم جندُ الله المُخلَصون، الذين أثنى عليهم في القرآن الكريم، وذكرَ منزلتَهم وكرامتَهم عندَه. فالقَسَمُ بهم يُشير في آنٍ واحد إلى تشريفِهم، وإلى مَظهرٍ من مظاهر السلطانِ الإلهي وكمالِ القدرة الرّبانيّة.

وقد ورد القسمُ بالملائكة، في افتتاح السُّوَر، في ثلاثةِ مواضعَ، الأوّلُ في افتتاح سُورة الصّافاتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ١ ـ ٤]، والثاني في مفتتح سورة المُرسَلات في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧]، والثالث في افتتاح سورة النّازعات محذوفَ الجواب في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ١ ـ ٥][١].

والذي يُلاحَظ أنّ القَسَم بالملائكةِ لم يَرِد بصريحِ اللّفظ، وإنّما بذِكرِ بعضِ صفاتِهم وأعمالِهم المَوكولةِ إليهم، كما أنّ السُّوَرَ الثّلاثَ سُمّيَت باللّفظِ الأوّلِ المُقسَم به.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ القسمَ بمُتعدِّد، كما في السُّوَر السابقة، فيه مذهبانِ للعلماء، فبعضُهم يرى أن المقسَم به هو الأول، وما بعده معطوفٌ عليه[٢]، وبعضُهم يرى أنّ جميعَ ما ذُكِر مُقسَمٌ به، أي إن الواو

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٣.

(٢) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ١١٨٣ و١٢٦٢، وتفسير القرطبي ١٥: ٦١.

في كل ما ذُكِر هي واو القَسَم، وحيثُما وردتِ الفاءُ في سياق القسمِ المُتعدِّد فهي نائبةٌ عن واو القَسم، وليست للعطف[1].

والحقيقةُ أنّ المُؤدَّى واحدٌ، فالألفاظُ المذكورةُ، سواءٌ اعتُبِرت معطوفةً أم مقسَمًا بها، فهي من حيثُ المعنى مقسَمٌ بها، والخلافُ لا يعدو كونَه أمرًا شكليًّا، ومنشؤُه التَّقيُّد بمذاهبِ النحاةِ واصطلاحاتِهم.

وفيما يلي عرضٌ للمواضع الثَّلاثةِ، التي وردَ فيها القسمُ بالمَلائكةِ، مع ما يُلابِسُها من مناسباتٍ دَلاليّةٍ ولفظيّة.

أوَّلًا ـ القَسَمُ بالملائكةِ في افتتاحِ سورة الصّافات:

في هذه السورة أقسَمَ اللهُ تعالى بما يدلُّ على الملائكةِ من الصِّفات والأعمال، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ١ ـ ٤].

والصّافات: جمعُ صافّة، والصّافّة: اسم جمعٍ مفردُه صافٌّ. فالصّافاتُ هي جمع الجمع، وهي صفة حُذِفَ موصوفُها فقامَت مقامَه ودلَّت عليه، فهي اسم فاعل للفعل صَفَّ يَصفُّ، عُبِّر به عن اسم الذات لإقامتِه مقامَ مَوصوفه، وكذلك الزّاجرات والتّاليات، فالزّاجرات جمع زاجِرة، والتّاليات جمعُ تالية، وكلاهما اسم جمعٍ مفردُه زاجرٌ وتالٍ[2].

---

(١) يُنظر: الكشاف (حاشية محمود) ٤: ٣٣، واللباب في علوم الكتاب للنعماني (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ١٦: ٢٧٢.

(٢) يُنظر في معنى الصافات ودلالتها الصرفية: تفسير القرطبي ١٥: ٦١ ـ ٦٢، والمفصل في تفسير الجلالين ص١٥٩١.

والصفةُ التي تقوم مقامَ الموصوف إذا كانت مختصّةً به فإنّ إطلاقَها يدلُّ عليه دون غيره، نحو: جاءني متكلِّمٌ للدلالة على الإنسان، فصفة التكلُّم لا تدلّ إلا على الإنسان لاختصاصها به، إذ لا يُشاركه فيها جنسٌ آخرُ على الحقيقة. وأما إن كانت الصفةُ غيرَ مختصّة بموصوف محدَّد فإن إطلاقها يدل على أكثرَ من جِنس، نحو: رأيتُ طويلًا، فصفةُ الطُّول تحتملُ هنا كلَّ الموصوفاتِ التي تتصفُ بها كالإنسان والجبل والعمود وغيرها[1].

والصّافات والزّاجرات والتّاليات ليست من الصفاتِ المختصّةِ بموصوف محدَّدٍ، فالأُولى تعني الجماعاتِ المُصطفّةَ المُترتِّبة، والثانيةُ تعني الجماعاتِ التي تَدفع بقوة، وأصلها من الزَّجر وهو الصوتُ الشديدُ للحَثّ أو المَنع، والثالثةُ تعني الجماعاتِ التي تتلو الكلامَ أي تقرؤه وتُرتِّلُه. ونظرًا إلى عدم اختصاصِها بموصوفٍ محدَّدٍ فقد تعدَّدَت آراءُ المُفسِّرينَ في تأويلِ المُرادِ بها.

فقِيل الصّافات والزّاجرات والتّاليات: هي الملائكةُ لاصطفافِها في الصَّلاة، أو لاصطفافِ أجنحتِها في الفضاء مُنتظِرةً أمرَ الله تعالى، وهي الزّاجراتُ لأنَّها تَزجرُ السَّحابَ أي تَسوقُه، أو تَزجرُ الكافرينَ بإنزال العذابِ بهم، أو تَزجرُ النّاسَ عامةً عن الوقوع في المَعاصي، وهي التالياتُ لأنها تتلو كلامَ الله من الكُتبِ المُنزَلةِ وغيرها[2].

---

(١) يُنظر في إقامة الصفة مقام الموصوف: الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧، ص١٣٨٢.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٣٣.

وقيل في الصّافات هي: جماعات المجاهدينَ أو المُصلّين، أو جماعاتُ الطَّير التي تصفُّ أجنحتَها في الهواء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١]، وقيل في الزّاجرات هي: جماعات العلماء الذين يَزجرونَ العُصاةَ، أو آياتُ القُرآن التي تزجرُ الناسَ عن مُواقَعة الحَرام، وقيل في التّاليات هي: جماعاتُ المُؤمنينَ تَتلو آياتِ القُرآنِ[1].

وبالنَّظر إلى الدَّلالة الصَّرفيّةِ للألفاظ المُقسَمِ بها فهي تحتمل كلَّ المعاني السّابقة، لأنها كما تبيَّنَ سابقًا هي صفاتٌ أُقيمَت مقامَ المَوصوف، مع عدم اختصاصِها بموصوفٍ مُحدَّد، فهي تصلحُ لكلِّ ما يقعُ منه فعلُ الصَّفّ والزَّجر والتِّلاوة، مما يتناسبُ مع السِّياق العامِّ. يُضافُ إلى ذلك أنّ كلَّ المعاني السابقة تُناسِبُ جوابَ القسمِ المذكور في السورة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ٤]، لأنّ ألفاظَ القَسم وفقَ كلِّ المعاني التي ذكرها المُفسِّرونَ تدلُّ على مخلوقاتِ الله في حال ملابستِها للعُبوديّة والطّاعةِ المُطلَقة له تبارَكَ وتَعالى، وهذا يُناسبُ جوابَ القَسم الذي هو إثباتُ تفرُّدِ اللهِ بالألوهيّة. لكنْ ما المناسبةُ بين ألفاظ القسم وفقَ معانيها المتنوِّعةِ وبينَ مضمونِ السُّورة؟

إنّ التأمُّل في مضمونِ السُّورة يُوحي بترجيح أن يكونَ المقصودُ بألفاظ القسمِ الملائكةَ دونَ غيرهم، فألفاظُ القَسم السابقةُ تدلُّ على أهمِّ أعمالِ المَلائكة، وهي عبادةُ الله تعالى، وزَجرُ العُصاة والمُعاندينَ بإنزالِ العذابِ بهم، وزَجرُ الشَّياطينَ عن الاستماع للملأ الأعلى بقذفِهم بالشُّهب، وتلاوةُ كلامِ الله تعالى على الرُّسُل، وتلقينُهم ما أنزلَ اللهُ من الآيات والذِّكر.

---

(١) يُنظر: الدر المصون ٩: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

وفي القَسَم بصفاتِ الملائكةِ السابقةِ بيانٌ لما ينبغي أن تكون عليه حالُ المؤمنينَ أيضًا، من اصطفافٍ يُعبِّرُ عن الخُضوعِ لله عزَّ وجلَّ، وزجرٍ للنفس عن مُواقَعةِ الباطلِ والضَّلال، ثم تلاوةِ كتابِ اللهِ والعملِ بما فيه، ليتحقَّق فيهم كمالُ العبودية والطاعة، كما هو الشّأنُ في الملائكةِ المُقسَم بهم.

واللافتُ للنَّظرِ أنّ ما حوتهُ السُّورةُ من مشاهدِ القيامةِ والجنّةِ والنّار، والأحداثِ التي تضمَّنها القَصص، كلُّه صِيغ بأسلوب فنِّي يُحاكي الحالَ السابقة، إذ يبدأُ بطلب الامتثال والخضوعِ والطاعة لله عزَّ وجل، ثم يُصوِّرُ افتراقَ الناس إلى فريقين: فريقٍ أبى فزُجر، وفريقٍ امتثل فاهتدى وتلا ما أُنزل من الوحي واعتبر، فأثنى الله عليه كما أثنى على الملائكةِ في تشريفِهم بالقَسم في افتتاحِ السُّورة.

ومن أمثلة ذلك ابتداءُ السُّورة، بعدَ الحديثِ عن كمالِ خلقِ السَّماواتِ والأرض، وتفرُّدِ الله بالمُلك، واستحقاقِه للعبوديّةِ والطّاعة، بيانِ واجبِ النّاسِ بأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]، فهذه الآية تُشير إلى ما ذُكِر قبلَها من المَخلوقاتِ العَظيمةِ، كالمَلائكةِ والسَّماءِ والنُّجومِ والشُّهُب، وما تتَّصفُ به من نظامٍ عَجيب، وتَدبيرٍ حَكيم، وتناسُقٍ وجَمال، وإشارتُها إلى الملائكة تُعبِّر عن مناسبتِها الدّلالية لألفاظ القسم.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى الحديث عن افتراقِ النّاسِ في مَوقفِهم من الرّسالة إلى فريقَين، وتبدأ بفريقِ الكُفر والضَّلال الذي زُجِر بعذابِ الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟

إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٤ ـ ٣٦]، ثم تَذكرُ فريقَ الإيمانِ والهُدَى، وما أعدّه اللهُ له من الثّوابِ والنَّعيم في الجنّة، بأسلوبِ الاستثناء، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات: ٣٨ ـ ٤٠]، حيث يُعدِّد في الآيات التّالية ما يَلقاهُ هذا الفريقُ من أصنافِ النَّعيم في الجنّة.

وكذلكَ الشّأنُ في القِصَص، حيث يُذكر فيها إرسالُ الرُّسُل، ثم افتراقُ النّاس، فالزَّجرُ للعُصاةِ المُعاندينَ، والثَّناءُ على عبادِ الله المُخلَصين المُحسنينَ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة نبيِّه إلياسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٢].

فالسُّورةُ معظمُها مشاهدُ وأحداثٌ قَصَصيّة، وبناؤُها الفَنِّيُ يقومُ على عرضِ كلِّ حدثٍ بَدءًا بإرسالِ الرسول، فافتراقِ النّاس، فزَجرِ العُصاة في الدُّنيا، والثَّناءِ على الأنبياء والمؤمنين، هذا في مجال القَصَص، أما مشاهدُ القيامة ففيها تصويرٌ لعذابِ الكفرة في النار، وعرضٌ لموقفهم من الرُّسُل والإيمانِ في الدنيا، وفيها أيضًا تصويرٌ لنَجاةِ المُؤمنينَ وفوزِهم بنَعيمِ الجَنّةِ، وعرضٌ لحالِهم أيضًا من التَّصديق والإيمانِ في الدُّنيا.

وتسلسلُ الأحداثِ وتعاقُبُها في قِصص السُّورة، ومشاهدُ القيامة فيها، يُناسبُه أيضًا عطفُ الصِّفاتِ بالفاء في افتتاحِها، في قولِه تعالى:

﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ١ ـ ٣]. وهذه الفاء، باعتبارِ أنّ الصِّفاتِ كلَّها للملائكة، تدلُّ إما على تَرتيبها في الوجود، أي إنّ الملائكـةَ تَصطفُّ ثم تَزجر ثم تَتلـو، وإما على ترتيب موصوفاتِها في الفَضـل، فيكون الانتقالُ من الأدنـى فضلًا إلى الأعلى فالأعلى، أو مـن الأعلى إلى الأدنى فالأدنى، «فتكـونُ الصافّاتُ ذواتَ فضلٍ، والزاجراتُ أفضلَ، والتّاليـاتُ أبهَرَ فضلًا، أو على العكس، يَعني بالعكس في الموضعينِ أنَّك تَرتقي مـن أفضلَ إلى فاضلٍ إلى مَفضولٍ، أو يُبدَأُ بالأدنى ثم بالفاضل ثم بالأفضل»[1].

ويبدو أنّ الرّاجحَ في هذا الموضع هو التَّوجيهُ الأوّل، الذي يُفضي إلى أنّ الغالـبَ على أحوال الملائكةِ الاصطفـافُ للعبادة وانتظارُ أمرِ الله، فـإن أُمِرَت بالزَّجر تَزجـر، وإن أُمِرت بالتِّلاوة تَتـلُ، والفاءُ تُفيد سرعةَ الملائكةِ في الانتقال من حالٍ إلى حال. وهذا التَّوجيهُ هو الأكثرُ مناسـبةً لمضمون السُّـورة، ولأُسـلوبِها الفنِّيّ في عـرضِ الأحداث القَصَصِيّة، كما توضَّح.

مما تقدَّم يظهرُ أن ثمّةَ مناسـباتٍ دلاليّةً وفنيّةً بينَ مضمون السُّـورة وبين ألفاظ القَسـم في افتتاحِها، وفيما يلي عـرضٌ وتوضيحٌ لما يُمكن ملاحظتُه من أوجهِ المناسباتِ الدَّلاليّةِ واللَّفظية والفنِّية، التي لم تُستَوفَ في التَّمهيد السابق.

١ ـ القسمُ بـ«الصافات» فيه إشارةٌ إلى ما تقوم به الملائكةُ من العبادة والتَّسبيح، وقد جاء في السـورة ما يُفيد ذلك في قوله تعالى على لسان

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٣٣، والدر المصون ٩: ٢٩١.

الملائكة: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦]، فالمُناسبةُ إذنْ بين لفظِ القَسم ومضمون السورة واضحةٌ، وهي ذاتُ طبيعةٍ دلاليّةٍ ولفظيّةٍ في هذا المَوضع.

وممّا يُناسبُ القسمَ بالصّافّاتِ، باعتبارها تدلُّ على العبادة والتَّسبيح، تكرُّرُ الثَّناء على الأنبياءِ والمؤمنينَ في السُّورة، وخاصةً في خِتام القِصص التي تروي افتراقَ النّاس، وزجرَ العُصاةِ بإنزال العذابِ بهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصافات: ٧٢ ـ ٧٤]، وقد تكرَّرَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ خمسَ مراتٍ في السُّورة ذاتِها[1]. وفي هذا التَّكرار ثناءٌ على الأنبياءِ والمؤمنينَ، وتأكيدٌ على علوِّ منزلتِهم، وأنَّهم في مأمنٍ مما ينزلُ بالكافرينَ من سُوءِ العذابِ في الدُّنيا والآخرة.

وهذه المناسباتُ تُقوِّي رأيَ مَن ذهب من المفسِّرين إلى أنّ المرادَ بالصّافّاتِ جماعاتُ الملائكةِ التي تصطفُ للعبادة والتَّسبيح وانتظارِ أمرِ الله، وليس الجماعاتِ المصطفّةَ الأخرى التي ذُكِرت سابقًا.

٢ ـ القسم بـ«الزاجرات» يُناسبُ ما جاء في السُّورة في عدّةِ مواضعَ، كزَجرِ الشَّياطينِ عن الاستماع إلى الملأ الأعلى في قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ [الصافات: ٧ ـ ٨]، وتَسميةِ الصَّيحةِ الثانية، التي يَعقبُها الحشرُ والحسابُ، زجرةً في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٩].

---

(١) تُنظر الآيات ٤٠ و٧٤ و١٢٨ و١٦٠ و١٦٩ من سورة الصافات.

ومن ذلك زجرُ الظّالمينَ بحَشرِهِم إلى جهنّم في قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٤]، وزجرُ الكافرينَ في الدُّنيا بإنزال العذابِ بهم في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ٧٣]، ومن ذلك إغراقُ قوم نوحٍ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ٨٢]، وإهلاكُ قوم لوطٍ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٦]، فهذه المواضعُ في السورة، التي تدلّ على بعض أعمالِ الملائكة، متمثّلةً بزجر الشّياطينِ والكافرينَ في الدنيا والآخرة، تُقوّي أنّ المُرادَ بالزّاجرات في افتتاح السورة الملائكةُ.

٣ ـ القسم بـ«التّاليات ذِكرًا» يُناسِب أيضًا ما جاء في السورة من التّلاوة والذِّكر في نحو قوله تعالى عن حالِ الكافرينَ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات: ٣٥]، وتلاوةُ الذِّكر على الرسل من أعمال الملائكة، أما تلاوتُه على النّاس فمِن وظائفِ الرُّسُل.

والذِّكر في قوله تعالى: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الصافات: ٣]، منهم من أعربه مفعولًا به لاسم الفاعل «التّاليات»، فيكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول المُذَكَّر به للمبالغة، عُبِّر به عن اسم الذاتِ لتوكيد المبالغة، وذلك لدلالته على ما يُدرَك بالحواس كالقرآن الكريم وغيره من الكتبِ السّماوية وألفاظِ التّسبيحِ والتّحميد. ومنهم من أعربه مفعولًا مطلقًا مؤكّدًا لـ«التّاليات»، لتلاقيهما في المعنى، فيكون مصدرًا على بابه. وقد رجّحَ صاحبُ الدُّرّ المَصون هذا الوجهَ ورأى أنه أوفقُ لما قبلَه، أي لإعراب كلٍّ من «صفًا وزجرًا» مفعولًا مطلقًا. فيكون مفعولُ كلٍّ من

الصافّات والزاجـرات والتاليات غيرَ مرادٍ، والمعنـى: الفاعلات للصَّفّ والزَّجر والتِّلاوة دون تحديد[1].

ومما جاء في السورة مناسبًا للقسـم بـ«التاليات ذِكرًا» إرسالُ الرُّسُل في نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الصافات: ٧٢]، والهدايةُ إلى الحـقِّ في نحـو قولـه تعالـى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الصافـات: ٩٩]، إلى غير ذلك من المواضع التي وردَ فيها ذكرُ نزولِ الوحيِ على الأنبياء والرسـل، وهو من أهمِّ أعمالِ الملائكـةِ الذي يتضمَّنُه لفظُ القسمِ بالتّالياتِ ذِكرًا، وهذا يُرجِّحُ أنّ المُرادَ بالتّالياتِ ذِكرًا الملائكةُ.

مما سبق يتَّضحُ أنّ المُرادَ بألفاظ القسـمِ في افتتاحِ سورةِ الصّافاتِ الملائكةُ، حيثُ تضمَّنت ألفاظُ القسم أهمَّ وظائفِهم، والأعمالَ المَوكولةَ إليهـم، وجاءت ألفاظُ القَسـمِ كمـا ظهرَ في العرض السّـابقِ مُناسِـبةً لمضمونِ السُّورة عامةً من النَّواحي الدَّلاليةِ واللَّفظيّةِ والفنِّية.

ثانيًا ـ القسم بالملائكة في افتتاح سورة المرسلات:

والموضعُ الثّاني الذي ورد فيه القسـمُ بالملائكة هو مُفتتَحُ سـورةِ المُرسَلات، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧]. وجوابُ القَسم مذكورٌ كما يتَّضح في الآيات.

والألفاظُ المُقسَـم بها هنـا هي صفـاتٌ أُقيمَت مقـامَ موصوفاتِها المَحذوفة، لكنها ليسـت من الصِّفات المُختصّـةِ بموصوفاتٍ مُحدَّدة، ولهذا احتملَت أكثرَ من تفسير، لصَلاحِها لكلِّ ما يَقعُ عليه الإرسالُ، وما

---

(١) يُنظر في الوجوه الإعرابية المذكورة: الدر المصون ٩: ٢٨٩ ـ ٢٩١.

يقعُ منه العَصفُ والنَّشرُ والفَرقُ والإلقاء، ممّا يتناسبُ مع السِّياقِ العامّ، والدَّلالتَين الحقيقيّةِ والمَجازيّة[1].

وقد ذهب الزّمخشري وفريقٌ من المُفسّرينَ إلى أنّ المُرادَ بألفاظِ القَسم كلِّها: الملائكةُ[2]. ومعنى المُرسَلات عُرفًا: جماعاتُ الملائكة تُرسَل متتابعةً كعُرف الفَرس وهو شعر رقبتِه، وعُرفًا: حال وهو اسم ذاتٍ جازَت فيه الحاليّةُ لما فيه من معنى التَّشبيه، والتقدير: «والمُرسَلاتِ متتابعةً كالعُرفِ، فكان حذفُ «متتابعة» لدلالة التشبيه عليه، ثم حذفُ حرفِ التَّشبيه للمُبالغة»[3].

والعاصِفاتِ عصفًا: جماعات الملائكةِ تُسرعُ في تنفيذ أمرِ اللهِ تعالى كالرِّيح العاصِفة. والنّاشِراتِ نَشرًا: جماعات الملائكة تنشر أجنحتَها عند الهُبوط بالوحي أو الأمر، أو تنشرُ الشرائعَ في الأرض. والفارقاتِ فرقًا: جماعات الملائكة تنزلُ بالفَرق بين الحقِّ والباطل. وعَصفًا ونشرًا وفَرقًا: كلّ منها مفعول مُطلَق مؤكِّد لعامله المذكور معه.

والمُلقِياتِ ذِكرًا: جماعات الملائكة تُلقي الوحي والكُتب على الأنبياء والرُّسل. وذِكرًا: مفعول به لاسم الفاعل المُلقِيات، فيكون مصدرًا بمعنى اسم المفعولِ المُذَكَّرِ به للمبالغة، عُبِّر به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة، وذلك لدلالته على القرآن وغيره من الكتب والآيات الدّالّة على وحدانيةِ الله وكمالِ قُدرته[4].

---

(١) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٣٧٣.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٧٧، وتفسير الرازي ٣٠: ٧٦٤.

(٣) المفصل في تفسير الجلالين ص٢٠٦٣.

(٤) يُنظر في التوجيه الإعرابي والصرفي: تفسير القرطبي ١٩: ١٥٤، والتحرير والتنوير ٢٩: ٤١٩، والمفصل في تفسير الجلالين ص٢٠٦٣.

فدلالةُ ألفاظِ القسمِ السابقةِ على الملائكة تَعني أنها من باب جمعِ الجَمع، كما هو الشأنُ في الصّافات. فالمُرسَلاتُ هي: جمع مُرسَلة، والمُرسَلة: اسم جمع مفرده مُرسَل[1]، وهو اسم مفعول للفعل أُرسِل، عُبِّر به عن اسم الذات لإقامته مقام الموصوف ودلالته عليه. والعاصفاتُ والنّاشراتُ والفارقاتُ والمُلقِياتُ: جمع عاصِفة وناشرة وفارقة ومُلقية، وكلٌّ من هذه اسم جمع مفردها على التَّرتيب: عاصِف وناشِر وفارِق ومُلقٍ، وهي أسماء فاعلينَ للأفعال: عصَف ونَشَر وفرَق وألقى.

وقد ذهب بعضُ المُفسّرينَ إلى أنّ المُرادَ بالمرسَلاتِ والعاصفاتِ والنّاشراتِ والفارقاتِ والمُلقياتِ: الرِّياحُ، لأنها تهبُّ متتابعةً كعُرف الفَرس، وتَعصِفُ بشِدّة، وتنشر السحابَ في السَّماء، ثم تَفرُقُه ليَخرُجَ الوَدقُ من خِلاله، فتُلقي على النّاسِ الذِّكرَ بكونِها سببًا للموعظة والذِّكر[2]. فتكون جمع مُرسَلة وعاصِفة وناشِرة وفارقة ومُلقِية. وليست من باب جمع الجمع.

ومن المفسّرين من ذهب إلى أنّ المُرادَ بالصفات السابقة نوعانِ من الموصوفات العظيمة، فالمُرسَلاتُ والعاصفاتُ هي الرِّياحُ، والنّاشراتُ والفارقاتُ والمُلقِياتُ هي الملائكة. وإلى هذا الرأي مالَ أبو حيان، مستدلًّا بتعاقب الفاء والواو العاطفتَينِ، على ألفاظ القسم المذكورة، فالصِّفاتُ المعطوفةُ بالفاء تعود إلى موصوفٍ واحد، على حين أن العطف بالواو التي تُفيد المغايرةَ يدلُّ على نوعٍ آخرَ من الموصوفاتِ،

(١) يُنظر: الدر المصون ١٠: ٦٢٩.

(٢) يُنظر: نظم الدرر ٢١: ١٦٥.

أي إن «المُرسَـلات فالعاصفات» هي للرِّيح، لأن العطف بينهما بالفاء، أما «والناشـرات» فقد عُطفت على ما قبلها بالواو فآذَنَت بأنها لنوعٍ آخرَ من المَوصوفاتِ وهو الملائكـة، فتكون هي وما بعدها للملائكة، أي إن «والنّاشـرات فالفارقات فالمُلقيـات» هي للملائكـة، لأن العطف بينها بالفاء أيضًا[١].

والذي يُمكن استنتاجُه من أقوال المفسِّرينَ عامةً أنّ المقصودَ بألفاظ القسـم الملائكةُ، لا الرِّيحُ، وإن كان يصلحُ جميعُها أو بعضُها أن يكون أوصافًـا للرِّيح، وذلك لأنّ جوابَ القَسـم هـو التَّهديدُ بوقـوع الوَعيد والقِيامة والعَذابِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [المرسـلات: ٧]، وهذا الجوابُ يُناسـب أن تكـون الألفاظُ السـابقةُ صفـاتٍ للملائكةِ المَوكولِ إليهم تنفيذُ أمرِ الله تعالى وقضائه في الكافرينَ المُكذِّبينَ، لأنه يُوحي بالشِّـدة وهَدم النِّظام الكونيِّ ودمارِه، على حين أنّ حَملَ الألفاظِ على الرِّيح يدلُّ على اتِّسـاقِ النِّظامِ الكونيِّ وانتظامِه وتسـخيرِ الطَّبيعةِ لخِدمةِ الإنسان، ولا سيَّما تأليفُ السَّحابِ وإنزالُ المَطر.

أما مضمونُ السُّورة وسياقُها العامُّ فهي من النّاحية الفنيّة والأسلوبية: «حادّةُ المَلامح، عنيفةُ المَشاهد، شـديدةُ الإيقاع، كأنَّها سياطٌ لاذعةٌ من نار. وهي تَقِفُ القلـبَ وِقفةَ المُحاكمة الرَّهيبة، حيثُ يُواجَه بسـيلٍ من الاستفهاماتِ والاسـتنكاراتِ والتَّهديدات، تنفذُ إليه كالسِّهام المَسنونة! وتَعرضُ السـورةُ من مشـاهد الدنيا والآخرة، وحقائقِ الكون والنَّفس، ومناظِرِ الهَول والعذاب ما تَعرض.

(١) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٣٧٤.

وعقبَ كلِّ مَعرضٍ ومَشهد تَلفحُ القلبَ المُذنبَ لفحةٌ كأنَّها من نار: «وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبينَ»! ويتكرَّرُ هذا التَّعقيبُ عشرَ مرّاتٍ في السُّورة، وهو لازمةُ الإيقاعِ فيها، وهو أنسَبُ تَعقيبٍ لملامحِها الحادة، ومشاهدِها العَنيفة، وإيقاعِها الشَّديد»[1].

فالسورةُ إذنْ تعرضُ بإيقاعٍ سريع، وتصويرٍ رهيب، مشاهدَ القيامةِ وما يُرافقُها من الانقلاباتِ الكونيّةِ الهائلة، كطَمسِ النُّجوم، وانشقاقِ السَّماء، ونَسفِ الجبال، وحشرِ الخَلق، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: ٨ ـ ١٥]. وهذا المشهد يُناسب القسمَ بالمرسَلات والعاصفاتِ والفارقاتِ باعتبارها صفاتٍ للملائكة، وذلك لأنه من أعمالها المَوكولةِ إليها، إذ تُرسَل مسرعةً عاصفةً كالرِّيح لتَنفيذِ أمرِ الله تعالى في قيام السّاعةِ وما يُرافقُها من أحداثٍ عظيمةٍ تَنتهي بالحَشر وشهادةِ الرُّسُل على النّاس، والفصلِ بين الخلائق الذي يُناسبُه القَسَمُ بالفارقات.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى تقرير سُنّةِ الله تعالى في تَدميرِ المُكذِّبينَ من الأُمم السّابقةِ وإهلاكِهم في الدُّنيا، بأسلوبٍ يتَّصفُ بالإيجاز والإجمال والتَّهويل، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٩]. ويتمثَّلُ الإيجازُ في الاكتفاء بثلاث آياتٍ قصيرةٍ، تُعبِّرُ عن كل ما نزلَ بالأمم من عذاب، جزاءً على كُفرهم وعِنادِهم وتكذيبِهم للرُّسُل، وهذا النوع من الإيجاز يُسمَّى عند البلاغيِّينَ بإيجاز القَصر.

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٧٨٩.

إذ يرى علماءُ البلاغةِ أنّ الإيجازَ نَوعانِ: إيجازُ قَصر، وإيجاز حَذف. فإيجــازُ القَصر هو: تقليل الألفاظ وتكثيــرُ المعاني من غير حذف، نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فقد اشــتملتِ الألفاظُ الثّلاثةُ على أمرِ الرِّسالة وشرائعِها وأحكامِها وآدابِها على وجه الاستقصاء. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [النازعات: ٣١]، فدلّ بشيئَينِ على جميــع ما أخرجَه مــن الأرض قوتًــا ومتاعًا للنّاس، من العُشــب والشَّجرِ والحَطبِ واللِّباس والنّار والمِلح والماء، لأنّ النّار من العِيدان، والملحَ من الماء، والشاهدُ على أنّه أرادَ ذلك كلَّه قولُه تعالى تعقيبًا على الآية: ﴿ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات: ٣٣].

وأمّا إيجازُ الحذف فهو: إسقاطُ جزءٍ من الكلام لدلالةِ السِّياق عليه، وقد ذَكر له العلمــاء مواضعَ محــدَّدة وقرائنَ عقليّةً ولغويّــةً تدلُّ عليه، لا يتّســعُ البَحثُ للحديث عنها، ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوســف: ٨٢]، أي أهلَها، وقولــه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ﴾ [يونس: ٧١]، أي وادعُوا شركاءَكم[1].

أمّا الإجمالُ في الآيــاتِ فيَتجلّى في تصويرِ حقيقةٍ ثابتةٍ تصويرًا كليًّا شامِلًا، دون الخوضِ في تفاصيلِها أو ذِكرِ جزئيّاتِها[2]، إذ أشارتِ الآياتُ

---

(١) يُنظر في نوعي الإيجاز وشــواهدهما: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيــق: علي محمد البجــاوي ومحمد أبو الفضــل إبراهيم، المكتبــة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ. ص ١٧٥ ـ ١٨٩، ويُنظر أيضًا: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ)، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢، ص٢١١، والكليات ص ٢٢٠، وكشــاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور علي دحروج، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ١٩٩٦، ١: ٢٩١.

(٢) يُنظر في تعريف الإجمال: التوقيــف على مهمات التعاريف للمنــاوي (ت ١٠٣١هـ)، ط ١، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٠م، ص٣٩.

إلى إهلاكِ الكافرين وأخذِهم بالعَذاب، دونَ التَّفصيل فيمَن نزل بهم العذابُ، أو نوعُه أو مدّتُه أو سببُه.

ومشهدُ إهلاكِ المُكذِّبينَ من الأُمَم السابقة يُناسبُه القسمُ بالمُرسَلات والعاصفات، باعتبارها من صفاتِ الملائكةِ، التي تُرسَل إلى الكُفار فتَعصفُ بهم وتُهلِكُهم.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى الحديث عن خَلقِ الإنسان، وما فيه من دليل باهرٍ على كمال القُدرةِ الإلهية، بأسلوب الاستفهامِ الإنكاريّ، مُعقبًا بالتَّهديد والوعيدِ للمُكذِّبينَ، وكلُّ ذلك بإيجازٍ وإجمال، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤].

وخَلقُ الإنسان من أعمال الملائكة، كما نصَّتِ الأحاديثُ الشَّريفة، إذ جاء في البخاري أن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يا رَبِّ نُطفةٌ، يا رَبِّ عَلَقةٌ، يا رَبِّ مُضغةٌ، فإذا أرادَ أن يَقضِيَ خَلقَهُ قالَ: أذكَرٌ أم أُنثَى؟ شَقِيٌّ أم سَعِيدٌ؟ فما الرِّزقُ والأَجَلُ؟ فيُكتَبُ فِي بَطنِ أُمِّهِ»[1]. وخلقُ الإنسان يُناسبه القسم بالمُرسَلات والنّاشرات، باعتبار أنّ الملائكةَ تُرسَل في هذا الأمر، وتنشرُ أجنحتَها عند الهبوط به.

ثم تَعرِضُ ما هيَّأهُ الله تعالى للإنسان من أرض منبسطةٍ وجبال شامخةٍ وماءٍ مُتدفِّق، ثم تُعقِّب بالوعيدِ والتَّهديد للمكذِّبينَ، بأسلوبِ الإيجاز والإجمال والاستفهام الإنكاري، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ

---

(١) صحيح البخاري ١: ٧٠ تحت الرقم ٣١٨، وصحيح مسلم ٤: ٢٠٣٨ تحت الرقم ٢٦٤٦.

يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٨]. ومشـــهدُ تسخيرِ الأرضِ وما فيها من النِّعم للإنسان يُناســبُه القَسَم بالمرسَلات والنّاشــرات، باعتبار أنّ الكثيرَ من شــؤون الخَلق، وخاصةً إنزال المطر، من الأعمال الموكولة إلى الملائكة.

ثم تنتقلُ السورةُ إلى تصوير المَشهدِ المُرعبِ لجهنَّم، وارتفاعِ لَهبِها، وضخامةِ ما تُلقيه من شرَرٍ، وأمامَ هَولِ هذا المَشهدِ تَعرضُ السورةُ حالَ الكافريــنَ، مَوقوفينَ للفَصل والحِســاب، وهــم لا يســتطيعونَ النُّطقَ والاعتذارَ، ويُختَم المشهدُ بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرســلات: ٣٨ ـ ٤٠]. وهـــذا المشـــهدُ الرَّهيبُ يُناســبُه القَســمُ بالمُرسَــلاتِ والعاصِفاتِ والنّاشراتِ والفارقاتِ، فالمَلائكةُ تَحشرُ النّاسَ، وتسوقُ الكافرينَ إلى جهنَّمَ، وتَتولّى تعذيبَهم فيها، وفي هذا اليوم يَتميَّزُ الحقُّ وأهلُه من الباطلِ ودُعاتِه.

وفي المقابل تُصوِّرُ السورةُ مآلَ المُتَّقينَ، وما يجدونَه من طيبِ الجنّةِ ونَعيمِها، بأســلوب الإيجازِ والإجمالِ أيضًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٤]، والملائكةُ هم خزنةُ الجنّة، وهم الذين يقودونَ المتَّقينَ إليها، ويُهنِّئُونَهم بنعيمها، فناسبَ ذِكرُ مآلِ المتَّقينَ القسمَ في افتتاح السورة بالمُرسلات والنّاشــرات والفارقات. ولعلَّ في عرض مشهدِ الحساب والنارِ والجنّةِ مناســبةً للمُلقياتِ ذِكرًا، باعتبار أن ثمرةَ التَّذكير تظهرُ في الآخرة، حيث يفترقُ النّاسُ ويتوزَّعونَ بينَ الجنّةِ والنّار، كما افترقُوا في الدُّنيا حينَ أُلقيَ الذِّكــرُ عليهم بين مؤمنٍ مُوقِنٍ وكافرٍ مكذِّب.

وتُختتَم السُّــورةُ بالالتفات إلى كُفّار مكّة، وتهديدِهِم بعذاب الدُّنيا والآخــرة، والإنكارِ عليهم أن يَســيروا في طريق الضَّــلال والكُفر، بعد وضوحِ الحــقِّ والهُدى، قال تعالــى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٤٦ ـ ٥٠]. وهذه الخاتمة مناسبةٌ لألفاظ القسم كلِّها، فالملائكةُ أُرسلَت إليهم بالوَحي، وأسرعَت في أمرِ ربِّها، ونشرَت بينهمُ الشَّــريعةَ، وألقَت إليهم الذِّكرَ، الذي فيه تفريقٌ بين الحقِّ والباطل، وكل ذلك بوســاطة النبي ﷺ، فإن آمنــوا واتَّعظوا فازوا ونَجَوا، وإلا فســوفَ تأتيهِمُ الملائكةُ بعذابِ الدنيا، مرسَــلةً بأمرِ ربِّها، مسرعةً في تنفيذه، وما ينتظرهم في الآخرة أشدُّ وأدهى.

ويُمكن أن يُضاف إلى ما سبقَ، من النّاحية الفنيّة، أنّ القرآنَ الكريمَ أقســمَ بخمســة أوصافٍ للملائكة، في مقابل خمسةِ مشــاهدَ تضمَّنَتها السُّــورةُ وهي: مشــهدُ القيامة، وإهــلاكُ المكذِّبينَ في الدُّنيــا، وخَلقُ الإنســانِ وتســخيرُ الطبيعة له، وعذابُ النّارِ ونعيمُ الجنّــة، ثم التَّهديدُ والوعيدُ لكفّارِ مكّةَ الذي يتّصلُ بجوابِ القَسم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرســلات: ٧]. وفي القســم بخمســةِ ألفاظٍ في مقابل خمسةِ مشاهدَ مناسبةٌ فنيّةٌ واضحة.

يُضاف إلى ذلك أنّ دلالةَ ألفاظ القسم على سُرعة الملائكةِ ومَضائِهم في تنفيذ أمــرِ الله تعالى، وفي التنقُّلِ بينَ الأحــوال المذكورةِ في افتتاحِ السُّورةِ، يُناسبُ الجَوَّ العامَّ للسُّورة، إذ يَغلبُ على آياتِها القِصَرُ، والإيقاعُ المُتتابِعُ، كما يغلبُ على مشاهدِها سرعةُ الأحداث وتتابُعُها. وهذه أيضًا مناسبةٌ فنيّةٌ مُهمّةٌ بين ألفاظ القَسم ومضمونِ السُّورة.

مما سبقَ يتَّضحُ أن ثمّةَ مناسباتٍ دلاليّة وفنية واضحة بين ألفاظ القسم في افتتاح سورة المُرسلات ومضمونها. وباعتبار أنّ مشاهد السورة وأحداثَها هي من الأعمال الموكولة إلى الملائكة، فهذا يُرجِّحُ أنّ ألفاظَ القسم في افتتاحها هي صفاتٌ للملائكة، دون غيرهم ممّا ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرينَ، والله أعلم.

ثالثًا ـ القسم بالملائكة في افتتاح سورة النازعات:

والموضعُ الثّالثُ الذي وردَ فيه القَسَم بالملائكة هو افتتاحُ سُورة النّازعاتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النازعات: ١ ـ ٥]. وجوابُ القَسم مَحذوفٌ، وهذا يدلُّ على أنّ مضمونَ السُّورةِ كلَّه مُقسَمٌ عليه كما سيتَّضِح بعدَ قليل.

والألفاظُ المُقسَم بها هنا هي صفاتٌ أُقيمَت مقامَ موصوفاتِها المَحذوفة، لكنها ليست من الصّفات المُختصّةِ بموصوفاتٍ مُحدَّدة، كما هو الشأنُ في الصّافّاتِ والمُرسَلات، ولهذا احتملَت أكثرَ من تفسير، لصَلاحِها لكلِّ ما يَقع منه النّزعُ والنَّشطُ والسَّبحُ والسَّبقُ والتَّدبير، ممّا يتناسَبُ معَ السِّياق العامّ، والدَّلالةِ الحقيقيّةِ والمَجازيّة[1].

وقد ذهب جمهورُ المُفسِّرينَ ومنهم الفرّاءُ والزّمخشري وجلال الدين المحلّي وغيرُهم إلى أنّ المُرادَ بالألفاظ السابقة الملائكةُ[2]. ومعنى

(١) يُنظر: اللباب في علوم الكتاب ٢٠: ١٢١.

(٢) يُنظر: معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح الشلبي، ط١، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دون تاريخ، ٣: ٢٣٠، =

النّازعات: جماعات الملائكة تنزعُ الأرواحَ أي تُخرِجُها وتَجذبُها. وغَرقًا: اسمُ مصدر للفعل أغرَق أي بلغَ أقصى الغايةِ وأشدَّها. والناشِطاتِ نَشطًا: جماعات الملائكةِ تَنشَطُ في طاعة الله وتنفيذ أمره وقضائه. والسّابِحات سَبحًا: جماعات الملائكة المُنطلقة في أجواء السَّماء وآفاقِ الأرض، وهو المعنى المجازي للسَّبح، كما يُقال: جوادٌ سابح أي سريعٌ مُنطلِق.

والسّابقاتِ سَبقًا: جماعاتِ الملائكةِ التي تُسرِع في الوصول إلى الغاياتِ المَوكولةِ إليها. والمُدبِّراتِ أمرًا: جماعاتِ الملائكةِ تُدبِّرُ أمورَ الدُّنيا والخَلق بأمر الله تعالى. والتَّدبير في الأصل هو: جولانُ الفِكر في عواقبِ الأشياء، وإجراءُ الأعمالِ على ما يَليقُ بالعَواقب. وأمرًا: مفعولٌ به لاسم الفاعل المُدبِّرات. أما غَرقًا ونَشطًا وسَبحًا وسَبقًا فكلٌّ منها مفعولٌ مُطلَقٌ مؤكِّدٌ لاسمِ الفاعلِ المُقترِنِ به[1].

فدلالةُ ألفاظِ القَسم السابقةِ على الملائكة تَعني أنها من باب جَمعِ الجَمع، كما هو الشّأنُ في الصّافّات والمُرسَلات. فالنّازعات هي: جمعُ نازعة، والنّازعة: اسم جمع مفرده نازِع، وهو اسم فاعل للفعل نزَع، عُبِّر به عن اسم الذاتِ لإقامتِه مقامَ المَوصوف ودلالتِه عليه. وكذلك الشّأنُ في النّاشطاتِ والسّابحاتِ والسّابقات والمُدبِّرات[2].

وقد عرضَ المُفسِّرونَ دلالاتٍ أخرى لألفاظ القسم السّابقة، فقِيل في النازعات مثلًا هي: النُّفوسُ حينَ تَغرقُ في الصُّدور، وقيل: الموتُ،

= والكشاف ٤: ٦٩٢، وتفسير الجلالين للمحلي (ت ٨٦٤هـ) والسيوطي (ت ٩١١هـ)، ط١، دار الحديث، القاهرة. ص٧٨٩.

(١) يُنظر: الدر المصون ١٠: ٦٦٧، والتحرير والتنوير ٣٠: ٦٠.

(٢) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١٥: ٥١.

وقيل النُّجومُ تَغرقُ من أُفُقٍ إلى أُفُقٍ أي تنتقلُ، وقِيل القِسِيّ تَنزعُ بالسِّهام، وقيل: هي جماعاتُ الغُزاة الرُّماة... وكذلك ذكروا لألفاظ القسم الأخرى عددًا من الدَّلالاتِ لا يتَّسع البحثُ لذِكرها(١).

ولكنَّ التّأمُّلَ في مضمون السُّورة وأحداثِها ومشاهدِها يُقوِّي ما ذهب إليه جمهورُ المُفسِّرينَ أنّ ألفاظ القَسم المذكورةَ تعودُ إلى الملائكة، لأن مضمونَ السُّورة يعرضُ بعضًا من الأعمالِ المَوكولة إليهم، كمشاهد القيامة والحَشر، وإهلاكِ المكذِّبينَ في الدنيا، وتدبيرِ أمورِ السَّماء والأرض، ومآلِ النّاس إلى الجنّة أو النّار. وفيما يلي التفصيل.

تبدأ السُّورةُ بعد القسم بالألفاظ المذكورة، التي تتضمَّن أوصافَ الملائكة، والتي تُثير الهَلَع والرَّهبة، وتُنبِئُ بوقوع أمرٍ عظيم، بعَرضِ أهوال القيامة بإيقاعٍ سريعٍ مُجمَل يُرسِّخ ما ابتدأت به السُّورةُ من المفاجأة والانبهار والذُّعر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات: ٦ ـ ٩].

والرّاجفة: الزَّلزلةُ التي تصحب الصَّيحةَ الأولى، فهي اسم فاعل للفعل رجَف، عُبِّر به عن اسم الذات للمبالغة، والتاء فيه للنَّقل من الوَصفيّة إلى الاسميّة. والرّادفة: الصَّيحة الثانية، فهي اسم فاعل أيضًا للفعل ردَف، عُبِّر به عن اسم الذات للمبالغة، والتاء فيه للنَّقل أيضًا من الوَصفيّة إلى الاسميّة(٢).

وأمام هذا المشهدِ المُخيفِ الذي ترتجف له القلوبُ وتضطرب، وتَشخص له الأبصار وتخشع، تَعرضُ السورة حالَ كفّار مكّة، وهم

---

(١) يُنظر فيها مثلاً: تفسير القرطبي ١٩: ١٩٠، والبحر المحيط ١٠: ٣٩٤.

(٢) يُنظر: المفصل في تفسير الجلالين ص ٢٠٧٤.

يُكذِّبون بالبعث والنُّشور، ويَستبعدون حدوثَه، ويَسخرون من فكرة الإحياء بعد الموت، فيأتي الرَّدُّ عليهم كالصّاعقة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]. والسّاهرة هي أرض المَحشر، وأصلها: الفَلاة التي يَسهر فيها الإنسانُ ولا يستطيع النَّومَ لشِدّة الخَوف. فهي اسم فاعل للفعل سَهِر بمعنى اسم المفعول المَسهور فيها للمبالغة، عُبِّر به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة[1].

وإنّ التأمُّل في السِّياق السابق من الناحية الفنيّة يدلُّ على دِقّة التصوير ومناسبتِه الباهرة للمقام، إذ جعلَ تكذيبَ الكفّار بالبعث والحشر، وسخريّتَهم من الإحياء بعد الموت، يقع بين سياق الرّاجفةِ والرّادفة والقلوبِ الواجفة والأبصار الخاشعة من جهة، وبين سياق الزَّجرة الواحدة التي تُلقي الناسَ بالسّاهرة، فيُخَيَّل إلى مَن يتأمَّلُ حالَهم، التي وصفها القرآنُ بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ١٠ ـ ١٢] أنَّهم بين زَلزلتَينِ مِن أمامهم ومن خلفهم، ويكاد ينزل بهم العذابُ، ويعصفُ بهم أمرُ الله، وهم غافلون لاهون، مع أن المقام لا يحتمل الغفلة ولا يتَّسع للجدل والخصام والتكذيب. وهذا الأسلوب في غاية ما يُمكن أن يبلغه التصوير الفنيُّ من الدِّقّة والسُّموّ.

وبعد التهديد والوعيد لكفار مكة بأحداث القيامة وهولِها، تنتقل السورةُ إلى التهديد بعذاب الدُّنيا، فتَعرض بإيجازٍ وإجمال جانبًا من

---

(١) يُنظر: الدر المصون ١٠: ٦٧٤، والمفصل في تفسير الجلالين ص ٢٠٧٥.

قصة موسى عليه السلام، تختمُها بمَصرع فرعونَ وقومِه، وهو نموذجٌ لسُنّةِ الله تعالى في إهلاك المكذِّبين من الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات: ٢٥ ـ ٢٦].

ثم تنتقل السورة إلى عرض صفحةٍ من كتاب الكون الفَسيح، وما فيه من مظاهر العظمة الإلهيـة، وكمالِ القدرة الربانيّـة، تبدأ بعجائب خَلق السماء وبنائها وما فيها من ضياء وظلمة، وتنتهي بخَلق الأرض وتهيئتِها لحياة البشـر، وإيداعِها ما يحتاجونه من الأقوات والأرزاق، وتتجلّى في هذه الصفحة عجائبُ الصُّنع ودِقّة التَّناسق، بأسلوب الإيجاز والإجمال، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣].

ثم يأتي مشـهدُ الطّامّة الكبرى، وما يَعقبها من الأهوال والمفاجآت المُرعبة، ووقوفِ الإنسـان للحسـاب والجزاء، فإذا بالطُّغـاة المكذِّبين يُسـاقون إلى جهنَّم، ويتهاوَون في لَهيبها، وإذا بالمؤمنين يتسابقون إلى الجنة وينغمسـون في نعيمها، فرحينَ مُطمئنِّيـنَ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٤١].

والطامّـة الكبرى هـي: القيامة، وأصلهـا: الدّاهية التـي تَطِمُّ على الدَّواهي، أي تَعلو وتغلب، والطَّمُّ: الدَّفنُ والعُلُوّ، يُقال: طَمَّ السـيلُ على الرَّكِيّة إذا دَفَنَها[1]. فهي اسـم فاعل عُبِّر به عن اسـم الـذات للمبالغة.

---

(١) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٣٩٤.

والتَّهديد بالطامة الكبرى جاء بعد أن عرضتِ السورةُ كمالَ القدرة الإلهية في خلق السماء والأرض، وما هيَّأه الله تعالى للبشر في الأرض من النِّعم، ومع ذلك يُجادلون في وحدانيته، ويُخاصمون في قدرته.

وأخيرًا يرتدُّ السياق إلى المكذِّبين بالساعة فيتوعَّدهم بمزيد من الهول والرعب والمفاجأة، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

مما تقدَّم يظهر أن السورة تضمنت عرضًا لمشاهدِ القيامة وأهوالها، وسنّةِ الله في إهلاك المكذبين، وعجائبِ خَلق السماوات والأرض، ومشاهدِ الجنّة والنّار، وتهديدِ كفّار مكّةَ بعذاب الدُّنيا والآخرة. وهذه المشاهدُ والأحداث المُتلاحقة، وإيقاعُها السَّريع المتواتر، يُناسبُها من الناحية الدَّلاليّة القَسَمُ بأوصاف الملائكة المذكورة، لأنها من الأعمال الموكولة إليهم.

أما من الناحية الفنيّة فالمناسبة بين ألفاظ القسم ومضمون السورة تتجلى في أنّ القرآنَ الكريم أقسمَ بخمسة أوصاف للملائكة، في مقابل خمسةِ مشاهدَ تضمَّنَتها السورةُ، كما هو الشأن في سورة المرسلات، وفي ذلك مناسبة فنية واضحة، يُضاف إلى ذلك أن القيامة ذُكِرت في السورة خمسَ مراتٍ أيضًا، بألفاظ مختلفة، فجاءت بلفظ: الرّاجفة والرّادفة والزَّجرة والطّامّة والسّاعة. وهذه الألفاظُ الخمسة للقيامة تُحاكي اختلافَ صفاتِ الملائكة الخَمس، المُقسَم بها. وهذه مناسبة فنية أخرى.

ومن المناسبات الفنية أيضًا أن ألفاظ القسم، كما في سورة المُرسلات، تدلُّ على سرعة الملائكة في تنفيذ أمر الله تعالى، وعلى

سـرعتهم أيضًا في الانتقال بينَ أحوالِهم المذكورة في افتتاح السـورة، وهذا يُناسب الجوَّ العامَّ للسـورة، إذ يغلب على آياتها القِصَر، والإيقاعُ المتتابع، كما يغلب على مشاهدها سرعةُ الأحداث وتتابعُها.

مما سـبق يتَّضح أن ثمّةَ مناسـباتٍ دلاليّةً وفنيّة واضحةً بين ألفاظ القسم في افتتاح سورة النازعات ومضمونها. وباعتبار أنّ مشاهدَ السورة وأحداثَها هي من الأعمال الموكولة إلى الملائكة، فهذا يُرجِّح أن ألفاظ القسـم في افتتاحها هي صفات للملائكة، دون غيرهـم مما ذهب إليه بعضُ المفسرين، والله أعلم.

القسَم بالقَلم ويومِ القيامة

من الغَيبيّات التي أقسـمَ بها الله تعالى، في افتتاح السُّـوَر، القلمُ ويومُ القيامة. أما يوم القيامة فمن الثّابت أنـه من الغَيبيّات المَحجوبة عن الحسّ الإنسـاني، وأما القلم فقد ذهب بعضُ العلماء، كما سيظهر بعد قليل، إلى أنه خاصٌ بما تخطُّ به الملائكـةُ في اللَّوح المحفوظ، وما تخطُّ به الحفظةُ أعمالَ الإنسـان في الدنيا، فهو إذن من الغيبيّات وفق هذا المذهب. على حين رأى بعضهم أنه عامٌّ يَشمل كلَّ ما تَكتب به الملائكةُ والبشـرُ على حدٍّ سواء، وتعظيمُه بالقسـم به لما فيه من المنافع والمصالـح والهُدى والخَيـر[1]، فهو إذن مـن الغيبيّات ومن عوالِمِ الأرض المَحسوسـة. ولدلالتـه على الغيبيّات وفـقَ المذهبَينِ عرضتُه في هذا الموضع من الفصل.

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٥٨٤.

أولًا ـ القسم بالقَلَم والكتابة في سورة (ن):

من الغَيبيّات التي أقسم بها في افتتاح السُّوَر القلمُ والكتابةُ في قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]، والقلمُ: وردَ في تفسيره آراءٌ كثيرةٌ أظهرُها أنه واقعٌ على كل قلمٍ يَكتبُ به مَن في السماء ومَن في الأرض، وأقسم به لما فيه من البيانِ والعلم والمنافع[١]. و«ما» قيل هي مصدرية على تقدير: وسَطْرِهم في الصُّحُف أي كتابتِهم، وقيل موصولة على تقدير: والذي يَسطرونَه أي يكتبونَه، والواو في «يَسطرون» جاء فيها آراءٌ كثيرة، أقواها أنها ضميرٌ يعود على الحَفَظة من الملائكة الذين يُحصون أعمالَ الإنسان ويَكتبونَها[٢]، ويؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠].

وجوابُ القسم هو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٢ ـ ٤]. وهذا الجوابُ يتضمَّن نفيَ صِفة الجنون التي تَقوَّلَها المشركون على النبي ﷺ، كما يتضمَّن إثباتَ الثَّواب الجزيل له، ومَدحَه باتِّصافه بالخُلق العظيم، «والخُلُق ملكةٌ نَفسانيّة يَسهل على المتَّصِف بها الإتيانُ بالأفعال الجميلة»[٣].

والمُناسبةُ بين المُقسَم به والمُقسَم عليه تتمثَّل في أنّ مقولةَ المُشركينَ، التي ذُكِرَت منفيّةً في الجواب، قد أثبتَها الحَفَظةُ وسَطَروها، وسوف يُجازيهم الله عليها، وفي ذلك تهديد عظيم لهم، وغايةٌ في الوعيد

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٨: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) يُنظر: فتح القدير للشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، ط١، دمشق وبيروت ١٤١٤هـ، ٥: ٣١٩، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٤: ٢٥٥.

(٣) تفسير الرازي ٣٠: ٦٠١.

والاستنكار لمَقولتِهم، ومواساةٌ للنبيّ ﷺ على ما كان يَلقاه مِن كيدِهم وإيذائهم. يُضافُ إلى ذلك أنّ ما امتدحَ الله تعالى به نبيَّه مِن الخُلُق وما وعدَه به مِن الثَّواب مَخطوطٌ مسطور أيضًا، وشتّانَ بين ما خُطَّ في صحيفته وما وُعِد به من الثواب، وبين ما سُطر في صحائف المشركين وما ينتظرهم من العقاب.

يُضاف إلى ذلك أن القسم بالقلم وما يَسطره الملائكةُ من مُحكَم الأمور، وعجائب التَّدبير، فيه إشارةٌ إلى أنّ النبيّ ﷺ يَنهلُ من حكمة الله تعالى، وعلمه المُطلَق، وتَدبيره المُحكَم، وليس كما يدَّعي المشركون فيما ينسبونه إليه من الجنون والسحر وغير ذلك.

أما مناسبةُ القسم لمضمون السورة فتتجلَّى في أنّ معظَم آياتِها تتحدَّث عما يقوم به المشركونَ من أعمال، وما يصدر عنهم من أقوال، تُؤذي النبيَّ وأصحابَه، والقسمُ بالقلم وما يكتبه الحفظةُ يدلُّ على أن كيدَهم ومكرهم محفوظٌ مسطور، وسوف يُحاسَبون عليه ويُعذَّبون به في الدُّنيا والآخرة.

ومن المناسبات الجديرة بالذكر أن السورة تضمَّنت مشهدَينِ وَصفيَّين، أحدهما يتناول نموذجًا من نماذج المشركين الذين يُحاربون الدَّعوةَ، والثاني يُصوِّر تفاصيلَ قصّة أصحاب الجنّةِ التي أحرقَها اللهُ وحرمهم منها جزاءً لهم على بُخلِهم وحرمانِهم المساكينَ من ثمرها. وقد عُرض هذان المشهدانِ بأسلوب يتّصف بالتَّفصيل والإلمام بالجزئيّات الصَّغيرة، مع أنّ السورةَ تُعدّ من قصار السُّور، وهذا التَّفصيل يُناسب القسم بالقلم والكتابة، لأنّ الكتابةَ تحفظُ ما لا يحفظه الذِّهنُ من التَّفاصيل الدَّقيقة والجزئيّات الصَّغيرة.

تبدأ السـورةُ بعد القسـم وجوابـه وما يرتبـط بهمـا بالتَّوجُّه إلى النبيِّ ﷺ، وبيانِ أنّ الله يَعلم الضّالِّين ويَعلم المُهتدين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾ [القلم: ٧]. والعلم في هذا السـياق إنما ذُكر للوعيد والوعد، لأنه يُفيد الجزاء المترتِّبَ عليه[1]. وعِلمُ الله بأفعال الإنسـان ومجازاتُه عليها يُناسبان القسمَ بالقلم والكتابة لما فيهما من معنى الإحصاء والضَّبط.

ثم تنتقل السورة إلى إرشاد النبيِّ ﷺ لِنَبذِ المكذِّبين وعدم مصانعتِهم، وتصوير نموذجٍ من نماذجهم، والتَّفصيل في صفاتـه، وبما توعَّده الله به من سوء المصير، ومما ورد في سـياق هذا المشهد قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾ [القلم: ١٥ ـ ١٦].

ثم تُتبعُ السُّورةُ هذا المَشهدَ بمشهدٍ آخرَ تُصوِّر فيه ما حصل في قصّة أصحاب الجنّة من أحداث، بدأتْ بعَرض اتّفاقِهم على حرمان المساكين من ثَمرها، وانتهت بإحراقها وحرمانهم منها، قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٣٣ ﴾ [القلـم: ٣٠ ـ ٣٣]. والتفاصيلُ الدَّقيقة في هذا المشهد والمشهدِ السابق تُناسبُ القسمَ بالقلم والكتابة، كما توضَّح سابقًا.

ثم تُشـيرُ السُّـورةُ في آية واحدةٍ إلى منزلة المتَّقيـنَ وما ينالونه في الجنّة من النَّعيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ ﴾ [القلم: ٣٤]، والاكتفاءُ بآية واحـدة مردُّه إلى أنّ السـورةَ مخصَّصـةٌ لعرض صفاتِ

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٥٨٦.

المكذبين، وفسادِ اعتقادِهم، وسوءِ أعمالهم، وهولِ مصيرهم، مما تُحصيه عليهم الملائكةُ بالكتابة، وما تقرَّر في حقِّهم من الوعيد الصادق المحتوم. ولهذا يعود السّياقُ بأسلوب الالتفات إلى مخاطبة المكذِّبينَ وتَبكيتهم، والإنكارِ عليهم ما يُظهرونه من فساد الحجج والاعتقاد والأحكام، مع تهديدهم بسوء المُنقلَب والمَصير، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣].

وأخيرًا تتوجَّه السُّورةُ إلى مُخاطَبة النبيِّ ﷺ، فتتوعَّد المُكذِّبين باستدراجهم وأخذِهم بالعذاب، وتأمرُ النبيَّ بالصَّبر، وألّا يَضجر كما فعل يونسُ عليه السلام، ثم تُختتَم السُّورةُ بتَنبيه النبيِّ إلى ما يُكنِّه المشركونَ له من الحقد والحسد والكُره، مع تأكيد عظمةِ القرآنِ الكريم وما فيه من الذِّكر والمَواعظِ للنّاس جميعًا، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢]. وهذه الخاتمةُ تُناسب تمامًا ما جاء في افتتاح السُّورة، مِن نَفيِ ما يتقوَّله المشركونَ في حقِّ النبيّ ﷺ، وما يَنسبونه إليه من الجنون والسِّحر وغيرِ ذلك.

فالسُّورةُ إذنْ تضمَّنَت كلَّ ما يَبدرُ من المشركين من أقوال وأفعال ومواقف، وأوردَت مشهدَين يتناولانِ صفاتِ المكذِّبينَ وسوءَ أعمالهم وفسادَ اعتقادهم، وهذا المضمون يتناسب مع القسم بالقلم والكتابة، باعتبارهما يُفيدانِ الإحصاء والجزاء.

يتّضح ممّا تقدَّم أنّ القسمَ بالقلم وما يخطُّه الحَفَظةُ من أعمال البَشر، كان مُناسِبًا تمامًا للمُقسَم عليه، ولمضمون السُّورة عامّةً.

ثانيًا ـ القسَم بيومِ القيامة:

ومِن المواضع التي وردَ فيها القسمُ بالغَيبيّاتِ، في افتتاح السُّوَر، القسمُ بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ ـ ٢]، وقد اختلف المُفسِّرون في «لا» فقال بعضُهم: هي زائدةٌ للتَّزيِين، وقيل: زائدةٌ للتَّوكيد، وقيل: نافيةٌ لكلام سابق، كأنّ المشركين قالوا: لا نُبعَث، فقيل: لا، ثم استأنفَ القَسمَ. وقيل: إنّها نافيةٌ ويُستفادُ من نَفيها أنّ اللهَ تعالى لا يُقسِمُ بشيءٍ إلا إعظامًا له، فكأنَّه بإدخال حرف النَّفيِ يقول: إنّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظامٍ، يَعني أنّه يَستأهل فوقَ ذلك من التَّعظيم[(١)].

واختلافُهم في «لا» لم يُؤثِّر في إجماعِهم على أنّ صيغةَ «لا أُقسم» هي صيغةُ قَسم، مُستدلِّين بتَصريح القرآنِ الكريمِ أنّها قسمٌ، وباقترانها بجوابٍ في أكثرَ من موضع، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧][(٢)].

فالسُّورةُ إذنْ افتُتحت بالقسم بيوم القيامة، وهو اليوم الذي يقوم فيه النّاسُ من قبورهم للحِساب والجزاء، وبالقَسَم بالنَّفسِ اللَّوّامة، وهي نفسُ المُؤمنِ التي تَلوم صاحبَها على التَّقصير، وتحثُّه على العمل الصالح، وهي صفةُ مَدحٍ لذلك ساغ القسمُ بها. وجوابُ القسم محذوفٌ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامة: ٣]، وتقديره: لتُبعَثُنَّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٥٨، وتفسير القرطبي ١٩: ٩١، والدر المصون ١٠: ٥٦١.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٥٩، والتحرير والتنوير ٢٩: ٣٣٨.

(٣) يُنظر: اللباب في علوم الكتاب ١٩: ٥٤٥.

فالقسمُ هنا من النّوع المُتعدِّد، لأنّه أقسمَ بشيئَينِ هما القيامةُ والنَّفسُ اللوّامة، والمناسبةُ بينهما أنّ النُّفوسَ إنّما تُجزى على أعمالها وكَسبها في يوم القيامة، وفيه تَظهر سعادةُ تلك النُّفوس وشقاوتُها[1]. وصرَّح بالنَّفس اللوّامة دون غيرها من النُّفوس، لأنها صفةُ مدحٍ يَسوغ القسمُ بها. أمّا مناسبةُ القسمِ للمُقسَم عليه، وهو البَعثُ، فهي واضحةٌ جَليّة، لأنّ البعثَ يكون للنفوس وفي يوم القيامة.

وأما مناسبةُ ألفاظ القسمِ لمضمون السُّورةِ فتتمثَّل في أنّ السُّورةَ «اشتملَت على إثبات البَعثِ، والتَّذكيرِ بيوم القيامة وذِكرِ أشراطِه، وإثباتِ الجزاءِ على الأعمال التي عملها النّاسُ في الدُّنيا، واختلافِ أحوال أهل السعادةِ وأهل الشَّقاء، وتكريمِ أهل السَّعادة، والتَّذكيرِ بالموت وأنّه أوّلُ مراحلِ الآخرة، والزَّجرِ عن إيثار منافعِ الحياة العاجلة على ما أُعِدَّ لأهل الخيرِ من نعيم الآخرة... فالقَسمُ بيوم القيامة هو براعةُ استهلالٍ لأنّ غرضَ السُّورة وصفُ يوم القيامة»[2].

والسُّورةُ تبدأُ بعد القسم بالإنكار على الكفار تكذيبَهم بالبعث بعد الموت، وشكَّهم في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ [القيامة: ٣ ـ ٦]. وهذا السِّياقُ يُناسب القسم بالقيامة، ويدلّ على أنّ الكافرَ يُنكر ما هو مُعظَّم عند الله، ولو لم تكن القيامةُ كذلك لما أقسم بها في افتتاح السُّورة.

---

(١) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٣٤٣، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٤: ٤٣٥.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٩: ٣٣٧.

ثم تنتقلُ السُّـورةُ إلى تصويـر أحداث السّـاعة، ومـا يُرافِقُها من المُفاجآتِ والأهوال، ومن ذلـك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ [القيامـة: ٧ ـ ١]، وهـذه الأهوالُ المُرعبـة، والتَّبـدُّلاتُ العظيمة، تَحدث في ذلـك اليوم، وفي عرضها تهديدٌ للمكذِّبين بها. ومناسبتُها للقسَم واضحة.

ثم يلتفتُ السِّياقُ إلى النبي ﷺ، يُطمئنُه بأن الله تعالى تعهَّد بجمع القرآن وحِفظه، فقـال تعالـى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامـة: ١٦ ـ ١٧]. وهذا السـياقُ مناسـبٌ للقسم بيوم القيامة، وللحديث عن أهوالهـا ومُفاجآتِها، ويُعبِّر عـن رحمةِ النَّبي بأُمّته، وشِدّةِ حِرصه على نَجاتها، فهو يَعلم أنّ مِفتاحَ النَّجاة بين يديه وهو القرآنُ الكريم، فظهر في هذا السـياق حرصُه على حفظ القرآن، وإيصالِ نَفعِه إلى النّاس، وكأنّ إدراكَه لشِـدّة الهَـول جعلَه يُبالغ في التَّكرار والحِفظ، حرصًا منه علـى نجاة أُمّتِه من الكَربِ العظيم الذي ينتظرُ النّاسَ جميعًا.

ثم يعود السِّـياقُ إلى تذكير النّاسِ بالآخرة، وتَوبيخهم على نِسيانها، وانشـغالِهم عنها بالدُّنيا، ويَعـرض ما يَؤول إليه حـالُ كلٍّ من المؤمنين والكافرين فيها، قال تعالـى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢٥]. فالمؤمنونَ مُستبشِـرون مَسـرورون، متلذِّذون بالنظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ، على حينِ يَذهلُ الكافرونَ من هول ما يُصيبُهم من الشِّدّة والعذاب.

وتتوقف السـورةُ بعد ذلك عند تصوير الموت، وحالِ الإنسـان وهو يَجود بروحه، ويطأُ أوّلَ منازل الآخرة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ

مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠]. ومشـــهد الموت في هذه الســـورة عُرِض بأسلوبٍ يُعبِّر عن أقصى ما يُعانيه الإنسانُ من الضِّيق والشِّـدّة والضَّعف والاستسلام، وفي وقعِ حرف القاف الذي يَخرج من أقصى اللِّسان مما يلي الحَلق[1] محاكاةٌ للحَشرجة وبلوغِ الرُّوح هذا المَوضع، الذي يَسبق فراقَها للجسد بلحظات.

ولا تقتصرُ دلالةُ القــاف على الشِّـدّة والنَّزع باعتبــار مَخرجِها فحســب، بل باعتبــار صفاتِها أيضًــا، إذ تتَّصــفُ بالجَهر والشِّـدّة والاستعلاء والانفتاح والقَلقلة. وكلُّ هذه الصِّفاتِ تُحاكي الحالَ التي يَؤول إليها الإنســانُ من الكــرب والضِّيقِ والحَشــرجة، وهو يَجود بروحه على عتبــاتِ الآخرة. يُضافُ إلى ذلــك أنّ مَجيء الألف قبل القاف، في فواصل المَشــهد، يُعبِّر عــن رخاوةٍ وامتدادٍ تَعقبه شِـدّةٌ وقَلقلــة، كما أنّ النُّطــقَ بالحرفين يَســتلزمُ انفتاحَ أعلــى الحلقِ ثم انغلاقَه، وهي صورةُ الحَشرجةِ تمامًا وما يُرافقها، فطُوبى لمَن كان الله معه في تلك اللَّحَظات.

والمناســبةُ الصَّوتيّةُ هنا هــي من المناســبات الفنِّيّة، بيــن الإيقاعِ والمضمون. والمَشهدُ مناسبٌ لألفاظ القسم، باعتبار أنّ الموتَ هو إقبالٌ على القيامة والحساب، وأنّ النفوسَ هي التي تَذوقُه وتَتجرَّعُه.

ثم تنتقــلُ السُّــورةُ أخيرًا إلــى الوَعيــد والتَّهديد لأولئــك الكفرةِ المُكذِّبين بالبعث والنُّشــور والقيامة، فتَذكر أنّ الإنســانَ لم يُخلَق عبثًا، ولن يُترَك سُدًى، وأنّ له حياةً بعد الموت، وأنّ الذي خلقَه أوّلَ مرّةٍ قادرٌ

---

(١) يُنظر: النشر في القراءات العشر ١: ١٩٩.

على إحيائه وبَعثه، ثم تُختتَم السُّــورةُ بقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠].

يتَّضح من العرض السابق أنّ القسمَ بيوم القيامة والنَّفسِ اللوّامة، في افتتاح السُّورة، جاء مناسـبًا من الناحية الدلاليّة لمَضمونِها، الذي يدورُ حول مشاهدِها وأهوالها ومقدِّماتِها وما يتعلَّق بها من أحداث ومُفاجآتٍ.

القسَم بعوالِم السَّماء

إنّ عالَمَ السَّماء وما يحتويه من الكواكب والنجوم، والشمس والقمر، وما يتَّصف به من دِقّة النِّظام، واتِّســاقِ الخَلق، لَيدلُّ دلالةً واضحة على عظمة الخالق، وتفرُّدِه بالملــك، وكمال قدرته. وهذا العالَم السَّــماويُّ يُشــاهده الإنســانُ في كل لحظة يرفع فيها بصرَه إلى الأعلى ويُقلِّبُه في أرجاء السماء واتِّساعِ الآفاق.

وقد ورد القســمُ بالسَّــماء وعوالمِها، في افتتاح أربع سُوَر، أعرضُها فيما يلي بحسب ترتيبها في المصحف الشريف.

أولًا ـ القسمُ بالنَّجم:

أقسم اللهُ تعالى في القرآن الكريم في مواضعَ عدّةٍ بذاته، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٣]، أو بمخلوقاته العظيمة التي تدلُّ على تفرُّده بالخَلق، وكمال قدرته، كالملائكة والسماء والشــمس والليل وغيرها[١]. ومن المخلوقات التي أقسم بها في

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٢.

افتتاح السور النُّجمُ، الذي يدلُّ على عظمة خالقه ومُسيِّره، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ ـ ٢].

ولفظُ النَّجـم يُطلَق في الأصل على كل واحد من كواكب السـماء، وهـو بالثُّريّا أخصُّ[١]. وتسـميةُ الكوكـب نجمًا هو من باب التَّسـمية بالمصدر، فتكون الدَّلالة الصَّرفيّةُ للنَّجم أنه مصدر نَجَمَ يَنجُمُ، أي طلَع وظهَر، بمعنى اسـم الفاعل الناجِم أي الطّالِع للمبالغة، عُبِّر به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة، وذلك لدلالته على مسمًّى يُدرَك بالحواس.

فتسميةُ الكوكب نجمًا مُرتبطةٌ بحدث الظُّهور والطُّلوع، ولهذا سُمِّي النَّباتُ نجمًا لظهوره وطلوعه من التُّراب. ومعنى «هَوى» أي نزلَ وسقطَ، من الهُوِيّ وهو النُّزول والسُّـقوط[٢]. وإذا: ظرفيّة للحـال متعلّقةٌ بحال محذوفة من النَّجم، والتقدير: والنَّجمِ مُقَدَّرًا هُوُيُّه، أي في حال كونه في زمان هُوِيِّه[٣].

وللمُفسِّـرينَ في تحديد المُرادِ بالنَّجم آراءٌ كثيـرةٌ متقاربة، منها أنه الثُّريّا إذا جنحَت للغروب، ومنهـا أنّه الزُّهرة، ومنها أن المُرادَ به الجِنسُ مُطلقًا، أي النُّجوم بصورة عامّة، وقيل: المُراد ما تُرمى به الشَّياطينُ التي تَسترق السَّمعَ، وقيل: هو القرآنُ الكريم لنزوله منجَّمًا، وقيل: هو النَّباتُ لظهوره وطلوعه[٤].

---

(١) لسان العرب ١٢: ٥٧٠ مادة (نجم).

(٢) يُنظر: تفسير القرطبي ١٧: ٨٣.

(٣) يُنظر: روح المعاني في تفسـير القرآن العظيم والسـبع المثاني لشـهاب الدين الآلوسـي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيـق: علـي عبد البـاري عطية، دار الكتـب العلمية، بيـروت، ١٤: ٤٦، والمفصل في تفسير الجلالين ص١٨٦١.

(٤) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٢٤٣، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٣: ٢٤٣.

أما جواب القسم فمذكور وهو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٢ ـ ٥]، فالمُقسَم عليه هو صِدق النُّبوّة والوحي، إذ يَنفي عن النبي ﷺ الضلالَ والغوايةَ والصدورَ عن رغبات النفس وشهواتها، «والضَّلالُ ألّا يجدَ السّالِكُ إلى مَقصَدِه طريقًا، والغوايةُ ألّا يكونَ له طريقٌ إلى المَقصَد مُستقيمٌ... والضّالُّ كالكافر، والغاوي كالفاسق... وما ينطق عن الهوى: دليل على أنه ما ضلَّ وما غوى... وإنما يَضلُّ مَن يتَّبعُ الهوى»[1]. كما يُثبِت صِدق ما جاء به النبيُّ ﷺ، بأنه وَحيٌ يتلقاه عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ من ملَكٍ عظيم.

وتتجلى المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه أي جواب القسم فيما يلي:

١ ـ المُراد بالنجم هو ما تُرمَى به الشَّياطينُ عند استراق السَّمعِ، وهو ما رجَّحَه ابن القَيِّم، لدلالته على أن الوحيَ محروسٌ محفوظٌ ولا سبيلَ للشياطينِ في استراقه، أو التأثير فيه، وهذا يُناسِب المُقسَم عليه وهو صِدق ما يَتلقّاه النبيُّ ﷺ من الوحي[2].

٢ ـ الحركة الخاطفةُ لهُوِيّ النَّجم تكون في غاية الظُّهور ولَفتِ الانتباه، ولكنها حركةٌ مُفاجئة وطارئة على النجوم، ولا تُعدُّ أصلًا في دورانها ومَسيرها، والتَّعبيرُ بها يُناسب نفيَ الضَّلالِ والغَوايةِ وهوى النفس عن النبيِّ ﷺ، لأنّ نفيَ الشيء يتعلَّقُ بأدنى حالاته وأدقّ أجزائه، فصدق النبيِّ والوحي ثابتٌ وتَشهد به المُعجزاتُ وآياتُ القرآن الكريم،

(١) تفسير الرازي ٢٨: ٢٣٤.

(٢) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص ٣٤٤.

وإنما النفي يتوجه إلى أدنى ما يُمكن أن يُنسَب إليه من الزَّلَل أو الكذب أو الانحـراف، ونحوِ ذلـك من الحـالات الطارئة، التي تُشـبه وميضَ الشِّهاب الهاوي قياسًا بالنَّجم المستقرّ المُضيء.

ومناسبةُ القسـم لمضمون السُّورة تتوزَّعُ في مناسـبتَينِ، الأولى دلاليّةٌ والثّانيةُ فنيّةٌ أسلوبيّة. أما المناسـبةُ الدَّلاليّةُ فتتجلّى في أنّ لفظَ القسم يدل على وميضٍ مَرئيٍّ، وغالبُ المشاهد التي تَضمَّنَتها السُّورةُ هي مشاهدُ مرئيّةٌ بالعين، أو ممّـا هو في حُكم المَرئيِّ بالعين، إذ تبدأ السـورةُ بعد القسـم وجوابه بتأكيد رؤية النبيِّ ﷺ لجبريلَ عليه السلام، في صورته الملكية مرّتَينِ، مَرةً في الأفق، ومرةً في السماء السـابعة عند سِدرة المُنتهى[1]، قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجـم: ٦ ـ ٩]، أما عن رؤيته عند سـدرة المُنتهى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥].

وسِـدرةُ المُنتهى: شـجرةٌ في أقصى الجنّة، وقيل عن يَمين العَرش. والمُنتهى: اسـم مكان للفعل انتهى، لأنها موضع انتهـاء قُدراتِ الخَلق كلِّهم، وأقصى ما أُتيح لهـم معرفتُه والوُصولُ إليه[2]. ثم تذكرُ السُّـورةُ الآياتِ العظيمةَ التي رآهـا النبيُّ ﷺ في رحلة الإسـراء والمعراج، قال تعالـى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجـم: ١٨]، أي مـن الآيـاتِ العجيبـة الدالّة على كمال قدرته تعالى في عالَـم المَلَكوت. ورؤيةُ هذه الآياتِ إضافـةً إلى رؤية جبريلَ عليه السلام في صورتـه الملكية وكمال خَلقه، هي رؤيةٌ حقيقية، ومن هنا تتَّضحُ المناسـبةُ بين القسم بالنجم إذا هوى،

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٤١٩.

(٢) يُنظر: تفسير القرطبي ١٧: ٩٥.

وبين هذه المشاهدِ المَرئيّةِ، حيث دلَّ القسمُ بالنَّجم على أنّ هذه المشاهدَ الغَيبيّةَ رآها النبيُّ ﷺ بعيونه، كما تُرى النُّجومُ والشُّهب في السماء، وأكَّد حدوثَ الرُّؤية على وجه الحقيقة أيضًا بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم: ١٧].

وبعد أن تعرضَ السورةُ ما رآه النبي ﷺ من كمال خلق جبريل في صورته الملكية، وعجائبِ الملكوت، يتوجَّهُ السّياقُ بأسلوب الإنكار والتَّوبيخ إلى كُفّار مكّةَ، ذاكرًا أصنامَهم التي كانوا يَعبدونَها، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠]، فيدعوهم إلى النظر إليها أيضًا وتأمُّلِها، ومشهدُ الأصنام التي تُرى ساكنةً ضعيفة لا روحَ فيها ولا حياة، في مقابل ما رآه النبيُّ من عجائب ملكوتِ الله تعالى، يأتي في غاية التَّوبيخ والسُّخريّة، فأينَ هذه الأصنامُ من عظمة الخالق تبارك وتعالى، وكمال قدرته؟ والنَّظرُ إلى الأصنام وتأمُّلها يُناسبه القسمُ بالنجم اللّامع، فكلاهما مَرئيٌّ بوضوح، مع ما بينَهما من فرق يتمثَّل في أنّ النَّجمَ يَشِعُّ بالنور، ويدلّ على عظمة خالقه ومُسيِّره، على حين أنّ سكونَ الأصنام وضَعفَها يدعوان إلى ازدراء عقلِ مَن يتوجَّه إليها بالعبادة من دون الله تعالى.

ومِن المشاهد المتَّصلة بالرُّؤية في السُّورة، التي يُناسبُها القسمُ بالنَّجم اللّامع، قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النجم: ٣٣ ـ ٣٥]، ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤٠].

ومن المشاهدِ المتَّصلة بالرُّؤية أحوالُ الإنسانِ التي ذُكرت في السُّورة كالضَّحك والبكاء والموت والحياة والغِنى وجنسِ الإنسان إن كان ذكرًا

أو أنثى، وهذه الأحوال بيد الله وحده، وهو المتصرِّفُ فيها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ [النجم: ٤٣ ـ ٤٨]. يُضاف إلى ذلك بعضُ أحوالِ الإنسان، التي ذُكرت في خاتمة السورة أيضًا، ومنها ما يَخصُّ أحوالَه العامّةَ، ومنها ما يتّصلُ بأحواله في العبادة، كالرُّكوع والسُّجود، قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦٢].

ومن المشاهد المَرئيّة في السُّورة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ [النجم: ٤٩]. والشِّعرى: نجمٌ يَطلعُ بعدَ الجَوزاء، ويُسمّى العَبور لعُبوره المَجرّةَ، وكانت بعضُ قبائِل العرب تعبدُه، لهذا خصَّه بالذِّكر[1]. وذهب بعضُ المُفسِّرين إلى أنه هو المُراد بالنجم المُقسَم به في افتتاح السورة، مُستدلِّينَ بذِكره في هذا الموضع[2].

وممّا تضمَّنته السُّورةُ من مشاهدَ، في حُكم المَرئيِّ، إهلاكُ المكذِّبين من الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥٤]. فهذه المشاهدُ في حُكم المَرئيِّ لمَن يُقدِّرُ أنّه في زمانِها، وتَجري أمامَ ناظرَيه، أو لمَن يتخيَّلُها مُتمثِّلًا براعةَ القرآن الكريم وأسلوبَه في التَّصوير الفنِّيّ.

---

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص٤٥٧، والبحر المحيط ١٠: ٨.

(٢) يُنظر: الدر المصون ١٠: ٨٢.

ومن المشاهد، التي هي في حُكم المرئي، مشـــهدُ القيامة وأحداثها التي ذُكرت في قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجـم: ٥٧ ـ ٥٨]، فهذا أيضًا مشهدٌ يتمثَّلُه الإنسانُ بخياله فيُدركُه كما يُدركُ المَرئيّاتِ ببَصره.

ممّا سبق يتَّضح أنّ ثمّةَ مناسبةً دلاليّةً واضحة بين القسم بالنجم في افتتاح الســورة، باعتباره مرئيًّـا بالبَصر، وبين ما احتــواه مضمونُها من مشــاهدَ مرئيّةٍ تحدَّثتُ عنها سابقًا. وهذه المناســبةُ تُقوّي رأيَ مَن ذهب من المُفسِّــرينَ إلى أنّ المُرادَ بالنجم هو الشِّــهابُ، لأنّه يكون في غاية الوضوحِ والظُّهور ولَفتِ الانتباه. وكأنَّ في القسم به توجيهًا وإشارةً إلى أنّ ما احتوته السُّورةُ من مشــاهدَ وأخبارٍ، وخاصّةً الغَيبيّة منها، هي حقٌّ ثابت، ولا يُماري فــي صِدقيّتِها، ورؤيةِ النبيِّ ﷺ لبعــضٍ منها، إلا مَن يتكلّف إنكارَ رؤيةِ الشِّهابِ اللّامعِ في السَّماء.

هذا بالنسبة إلى المناسبة الدَّلاليّة بين القسم بالنجم ومضمون السُّورة. أما المناســبةُ الفنيّةُ فتَظهرُ أولًا في آياتها القصيرة، الســريعةِ الإيقاعِ، التي تُحاكي سرعةَ عُبورِ الشِّهاب، ثم في انتهاء فواصلِها بالألف، الذي يُحاكي امتدادُه في النُّطق امتدادَ السُّــقوط، والخَطَّ المُضيءَ المتَّصِلَ الذي يَرسمُه الشِّهاب. يُضاف إلى ذلك مناسباتٌ فنيّةٌ أخرى تتمثَّلُ فيما يلي:

١ ـ إنّ مضمونَ السُّــورة يدورُ حولَ صدقِ النُّبوّة والوَحيِ، والمقارنةِ بينَ الهُــدى وجزائِه وبينَ الضَّــلالِ وعاقبتِه، فجاءت صــورةُ الهُدى من الناحية الفنّيّةِ مُشبِهةً ثباتَ النَّجمِ في السَّماء واتِّســاقَه وتألُّقَه في مَداره، أما الضَّلالُ فعرَضَته الســورةُ كأنّه حركةُ الشِّــهاب في سقوطِه المُفاجئ، ووَميضِه المُنطفِئ.

وقد عالجَتِ السُّــورةُ موضوعاتِها كلَّها من خلال مشهدِ الهُدى في ثباتِه ودَوامِه وتألُّقِه، ومشــهدِ الضّلالِ والغوايةِ واتِّباعِ الهَوى باعتبارها حركةً خاطفةً زائلة لا تَثبتُ أمامَ الحقِّ واليَقين، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣]، فحقيقةُ أنَّ الأُلوهيّةَ لله وحدَه ثابتةٌ واضحةٌ كالنَّجم المُشــعِّ المُتألِّقِ في مداره، وأمّا نِسبتُها إلى الآلهةِ فأمرٌ باطلٌ كوميض الشِّهابِ الزّائل. وفي الآية ذاتِها ظهرَ الهُدى واليَقينُ كالنَّجــم المُتألِّق أيضًا، على حين كان الظَّنُّ وهوى النَّفسِ كالوميــضِ الذّاهب. ومثلُ ذلــك قولُه تعالى في الضَّــلالِ والاهتِــداء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٣٠].

وممّا وردَ في السُّــورة من مُوازناتٍ بينَ مشــهدِ الهُدى الرّاسخِ كالنَّجمِ المُتألِّقِ في مداره، وبينَ مشــهدِ الضَّلالِ العارضِ الزّائلِ كوَميضِ الشِّهاب، الحسناتُ والسَّــيِّئاتُ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]. فالحَسناتُ نورٌ راســخ، وجزاؤُها جنّاتٌ واســعة، وذلك يُشــبه النَّجمَ المُتألِّقَ المُستقِرَّ في مَداره. أمّا السَّيّئاتُ فتُشبِهُ الزَّلَلَ والتَّعثُّرَ الذي يُحاكي حركةَ الشِّهابِ الهاوي.

٢ ـ عرضَتِ الســورةُ موضوعاتِهــا الأخرى بأســلوب الموازنة بين مَشــهدَين، أحدُهما أساســيٌّ غالبٌ يُقابلُ ظهورَ النَّجمِ وتألُّقَه في مداره، والآخرُ حركةٌ طارئــةٌ خاطفة، تُحاكي ســقوطَ النَّجمِ وهُوِيَّهُ، كاســتواء جبريلَ في الأفق ثم دُنُوِّه وتدلِّيه المُفاجِئ، قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٦ ـ ٩].

ومن ذلك رؤيةُ النَّبـيِّ ﷺ لجبريلَ عليه السلام، في صورتـه المَلَكيّة، مرّةً أخرى عند سِـدرة المُنتهى، ورؤيةُ الآياتِ الكُبرى، ونفيُ أن يكون بصرُ النَّبي قـد زاغَ أو طغى، قـال تعالـى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٨]. فرؤيـةُ النبيِّ ﷺ لجبريلَ ولعجائـبِ المَلَكوتِ، كانـت مُفاجِئةً ومُدهِشـةً، كأنَّها وميضُ الشِّـهاب، كما أنّ زَيغَ البَصَرِ وطُغيانَه يُشـبهانِ اللَّمَعـانَ والوَميضَ، في مُقابلِ النَّظرِ الدّائمِ الذي يُشبِهُ اتِّساقَ النَّجمِ في مداره وتألُّقِه في السَّماء.

ومثلُ ذلك اتِّباعُ الظَّنِّ وظُلماتِه والابتعادُ عن ضياءِ الحقِّ ونورِ العِلم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، فكأن الظنَّ وميضٌ زائلٌ قياسًـا بالحقِّ المُضيء الرّاسـخ. ونحوُ ذلك كبائرُ الإثم بـإزاء اللَّمَمِ في قولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، فالكبائرُ لها رسـوخٌ وخطر، واللَّمَمُ في جوارها كأنّه وَميضٌ خاطفٌ سريعُ الزَّوالِ كضَوءِ الشُّهُب.

ومن تلك الموضوعاتِ المَعروضةِ بأسـلوب المُوازَنةِ بينَ مَشهدَينِ، أحدُهما أساسـيٌّ غالبٌ، والآخرُ حركـةٌ طارئةٌ خاطفةٌ، تُحاكي سـقوطَ النَّجم وهُويِّه، إهلاكُ المكذِّبين من الأمم السّابقة، بحركةٍ خاطفةٍ مُفاجِئةٍ بإزاء حياتِهم التي تُمثّل مَشهدًا أساسـيًّا له امتدادٌ واستمرار، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥٤]، ومثلُ ذلك

مشـهدُ القيامةِ الذي يُمثِّل أيضًا حركةً سـريعةً مُفاجئة بإزاء الحياةِ الدُّنيا وامتدادِها، قـال تعالـى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٥٨].

ممّا سبق يظهرُ أنّ ثمةَ مناسـباتٍ دلاليّةً وفنية واضحةً بين القسم في افتتاح سـورة النجم وبين مضمونهـا. وهذا يُؤكّد أنّ القسـمَ في افتتاح السُّـوَر وإن كانَ جوابُه مذكورًا إلا أنّ مناسـبتَه لا تقتصرُ على الجواب فحسـب، بل تشـملُ مضمونَ السُّـورة وما تحتويه مـن الموضوعاتِ والمَشاهدِ والأحداث.

ثانيًا ـ القسَمُ بالسَّماءِ ذاتِ البُروج:

مِن المواضع التي ورد فيها القسـمُ بالسـماء وعوالِمهـا، في افتتاح السُّوَر، القسمُ بالسَّماء ذاتِ البُروج، في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البـروج: ١ ـ ٤]، والبُروج: جمع بُرجٍ، وفيهـا ثلاثةُ أقوال: أحدها أنها المنازلُ الاثنا عشـرَ التي تسيرُ فيها الشَّمسُ، وحَسُن القسمُ بها لما فيها من عَجيب الحكمة، إذ إنَّ سَير الشَّمسِ الذي ترتبطُ به مصالحُ العالَم السُّفلِيّ يكون فيها. والقول الثاني أنّها منازلُ القمر، والقسـمُ بها لِما في سيرِ القمرِ وحركته من الآثار العَجيبة، والثالث أنها عِظامُ الكواكب، وسُمِّيَت بُروجًا لظُهورها[1].

واليومُ المَوعود: هـو يومُ القيامة، الـذي وُعِد فيه الناسُ بالحشـر والجزاء، وأوّلُ منازله قيامُ السّاعة. والشّاهدُ: هو الذي تَثبتُ به الدَّعاوى والحقوق، ويَحتمل أن يكون معناه الحاضر، فهو اسـم فاعل عُبِّر به عن

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٣١: ١٠٦.

اســم الذات، لدلالته على مَن يَشــهد بالحقوق يوم القيامة. والمشهود: اسمُ مفعولٍ للفعل شَهِد عُبِّر به عن اســم الذات أيضًا، والمُراد به ما في يوم القيامة من العَجائب والأهوالِ التي يَشهدُها الخلقُ[1].

فقد أقسمَ بالسَّــماء وما فيها من مظاهرِ العَظَمةِ والحكمة والجمال، وعطفَ عليها يومَ القيامة وما فيه من العظائم والأهوال. وفي هذا القسمِ والمعطوفِ عليه مُقابَلةٌ بينَ مَشــهدَين يُعبِّر الأوّلُ عــن الحكمة الإلهيةِ والإبداعِ ودِقّةِ النِّظامِ والتَّدبيــر، ويُعبِّرُ الثّاني عن نهايــة النِّظامِ الكونيِّ والانتقالِ إلى أهوال القيامة والحســابِ والأخذ والجــزاء. والأولى أن يتعلَّقَ الشّــاهدُ والمَشــهود بعجائب الدُّنيا وأهوال القيامة معًا، فالخلائقُ التي تشــهد لله بالوحدانيّة والحكمةِ والتَّدبيرِ من خلال السَّماءِ وبُروجها هي التي ستشــهدُ لله تعالى بالعَظمة والجبروت والتفــرُّدِ بالأُلوهيّة حينَ تُعاينُ أهوالَ القيامة وعجائبَها.

أمّا جوابُ القســم فقِيل هــو قوله تعالــى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ [البروج: ٤]، وعليه معظمُ المُفسِّرينَ. وقيل: بل هو محذوفٌ تقديره: لتُبعُثنَّ. وقيل بل تقديره: لُعِنَ كُفّارُ مكّةَ كما لُعِــنَ أصحابُ الأُخدود، لأن معنى «قُتِل»: لُعِنَ[2].

وأمّا مناســبةُ القسمِ للمُقسَــم عليه، على اعتبار أنّ جوابَ القسمِ هو قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، فتتجلّى فــي أنّ الأخاديدَ خطوطٌ في الأرض، مُســتعِرةٌ بالنّار، تُشــبه ما يَلوح للنّاظرينَ في السَّماء من داراتٍ مُتلألِئةٍ بأنوار النُّجومِ اللّامعة، الشَّــبيهةِ بتلهُّب النّار، التي سَمّاها العربُ

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٢٩.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٢٩، وتفسير القرطبي ١٩: ٢٨٦.

بُروجًا[1]. وفي تشبيه أخاديدِ الأرض ببروج السَّماء إشارةٌ إلى أن الله تعالى محيطٌ بهم، وقاهرٌ لهم، ومُتصرِّفٌ بمآلِهم.

يُضافُ إلى ذلك وجودُ مُقابلةٍ بين بروجِ السَّماء المُشعّة بالنُّور، التي يَنظر إليها النّاسُ بإعجابٍ وتفاؤُلٍ لارتباطها بمَعاشِهم وأرزاقِهم، وهدايتِهم في البَرِّ والبحر، وإرشادِهم إلى الإيمانِ بالخالقِ المُبدِع، والصّانعِ المُتفرِّد، وبينَ أخاديدِ الأرضِ المُلتهبةِ بالنّار، التي احتفرَها الطُّغاةُ المُتألِّهون، لصَرف المؤمنينَ عن الهدى أو إحراقِهم فيها. فبُروج السَّماء مِن مظاهر الإبداع الإلهي الحقّ، والرحمةِ بالبشر، أمّا الأخاديدُ فمَظهرٌ من مظاهر طغيانِ البَشرِ وتَماديهم في الباطل.

ومِن أوجُهِ المناسبةِ بينَ القسمِ وجوابِه تهديدُ أصحابِ الأُخدودِ بنار جهنَّمَ، ففي اليوم الموعودِ سوف تَنتثرُ الكواكبُ والنُّجوم وتنفطرُ السَّماء، ثم يأتي الحشرُ والجزاء، فيكون ذِكرُ الأخدودِ تلميحًا إلى ما سينزلُ بأصحابه من عذابِ جهنَّمَ.

ومما يُستنتج من أوجُهِ المناسبةِ أنّ أصحابَ الأخدودِ كان يكفيهم للاعتبار والإيمان أن يَنظروا في بروجِ السَّماء، التي تُشبه أخاديدَهم، ويتأمَّلوا عظمتَها ودقّةَ نِظامها، ولكنّهم نَظروا فجَحدوا، ثم انتقمُوا من المؤمنين. ولمّا أنكروا آياتِ الله في السَّماء وكفروا لم يبقَ أمامَهم إلا اليومُ الموعودُ وما يتلوهُ من عذاب النار.

هذا بالنسبة إلى ما يُمكن استنتاجُه من مناسباتٍ دلاليّة وفنيّة بين ألفاظِ القسمِ وجوابه، على اعتبار أنّ جوابَ القسم مذكورٌ، وهو قوله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠: ٢٣٧.

تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾. أمّا المناسبةُ بين ألفاظ القسمِ ومضمونِ السُّورةِ ففيما يلي عرضُها.

إنّ مضمونَ السُّورةِ يدورُ حولَ تصويرِ ما يفعلُه الجَبابرةُ المُتألِّهونَ بالفئةِ المُؤمنة، وما يُوقِعونَه بهم مِن صُنوف العذابِ وألوانِ الشَّرّ، انتقامًا منهم لإيمانهم بالله تعالى فحَسب، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

وفي المقابل تُؤكِّد السُّورةُ على حقيقة أنّ اللهَ تعالى عالمٌ بما يَفعلُه الطُّغاةُ بالمؤمنينَ، وشاهدٌ على عَنتِهم وعِنادِهم، ومحيطٌ بمكرهم وتجبُّرِهم، ولذلك يتوعَّدُهُم بالبَطش بهم في الدُّنيا، والتَّنكيلِ بهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج: ١٠].

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى مُواساة المُؤمنينَ، وتصبيرهم على ما يُلاقونَه من الأذَى والظُّلم، بوَعدِهم بالجنّةِ وتَبشيرهم بالنَّجاةِ والفَوز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾ [البروج: ١١].

ومناسبةُ ألفاظِ القسمِ لذِكر الجنّةِ والنّار تتمثَّلُ في أنّ السَّماءَ وبُروجَها آياتٌ تهدي إلى عظمةِ الخالقِ ووحدانيّتِه، وتدلُّ على كمال قدرته، وتعبِّرُ أيضًا عن الحياة الدُّنيا، حيث يكون النِّظامُ الكونيُّ قائمًا متناسقًا، والسَّماءُ معمورةً بالكواكب والنُّجوم. فالدُّنيا دار العبادة، وبروجُ السَّماء من أعظم الآيات التي تَدعوا إلى الاعتبار والإيمان، وأقربِها إلى الحسّ الإنسانيّ، فمَن نظرَ واعتبر وآمنَ وأخلصَ العبوديّةَ لله فهو آمِنٌ في

اليومِ المَوعود، مسرورٌ في يوم الجَزاء، مُبتهجٌ بما يَجده في الجنة من السّعادةِ والنَّعيم. ومَن لم يَعتبرْ بآياتِ الله، ولم يُخلِصْ له العبوديةَ في الدُّنيا، نزلَ به الفزعُ الأكبرُ في اليوم المَوعود، وأصابَه الجَزع يومَ الجَزاء، ثم الخُسران والتَّردِّي في النّار.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى تهديدِ كُفّارِ مكّةَ، وغيرِهم من الجَبابرةِ الطُّغاة، بالبَطش والجَبَروت، والتَّنكيل بهم في الدُّنيا والآخرة، وفي الوقت ذاتِه تُلقي على المؤمنينَ نفحاتِ الرَّحمةِ والودّ، فيَجري سياقُ السُّورةِ وَفقَ إيقاعٍ مُتناوِبٍ يَعلو ويَجيشُ بما يُلائم تَهديدَ الطُّغاة وإنذارَهم، ثم يَهدأُ ويَلينُ بما يَليقُ بالمؤمنينَ من المَغفرة والرَّحمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٦].

وهذا السِّياقُ يُناسبُه القسمُ بالسَّماء ذاتِ البُروج، فيما يخصُّ رحمةَ الله بالمؤمنين، لأنّ السَّماءَ وما فيها مِن العَوالم خِزانةُ الغَيث، ومَبعثُ الرِّزق، ومُرتَقى البَصرِ في التأمُّل والاعتبار، ومَهوى الأفئدةِ في التطلُّع إلى المَغفرة والرَّحمة. ويُناسبُه القسمُ باليوم المَوعودِ فيما يَخصُّ الطُّغاة، لأنّ فيه تَزول الألقابُ والأمجادُ، وتتمزَّق فيه أقنعةُ الباطل، وأثوابُ الظُّلم والتَّعالي، ويُشرِقُ نورُ الحقّ واليَقين، فلا مُلكَ ولا سلطانَ إلا لله تعالى.

وفي خاتمة السُّورة يستمرُ سياقُ الوَعيد، فيَثبتُ الإيقاعُ عند مستوى الشِّدّة إلى نهاية السُّورة، حيث يعرضُ ما حلَّ بالجبابرة من الأُمَم السّابقة، وما ينتظرُ كُفّارَ مكّةَ من العذاب والتَّنكيل، ويُقرِّرُ إحاطةَ الله تعالى بالكُفّار وقُدرتَه عليهم، مع التّأكيد على عظمة القُرآنِ الكريمِ وعلوِّه وخلودِه، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ١٧ ـ ٢٢]. وهذه الخاتمةُ تُناسِبُها ألفاظُ القسمِ من جهة أنّ مَن يُرسِلُ السّاعةَ ويَحشُرُ الخلائقَ للحساب والجزاء، في اليوم الموعود، قادرٌ أن يُنزِل بالكافرين عذابَ الدُّنيا، كما فعل بفرعون وثمود. ومن جهة أنّ الذي أتقنَ خَلق السَّماء ذاتِ البُروج هو الذي أحكمَ آياتِ القرآنِ الكريم، فالسَّماءُ مِن إبداعِه، والقرآنُ من كلامه. ومن جهةِ أنّ قُدرةَ الله وإحاطتَه بالنّاس، وإهلاكَه للجبابرة، وإنزالَه للقرآن الكريم، كلُّها أمورٌ مَشهودة لا يُنكرها إلا جاحدٌ مُنغمِسٌ في الباطل والعِناد.

ومن الناحية الفنيّة فإنّ ألفاظَ القسمِ تتضمَّنُ مقابَلةً بينَ مشهدينِ، فالسَّماءُ ذاتُ البُروج تدلُّ، كما تقدَّم، على الحياة الدُّنيا، ودِقّةِ النِّظامِ الكونيِّ، وعجائبِ الخَلق، على حين يدلُّ اليومُ الموعود على الآخرة، التي يتهدّمُ فيها النِّظامُ الكونيُّ، ويُحشَر النّاسُ للحسابِ والجزاء، ثم دخولِ الجنّة أو النّار. والمَشهدان يُعبِّرانِ عن عظمة الخالق، وكمالِ قدرتِه، وتفرُّده بالمُلك والألوهيّة.

والسُّورةُ أيضًا عرضَت بعضَ موضوعاتِها بأسلوب المُقابلة بين مَشهدين، أحدُهما يتجلّى فيه السُّرورُ والرَّحمة، والآخرُ يَظهر فيه الوعيدُ والغَضب، ومن ذلك مصيرُ الطُّغاةِ إلى النّار، ومآلُ المؤمنينَ إلى الجنّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١٠ ـ ١١]. ونحوُ ذلك الحديثُ عن البَطش والعذابِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، في مقابلِ المَغفرة والودّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤].

ويغلبُ على أسلوب السُّــورة قِصَرُ الآياتِ، وانتهاءُ الفَواصلِ بأحرفِ القَلقلة الشَّديدة، وهذا جعل شِــدّةَ الإيقاعِ غالبةً على السُّورة عامّةً، كما يَغلب على أحداثِها وموضوعاتِها الإيجازُ والإجمال.

يُضاف إلى كلِّ ما تقدَّم وجودُ مناســبةٍ لفظيّة تمثَّلَت في تَكرار لفظ الشَّهادة مرّتَين في القسم في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج: ٣]، ومرّتَينِ في السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [البروج: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٩].

مما تقدَّم يظهــرُ أنّ ثمّةَ مناســباتٍ دلاليّةً وفنيّـــةً ولفظيّة بيـن ألفـاظ القســم في افتتاح ســورة البُروج، وبينَ جوابِـه ومضمـونِ السُّورة عامّةً.

ثالثًا ـ القَسَمُ بالسَّماء والطّارق:

ومِن المواضع التي وردَ فيها القســمُ بالسَّماء وعوالِمِها، في افتتاح السُّوَر، القسمُ بالسَّماء والطّارق في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطـارق: ١ ـ ٤]. والطّارِق هو: اسمُ فاعلٍ للفعل طَرَق، عُبِّر به عن اسم الذات للمبالغة، لأنّ المُرادَ به جنسٌ يُدرَك بالحــواس. والطُّــروق: الإتيانُ ليلًا وأصلــه الضَّرب. والطّارق: لفظٌ عــامٌّ يَحتمل الكثيرَ من وجوه التَّقديــر والتّأويل، إلا أنّ اقترانَه بالسَّــماء هو تخصيصٌ أوّلُ له، أي إنّه من عوالِم السَّــماء دون غيرها، ثم جاء التَّخصيصُ الثانــي له بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ٢ ـ ٣]. والثّاقِب: اسم فاعل للفعل ثَقَب، وهو صفة

للنَّجم الذي فُسِّر به الطّارق. ووُصِف النَّجمُ بأنّه ثاقِبٌ، لأنه يثقُبُ الظُّلمةَ بضوئه أي يَنفذُ فيها[(١)].

وقد ورد في تفسير النَّجمِ الثّاقب آراءٌ كثيرة[(٢)]، أظهرُها أنّ المُرادَ به كلُّ نَجمٍ مُشِعّ، فتكون «أل» جنسيّةً للاستغراق الحقيقي. ولعلّ أكثرَ النُّجوم إشعاعًا هي الشُّهُب، وإليه مال الزّمخشري ورجَّحه، ولم يَذكرْ غيرَه، فقال: «قلتُ: أراد الله عزَّ مِن قائل: أن يُقسم بالنَّجم الثّاقبِ تعظيمًا له، لِما عُرف فيه من عجيبِ القُدرة ولَطيفِ الحكمة، وأن يُنبِّهَ على ذلك، فجاء بما هو صفةٌ مشتركةٌ بينَه وبين غيره، وهو الطّارق، ثم قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟ ثم فسَّرَه بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، كلُّ هذا إظهارٌ لفخامةِ شأنِه»[(٣)].

«والمُقسَمُ عليه ههنا حالُ النَّفسِ الإنسانيّةِ والاعتناءُ بها، وإقامةُ الحَفَظةِ عليها، وأنّها لم تُتركْ سُدًى، بل قد أرصدَ عليها مَن يَحفظُ عليها أعمالَها ويُحصيها. فأقسم سبحانه أنه ما من نفسٍ إلا عليها حافظٌ من الملائكة يَحفظ عملَها وقولَها، ويُحصي ما تكتسِبُ من خيرٍ أو شَرّ»[(٤)].

وأمّا مناسبةُ القَسمِ للمُقسَم عليه فلم أعثرْ على قولٍ شافٍ فيها، وهي تتجلّى، والله أعلم، في المُقابلة بين حِفظ السَّماءِ من الشّياطينِ، وحِفظ النَّفسِ الإنسانيّة من وَساوسِهم وأوهامِهم وإيذائِهم، فالسَّماءُ خَلْقٌ

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٣١: ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) يُنظر في تلك الآراء: تفسير القرطبي ٢٠: ١ ـ ٣، والبحر المحيط ١٠: ٤٤٨ ـ ٤٥٠.

(٣) الكشاف ٤: ٧٣٤.

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص١٠١.

عظيمٌ يـدلُّ على الحكمـةِ الإلهيّةِ والصّنعـةِ الرّبّانيّـة المُتفـرّدة، قـال تعـالـى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٨]، وكـذلك النّفسُ الإنسانيّةُ وما فيهـا مـن معجـزاتِ الخَلق وعجائبِـه، قـال تعالـى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، والسّماءُ محفوظةٌ بالشُّهب، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧]، والنّفسُ الإنسـانيّةُ محفوظةٌ أيضًا بالمَلائكة المُوكّلِيـنَ بها، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعـد: ١١]. وبنـاءً على هذه المُقابلة يكون المُرادُ بالحافظ، والله أعلم: الذي يَحفظُ الإنسانَ من كيدِ الشّياطينِ وإيذائِهم، وليس الذي يُحصي أعمالَ الإنسانِ ويكتبُها، خلافًا لما عليه جمهورُ المُفسّرينَ.

ومناسبةُ ألفاظِ القسـمِ لمضمون السُّـورة تتجلّى في أنّ السّماءَ هي أعظمُ ما يراه الحِسُّ الإنسـانيُّ من عجائبِ الخلـقِ والتّكوين، وعطفُ «الطـارق» عليها يـدلُّ على وقـتِ اللّيل، حيث تظهـرُ السّـماءُ مُزيّنةً بالكواكـب والنُّجوم، شـاهدةً بما فيها مـن مجراتٍ واسـعة، ودارات مُتلألئة، وأسـرارٍ غامضة، ونظامٍ عجيب، على عظمة الخالقِ سـبحانَه، وتفرُّده بالملك والخَلق والإبداع.

يُضاف إلى ذلك أنّ السّماءَ في سـكون اللّيلِ هي مجالٌ واسعٌ للنّظرِ والتأمُّل، وصفحـةٌ باهرةٌ للتفكُّر الهـادئ العَميق، ولوحـةٌ فنّيةٌ تُداعبُ خواطرَ الرُّوح، وأحاسيسَ الوجدان.

فكـم حملَت نجومُها مـن أمنياتِ البَشَـر، وكم باحـوا على مَرآها بأحلامِهم، وكم بَثُّوها نَجوى قلوبِهم، وحُرقةَ أكبادِهم!

وكم ارتفعَت إليها شكواهم، وأنينُ نفوسِهم من ضيقِ الحياة، وألمِ المُعاناة، وكم شاركوها أفراحَهُم وسعادتَهم وأُنسَهم!

وكم استمعَت إلى عُشّاقٍ أتلفَهُمُ الحُبُّ، وإلى أتقياءَ هزَّهُمُ الشَّوقُ، وإلى مُستضعَفين ضاقَت بهم سبُلُ الحياة، وأرهقَتهم قيودُ الظُّلم!

وكم استلهَم من نورها الشُّعراءُ، وأبدعَ في التَّغنّي بجمالها الخُطَباءُ، وكم كانت رسُلَ فنٍّ وإبداعٍ وإلهام!

وما تلك الشُّهُبُ المُنطلقةُ في صَمتِ اللَّيل، مَحفوفةً بمواكب النُّجوم، إلا أصابعُ حنانٍ وعَطف، وأناملُ ناعمةٌ طاهرة، تَجذب العيونَ، لتَسريَ عبرَ صفائِها، ونظرِها الحالِم المُتأمّل، إلى أعماق القلوب، فتُوقِظُها وتَملؤُها بالسَّكينةِ والرِّقّةِ والحُبّ!

إنّها السَّماءُ والطّارق، واللَّيلُ السّاكن الهادئ، والنُّجومُ المُتلألئةُ في مَجرّاتِها ومَداراتِها، التي تُناجي بضوئِها الخافتِ اللَّطيفِ، وانتظامِها في عقودٍ تمتدّ في مَجاهيل الفَضاء، ضميرَ الإنسان وفؤادَه، وتتَّصلُ عبرَ التأمُّلِ بغوامضِ فكره وقلبِه.

فإذا كان القسمُ بالسَّماءِ والطّارق يُوحي بكل هذه الخَواطر، ويَستحضرُ كلَّ ما في القلوبِ من العواطف والمشاعر، فلا عجبَ أن يكون مضمونُ السُّورةِ هادئَ الإيقاع يتناسبُ مع عُمق التأمُّل في سكون اللَّيل، واتِّساعِ السَّماء، وامتدادِ المَجرّات، ولطافةِ النُّجوم. ولا عجبَ أيضًا أن يشتدَّ في خاتمةِ السُّورة ويتسارعَ وقعُه محاكيًا سُرعةَ سُقوط الشِّهابِ المُقسَم به في افتتاحِ السُّورة.

فالسُّورةُ تبدأُ بعد القسم وجوابه بدعوةِ الإنسانِ إلى التأمُّل في ذاتِه، وكيفيّةِ خَلقِه، وتَبصيرِه من خلال ذلك بعظمةِ الخالقِ وقُدرته على إحيائِه بعدَ المَوت، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]. والحديثُ عن خلقِ الإنسان وإحيائِه بعدَ الموتِ يُناسبُه القسمُ بالسَّماء والطارق، لأنّ السَّماءَ، كما تقدَّم، هي أعظمُ ما يراهُ الحِسُّ الإنسانيُّ من عجائبِ الخلقِ والتَّكوين، فيكونُ قد أقسمَ بأعظم مخلوقاتِه لإثبات ما هو أدنى منها، وهو خلقُ الإنسان. وهي المناسبة الدّلالية.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى التَّلميح بيوم الحسابِ والجَزاء، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ٩ ـ ١٠]، وتَشفعُ هذا التَّلميحَ بقسَمٍ جَديد، يشتدُّ عنده الإيقاعُ حتى نهاية السُّورة، ويُعبِّرُ عمّا تَجودُ به السَّماءُ مِن نعمةِ الغَيث، وما تُخرجُه الأرضُ من أخلاطِ النَّباتِ وأنواعِ الكُنوز، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٤]. وهذا القسمُ يُناسبُه افتتاحُ السُّورة من الناحيتَينِ اللَّفظيّةِ والدَّلاليّة.

وأخيرًا تنتقلُ السُّورةُ إلى وعيدِ الكُفّار وتَهديدِهم بعذاب الدُّنيا والآخرة، وقد جاء إيقاعُ الخاتمةِ في غايةِ الشِّدّةِ، مُتناسبًا في شِدّةِ وَقعِه مع قَسَمَين سابقَين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]. وهذه الخاتمةُ يُناسبُها القَسمُ بالسَّماء والطّارق، باعتبار أنّ الشُّهُبَ تُقذَفُ بها الشَّياطِينُ وتُحرَق، فهي رمزٌ لما يُمكنُ أن يَنزلَ بالكافرينَ من الصَّواعقِ والعَذاب، يُضافُ إلى ذلك أنّ السَّماءَ التي تَنزلُ منها الرَّحمةُ والغَيثُ، والأرضَ التي تَخرجُ

منهـا المنافعُ والكنـوزُ، كلتاهما بأمـر الله تُنزلانِ بالكافريـنَ العَذابَ والزَّلازلَ والدَّمار.

هذا بالنسبة إلى المُناسباتِ الدَّلاليّة، أما المُناسباتُ الفنّية فتتمثلُ في المُقابـلاتِ المُتعدِّدة بين النَّجمِ الثّاقبِ للظُّلمةِ وأُمـورِ الخَلقِ وعجائبِه، فالنَّجمُ الثّاقبُ يَنفـذُ في الظُّلمةِ، والماءُ الدّافقُ الذي خُلِق منه الإنسـانُ يَخرُجُ من بينِ الصُّلبِ والتَّرائب، قال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾ [الطارق: ٦ ـ ٧]، والسَّـرائرُ أيضًا تُشبِهُ الظُّلمةَ، وسيُظهِرُ الله تعالى مكنونَها واضحًا كما تنبثقُ الشُّهُبُ وسـطَ الظَّلام، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾ [الطارق: ٩ ـ ١٠].

والنَّجمُ الثّاقِبُ الذي ينفذُ في الظُّلمةِ يُشـبِهُ المطـرَ الذي يَخرُجُ مِن رُكامِ الغُيوم، كما يُشـبِهُ ما تتصـدَّعُ عنه الأرضُ أي تتشـقَّقُ من النَّباتِ والكُنوز، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ١٢﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٢]. والقولُ الفَصلُ يُشـبِهُ أيضًا النَّجمَ الثّاقبَ، على حينَ أنَّ الهَزلَ والتَّخبُّطَ واللّجاجَ في الباطلِ تُشـبِهُ الظُّلمةَ التي يَثقبُها الشِّهابُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤]، وكذلك كيدُ الكافرينَ وتخبُّطُهم يُشـبِهُ الظُّلمةَ، ومُجازاةُ الله تعالى لهم على كيدِهم تُشـبِهُ وُضوح النَّجمِ الثّاقب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦].

ممّا تقدّمَ يَظهرُ أنّ القسمَ بالسَّماءِ والطّارق يُناسبُ مضمونَ السُّورةِ كلِّها، ولا تَقتصرُ المناسـبةُ على الأمورِ الدَّلاليّةِ واللّفظيّة، بل تَتعدّاها إلى النَّواحي الفَنيّة التي تتمثَّلُ في المُقابـلاتِ المُتعدِّدةِ التي عرضتُها فيما سبق.

رابعًا ـ القسَم بالشَّمسِ وضُحاها:

ومن المَواضعِ التي وردَ فيها القسمُ بعوالِمِ السَّماءِ افتتاحُ سورةِ الشَّمس، إذ أقسمَ بالشَّمس وضُحاها في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

والضُّحَى في الأصل: انبساطُ الشَّمسِ وامتدادُ النَّهار، وسُمِّيَ الوقتُ به[١]. فهو من النّاحيةِ الصَّرفيّةِ مصدرٌ للفعل ضَحِيَ يَضحَى، عُبِّر به عن اسم الذّات للمبالغة[٢]. والشَّمسُ والقَمرُ من أعظم الآياتِ الدّالّةِ على عظمةِ الخالقِ سبحانَه، وأقربِها إلى الحسِّ الإنسانيِّ، وخاصةً أنّ الكثيرَ من المنافعِ التي سخَّرَها الله تعالى لأهل الأرضِ مُرتبِطٌ بحركةِ الشَّمسِ والقَمر.

وقد أقسمَ المولى عزَّ وجَلَّ بالشَّمسِ وانبساطِها في وقتِ الضُّحى حيثُ تكون في غايةِ وضوحِها، واعتدالِ حرارتها، قريبةً من النَّفسِ الإنسانيّةِ المُتطلِّعةِ إلى الأملِ فيما يأتي به النَّهارُ من الأرزاق، وما يتحقَّقُ لها فيه من الأُمنيات.

ثم عطف عليها قولَه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾، لإظهارِ أنّ آياتِ الله العَظيمةَ لا تَغيبُ عن الحِسّ الإنسانيِّ، فالشَّمسُ تُوقِظُ ضميرَ الإنسانِ وتُوجِّهُهُ إلى التأمُّل في عظمةِ الخالقِ طوالَ النَّهار، فإذا انطوَت في ظُلمة

(١) مفردات القرآن ص٥٠٢.

(٢) يُنظر: المفصل في تفسير الجلالين ص٥٨٢.

اللّيلِ أعقبَها القمرُ يَنشــرُ أنوارَه مُداعِبًا وجدانَ الإنســان، واعِظًا بلسانِ الحال، مُذَكِّرًا بأنّ وراءَ الأنوارِ الهادئةِ خالقًا مُبدِعًا، وإلهًا مُتفرِّدًا بالمُلك. «وبينَ القمرِ والقلبِ البَشريِّ وُدٌّ قديمٌ مُوغِلٌ في السَّرائرِ والأعماق، غائرٌ في شِعاب الضَّمير، يترقرقُ ويَســتيقظُ كلَّما التقَى به القلبُ في أيّةِ حال. وللقمرِ هَمَســاتٌ وإيحاءاتٌ للقلب، وسُبَّحاتٌ وتَسبيحاتٌ للخالق، يكادُ يسمعُها القلبُ الشّاعرُ في نورِ القمرِ المُنساب.. وإنّ القلبَ لَيَشعرُ أحيانًا أنه يُســبِّحُ في فيضِ النُّــورِ الغامرِ في اللَّيلــةِ القَمراء، ويَغســلُ أدرانَه، ويَرتوي، ويُعانقُ هذا النُّورَ الحَبيبَ ويَستروِحُ فيه رُوحَ الله»[1].

فالقســمُ بالشَّــمسِ في وقت الإشــراقِ الرّائق، وبالقمرِ الذي يُرسِلُ أشــعّتَه السّــاحرةَ في هدوء اللّيل، له ارتباطٌ وثيقٌ بالنَّفسِ الإنسانيّةِ وما يَهيجُ فيها من تأمُّلاتٍ وعواطفَ، وهذا يُناســبُ تمامًا أن يقترنَ القســمُ بالشَّــمسِ والقَمرِ بالنَّفسِ الإنســانيّةِ وما أنــاطَ بها القــرآنُ الكريمُ من واجباتِ الاهتداءِ والعِبادةِ والتَّوجُّهِ إلى الله تعالى.

إنّها دعوةٌ للتَّفكُّرِ والتّأمُّلِ في عجائب المَخلوقات، المَحسوســةِ في كلّ لحظــةٍ من أوقاتِ النَّهــارِ واللَّيل، للاهتداء بهــا إلى الخالقِ المُدبِّــر، وهي دعوةٌ تقــومُ على بِســاطِ الحُبِّ والجَمــال، واللُّطفِ والأُنس، وكيفَ لا يكون ذلك، وقد اختارَ المَولى عزَّ وجلَّ للقَســمِ أجمــلَ مخلوقاتِــه، المُتحلِّيةِ بالضِّيــاء والنُّور، والأُلفــةِ والوُضوح، والقريبةِ جِدًّا من مشاعرِ النُّفوس، والتي يتلذَّذُ البَصرُ بفضلِ وُجودِها، وهو يَجولُ في عجائبِ الدُّنيا.

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٩١٦.

وبعد أن أقسمَ بالشَّمسِ والقمرِ أتبعَ ذلك بالنَّهار واللَّيل، بقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾، والضَّميرُ في «جَلّاها ويَغشاها» فيه عِدّةُ أقوال، أظهرُها أنه يعودُ على الأرض[1]، فالنَّهارُ يكشفُها ويُظهرُ ما فيها من الحُسنِ والعَجائب، واللَّيلُ يُغطِّيها بالظُّلمة فتَستتِرُ، ليتفرَّغَ القلبُ إلى التَّأمُّل فيما يَظهرُ في اللَّيل من عجائبِ السَّماءِ وتَناثُرِ الكواكبِ والنُّجوم.

فذِكرُ النَّهارِ واللَّيلِ كأنّه تَوطئةٌ لِما يأتي بعدَه من ذِكر السَّماءِ والأرضِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، و«ما» مصدرية في المَوضعَينِ، والتَّقدير: والسَّماءِ وبِنائِها، والأرضِ وطَحوِها، أي تَسويتِها وتَمهيدِها[2]. ففي اللَّيلِ تُرى عجائبُ السَّماء ودِقّةُ بنائها، وفي النَّهار تُرى ألوانُ الأرضِ وعوالِمُها، وحِكمةُ الخالق في بَسطِها لتكونَ ملائمةً للحياة.

ثم أتبعَ السماءَ والأرضَ بذِكر النَّفسِ الإنسانيّة، إيذانًا بأنّ خَلق الإنسانِ لا تنقضي عجائبُه، كما لا تنقضي عجائبُ السَّماءِ والأرض، فقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾، و«ما» أيضًا مصدرية تُناسبُ العطفَ على ما قبلَها، والتَّقدير: ونفسٍ وتَسويتِها، ومعنى سَوّاها: أنشأها وعَدَّل تكوينَها في أحسنِ تَقويم[3]. فالله تعالى أقسمَ بالسَّماء والأرضِ والنَّفس، باعتبارها مخلوقاتٍ عظيمةً تنطوي على

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ٢٠: ٧٤.

(٢) وقيل في «ما»: إنها موصولة بمعنى: مَن، تعود على الله تعالى، والتقدير: والسماءِ ومَن بناها... يُنظر: الدر المصون ١١: ١٨.

(٣) يُنظر: المفصل في تفسير الجلالين ص ٢١٢٥.

ما لا يُحصَى من الأسرارِ والحِكم، كما أقسـمَ بالشَّمسِ والقَمرِ لارتباطِ حركتِهما وضيائِهما بمَنافعِ البَشرِ ومصالِحِهم.

ولكنَّ النَّفسَ الإنسـانيّةَ، التي سخَّرَ اللهُ تعالى لها ما في السَّماواتِ والأرضِ للانتفـاعِ والتأمُّلِ، مكلَّفةٌ بالنَّظرِ في أسـرارِ الكونِ وعجائبِه للاسـتدلالِ بها على الخالقِ عزَّ وجَلَّ، والاهتداءِ والتَّوحيدِ والعِبادة، فأتَمَّ اللهُ تعالـى إنعامَه عليهـا بأن بصَّرَهـا وعرَّفَها بطريقَـيِ التَّقوى والفُجور، ثم تركَها تختارُ ليكونَ الجزاءُ في النِّهايةِ مَبنِيًّا على اختيارِها ومَسيرتِها وعملِها وكَسبِها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، و«مَن» اسـمٌ موصـولٌ يعودُ على الإنسـان، وزَكَّاها معناه: طهَّرَها ونَمّاها بالخَيرات، ودَسَّـاها معنـاهُ: أخفاها وحقَرها أي وصَغَّر قَدرَها بالمَعاصي والبُخل بما يَجبُ[1].

وقد ذهب كثيرٌ من المُفسِّـرينَ إلى أن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ هو جوابُ القَسـم[2]، وقال الزّمخشـري: «فإن قلتَ: فأينَ جوابُ القَسـم؟ قلتُ: هو محذوفٌ تقديره: لَيُدَمدِمَنَّ اللهُ عليهم، أي: على أهل مكّةَ لِتكذيبِهم رسـولَ الله ﷺ، كما دمدمَ على ثمودَ لأنَّهم كذَّبُـوا صالِحًـا. وأمّـا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ فكلامٌ تابـعٌ لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ على سـبيل الاستطرادِ، وليس من جواب القَسمِ في شَيء»[3].

---

(١) يُنظر: تفسير ابن عطية ٥: ٤٨٨.

(٢) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ١٢٩٠.

(٣) الكشاف ٤: ٧٦٠. والدَّمدمة: البطش والتنكيل.

فالمُقسَم عليه كما يَظهر من كلام الزّمخشريِّ محذوفٌ تدلُّ عليه قصّةُ ثمود، أي إنّ مضمونَ السُّورة وما يَحملُه من الإيحاءاتِ هو المُقسَمُ عليه.

وقد توضَّحَت فيما سبق العلاقةُ بينَ الألفاظِ المُقسَمِ بها، ويُمكن أن يُضافَ على سبيلِ التَّلخيصِ أنّ السَّـماءَ والأرضَ والنَّفسَ الإنسانيّةَ مِن المخلوقاتِ العظيمةِ التي تتجلَّى فيها أبدَعُ أسـرارِ الخَلق، واقترانُها معًا فيه إيماءٌ إلى تَسـخيرِ السَّـماءِ والأرض، بما فيهما من المَنافعِ الدُّنيويّة والأرزاقِ وأدلّةِ الهِداية، للنَّفسِ الإنسانيّة.

وهذا من عظيمِ لُطفِ اللهِ تعالى بالإنسان، إذ تكفَّلَ له بكلّ أسبابِ المَعاش، فهيَّأ له الأرضَ مَسـكنًا، والسَّـماء سَـقفًا، وجعلَ له آياتِ الهِدايةِ في مُتناوَلِ حِسّـهِ ووجدانِه، مَبسـوطةً أمامَ بصـره، ومُختلِطةً بأحلامِه وتأمُّلاتِه.

أمّا مناسبةُ ألفاظِ القَسم لمضمون السُّـورة فتتجلَّى في أنّ مضمونَها يقتصرُ، بعد القسم وتبصيرِ النَّفسِ الإنسـانيّةِ بطريقَيِ الخَيرِ والشَّر، على عرض قصّةِ ثمودَ وعصيانِها لنبي الله صالح عليه السلام، وما حلَّ بها من الهَلاك والانتقام، قال تعالـى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

ومناسبةُ هذه القصّةِ للقســم في افتتاح السُّورة تتلخَّصُ في أنّ ألفاظَ القسـمِ انتهَت دلالاتُها إلى النَّفس الإنسـانيّةِ وما يُمكـن أن تَختارَه من طريقيِ التَّقوى والفلاح، أو الفُجورِ والخَيبة، فكانت هذه القصّةُ «نموذجًا من نماذجِ الخَيبةِ التي ينتهي إليها مَن يُدَسّي نفسَه، فيحجبُها عن الهُدى

ويُدنِّسُــها»[1]. وفي ذلك زيــادةُ تبصيرٍ للإنســان بعاقبة البَغيِ والفَســاد والفجور، كي يبتعدَ عن هذا الطَّريقِ، ويَلزمَ طريقَ الهُدى والنَّجاة.

أمّا المُناسبةُ الفنيّةُ فتَظهرُ في المقابلة بينَ النُّورِ والتَّقوى والفلاحِ من جهة، وبينَ الظُّلمــةِ والضَّلالِ والخَيبةِ من جهة أخــرى، فالنُّورُ والظُّلمةُ دلَّت عليهما ألفاظُ القسم، والتَّقوى والفلاحُ والضَّلالُ والخَيبةُ دلَّ عليها صريحُ اللَّفظ، في قوله تعالــى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

واللافتُ للانتبــاه هو ورودُ أربعةِ ألفاظٍ في القســم تدلّ على النُّور، وهي الشــمسُ والقمرُ والضُّحى والنَّهار، في مقابل لفظٍ واحدٍ يدلّ على الظُّلمةِ وهو اللَّيلُ. وهذا يُوحي بوضوح طريقِ الهُــدى، والعنايةِ الإلهيّةِ بكشفِه أمامَ الإنسان، وبَسطِ آياتِه وأدلّتِه في مُتناوَلِ حسّه ووجدانه.

أمّا اقتصارُ السُّــورة على عرض قصّةِ ثمــودَ، باعتبارها نموذجًا من نماذجِ الخَيبةِ والضَّــلال، دونَ أن تَعرضَ أحداثًا تُمثِّــل نماذِجَ التَّقوى والنَّجاة، ففــي هذا تلميحٌ إلــى أنّ الغالبَ على البشــرِ إنــكارُ الأدلّةِ الإيمانيّة، مع وضوحِها وكثرتها، والانغماسُ في الباطل، واختيارُ طريقِ الفُجور والخُسران!

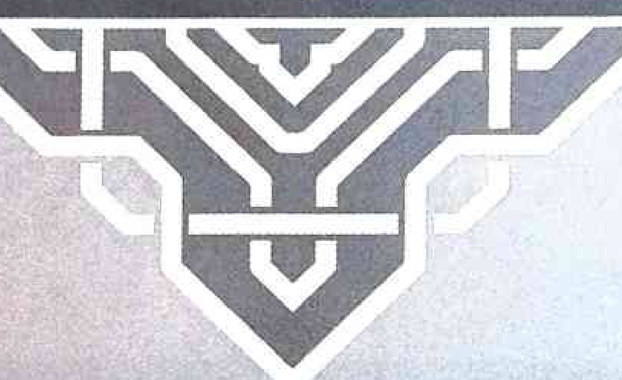
مما تقدَّم يتَّضحُ أن ثمّةَ مناســباتٍ دلاليّةً وفنيّةً بينَ ألفاظِ القسمِ في افتتاح ســورة الشــمس، وبينَ مضمــونِ السُّــورة. والتمــاسُ مثلِ هذه المناســباتِ يُفيدُ في التَّعرُّف على دِقّــةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ وسُــمُوِّه، وغِناهُ بالعناصرِ الفنيّةِ والجَماليّة.

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٩١٨.



الفَصلُ الثَّالث



القسَمُ
بعوالِمِ الأرضِ ومَخلوقاتِها



تشـــملُ عوالمُ الأرض كلَّ ما فيهـــا من الجبال والبحـــارِ والأماكنِ والمخلوقاتِ وغيرِها، وما يتعاقَب في جوِّها من ظواهرِ الطَّبيعة كاللَّيل والنَّهارِ والرِّيـــاحِ والأعاصيرِ والغيومِ والأمطـــارِ وغيرِها. وهذه العوالمُ تدلّ على عظمـــة الله، وكمالِ قُدرته، لذلك أقســـمَ ببَعضهـــا في افتتاح السُّـــوَر، كاللَّيل والنَّهار والرِّياح، وبعضِ الأماكنِ المُقدَّسة، إضافةً إلى الحيوانِ والنَّبات.

القَسَمُ باللَّيلِ والنَّهارِ وأجزائِهما

اللَّيـــلُ والنَّهارُ من الآيـــاتِ الباهرة التي تدلُّ علـــى عظمةِ الخالقِ تباركَ وتَعالـــى، وعلى قُدرته وتَصرُّفه في هـــذا المَلَكوتِ الذي يَذخرُ بالأسرار والحِكَمِ والعَجائب، وهما من النَّواميسِ الكونيّةِ القريبةِ إلى الحِسِّ، التي ترتبـــطُ ارتباطًا وثيقًا بحياة النّاسِ ومَعاشِـــهم وأرزاقِهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

وقد وردَ القسمُ باللَّيلِ والنَّهار وأوقاتِهما في افتتاحِ أربعِ سُوَرٍ قرآنيّةٍ، هي الفَجر واللَّيل والضُّحى والعَصـــر. وفيما يلي عرضٌ لتلك المواضعِ، بحســـبِ ترتيبِها في المُصحفِ الشَّريف، مع دراســـةِ المُناسباتِ الدلاليّة

والفنيّة بين الألفاظ المُقسَم بها من جهة، ومضمون السُّوَر التي وردَت في افتتاحها من جهةٍ أخرى.

أولًا ـ القَسَمُ بالفَجر:

في الفَجر تبدأُ ظُلمةُ اللَّيلِ بالارتحال، ويبدأُ ضوءُ النَّهارِ بالانبثاق، فتَختلطُ بقايا الظُّلمةِ بطلائعِ النُّور، الذي يُداعبُ حِسَّ المَخلوقاتِ ويُوقِظُها، فتَنفضُ عن عيونِها الرُّقادَ، وتَستعدُّ للانطلاق في أرض الله الواسعة، وامتدادِ فضائِه الفَسيح، حالمةً بمَعاشِها وأرزاقِها، مُبتهِجةً بيومٍ جَديد، مُترقِّبةً شروقَ الشَّمس، متطلِّعةً بشوقٍ إلى ما يأتي به النَّهارُ من الرِّزقِ والسُّرور والجَمال.

وفي الفَجر يسودُ الصَّفاءُ في الآفاق، ويَعمُّ الهُدوءُ أرجاءَ البَسيطة، وتكونُ النَّفسُ الإنسانيّةُ في غايةِ الرّاحةِ والسَّكينة، والفَراغِ من مشاغلِ الدُّنيا، والشَّوقِ إلى العبادة والتَّسبيح، والتَّطلُّعِ إلى مناجاةِ الخالقِ تباركَ وتَعالى، تَستمدُّ منه الرَّحمةَ والحَنانَ والأُنسَ، وتسألُه الرِّضا والتَّوفيق.

وفي هذا الوقتِ تنطلقُ أصواتُ الدُّعاةِ، وتَصدحُ في السَّماء تَراتيلُ الأذانِ، ويتهيَّأُ المُؤمنُ لمَوعدِهِ المَعهودِ معَ الله تعالى، فيَقفُ في صلاتِه خاشِعًا، يَتلو كلامَ الله، ويتقلَّبُ على وحيِ الشَّوقِ بينَ الرُّكوعِ والسُّجود، ثم يأوي إلى الدُّعاءِ والتَّسبيح.

فالفَجرُ موعدٌ للقاءِ الله، والوقوفِ بينَ يديه، ومناجاتِه والتَّضرُّعِ إليه، موعدٌ للنّفسِ الإنسانيّةِ معَ السَّكينةِ والطّمأنينةِ والرَّحمة، موعدٌ تبرقُ فيه آمالُ الفُؤاد، وتنبعثُ فيه أشواقُ الرُّوحِ، ويَفوحُ فيه عبيرُ القُدسيّةِ، والتّجلّياتِ الرّبّانيّة.

وفي الفجرِ تتمزَّقُ أثوابُ الظُّلمةِ، وتتعانَقُ خيوطُ الضِّياءِ، فتحتجبُ مواكبُ النُّجومِ، مُؤذِنةً بشـروقِ الشَّـمسِ، وتدفُّقِ أمواجِ النَّهار، وظهورِ الخلائقِ في حُلَلِ الألوان.

حقًّا إنّه آيةٌ من آياتِ الله، التي تنطقُ بحكمتِه، وكمالِ قدرته، ولطافةِ تدبيرِه. فلا عجبَ أن يُقسِـمَ به، تَنويهًا بخَطره، وإرشـادًا إلى ما ينطوي عليه من الحِكَم والعَجائب.

وقد وردَ القَسمُ بالفَجر في افتتاحِ السُّوَرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ١ ـ ٥]. فالفَجرُ هو الوقتُ الذي يبدأُ فيه ظهورُ ضَوءِ الصَّباح[١]، وهو في الأصل مصدر فجَرَ يَفجُر، أي شَـقَّ، وسُمِّي به الوقتُ المعروفُ لأنّه يَفجُرُ ظُلمةَ اللَّيلِ أي يشـقُّها[٢]، وهو المقصودُ في الآية، وفق ما رجَّحَه جمهورُ المُفسِّرينَ، و«أل» فيه جنسيّةٌ لتعريف ماهِيّتِه، لدلالته على حقيقةِ الفَجر وعدمِ اختصاصِه بفجرِ يومٍ مُحدَّد[٣].

أمّا اللَّيالي العَشرُ فقد رجَّحَ عامّةُ المُفسِّـرينَ أنّها لَيالي ذي الحجّة، التي تُؤدَّى فيها مناسِكُ الحَجّ[٤]. وجاءت نكرةً من بينِ ما أُقسِمَ به لأنّها

---

(١) يُنظر: لسان العرب (فجر).

(٢) يُنظر: مفردات القرآن ص٦٢٥، والتبيان في إعراب القـرآن ١: ١٥٥، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيـز للفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمـد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٤: ١٧٥، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٢٥٧.

(٣) يُنظر: تفسير الآلوسي ١٥: ٣٣٥.

(٤) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن للسـيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريـة العامة للكتـاب، القاهـرة ١٩٧٤، ٤: ٥٩، وفتح البيان فـي مقاصد القرآن ١٥: ٢١٤.

مَخصوصةٌ بفضيلةٍ ليست لغَيرِها من اللَّيالي[١]. وأمّا «الشَّفع والوَتر» فالشَّفع: ما له زَوجٌ، والوَتر: الفَرد. وقد كثُرَت فيهما الآراءُ، بحيثُ أصبَحا أقربَ إلى عدمِ التَّحديد ووُضوحِ المُرادِ منهما[٢].

والذي يُمكنُ الاطمِئنانُ إليه من آراء المفسّرينَ أنّ المُرادَ بهما العَددُ، شَفعُه ووَترُه. ولعلّ المُرادَ الدَّقيقَ منهما هو الأيّامُ واللَّيالي، ففي تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ يتتابعُ الشَّفعُ والوَترُ، والسّياقُ يُقوّي ذلك لورودهما مع الفَجر واللَّيالي، وما يُحتّمُ ذلك من افتراضِ وجودِ مناسبةٍ بين ألفاظِ القَسم، وبينَها وبينَ مضمونِ السُّورةِ عامّةً، كما سيَظهرُ بعد قليل.

وقوله تعالى: «واللَّيلِ إذا يَسرِ» معناه: يَنقضي ويَمضي سائرًا في الظَّلام[٣]. وقيل: المعنى يُسرَى فيه أي يُسارُ في ظُلمتِه[٤]. والرَّأيُ الأوّلُ أرجحُ ـ والله أعلمُ ـ لأنّ فيه مناسبةً بينَ انبلاجِ ضوءِ الفَجرِ ومرورِ وقتِ النَّهار، وبينَ حُلولِ الظَّلامِ ومُرورِ وقتِ اللَّيل.

فالمُرادُ بالألفاظِ المَذكورةِ إذنْ جنسُها، دونَ تحديدِها بأوقاتٍ مَخصوصة، ما عدا اللَّياليَ العَشرَ فهي مخصوصةٌ بعَشرِ ذي الحجّة، أي إنّ اللهَ تعالى أقسمَ بالفجر والشَّفعِ والوَترِ واللَّيلِ الذي يَمرُّ وقتُه، باعتبارها تدلُّ على الجِنس، فـ«أل» فيها جنسيّةٌ لتعريفِ الماهيّة، وجاءَتِ اللَّيالي العَشرُ نكرةً، لأنها لو دخلَت عليها «أل» لكانَت عهديّةً، قال الزّمخشري: «فإن قلتَ: فهلا عُرِّفَت بلامِ العَهدِ، لأنّها ليالٍ معلومةٌ

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٤٦.

(٢) يُنظر في تلك الآراء التي زادت على الثلاثين: تفسير القرطبي ٢٠: ٤٠.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣١٥.

(٤) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٤٧.

مَعهودة؟ قلتُ: لو فعلَ ذلك لم تَستقلَّ بمعنى الفَضيلةِ الذي في التَّنكير، ولأنّ الأحســنَ أن تكونَ اللاماتُ متجانســةً، ليكون الــكلامُ أبعدَ من الألغازِ والتَّعمية»[٥].

أما عن المُناســبة بينَ ألفاظِ القَســم فقــد توضّحَ، فيما ســبقَ من آراءِ المُفسِّرينَ، أنّ القسمَ بالفَجرِ يُعبِّر عن ابتداءِ النَّهارِ ومُرورِ وَقتِه، ومُرورُ وقتِه يُســتفاد من المقابلةِ بين الفجر واللَّيلِ الذي يَســري، فكما أنّ اللَّيلَ يَسري فمُقابِلُه وهو النَّهارُ يمرُّ ويَمضي، والقسمُ باللَّيل جاء مُكمِّلًا للنَّهارِ الذي دلَّ عليه الفجرُ، ومجموعُهما يدلّ على تعاقبِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتتابُعِ الزَّمَن.

والشَّفعُ والوَترُ يســتوعبانِ عددَ اللَّيالي والأيّامِ وما يَحدثُ فيهما من الأقــدار والأرزاق وأمورِ الخَلقِ والتَّدبير الإلهــيِّ. وبينَ هذه الألفاظ نبَّهَ على فضيلة اللَّيالي العَشــرِ، التي تُؤدَّى فيها مناســكُ الحَجّ، «فإن الحجَّ والنُّسكَ عبوديّةٌ محضةٌ لله، وذلٌّ وخضوعٌ لعظمتِه، وذلك ضدُّ ما وَصفَ به عادًا وثمودَ وفرعونَ من العُتُوِّ والتَّكبُّرِ والتَّجبُّر، فإنّ النُّســكَ يتضمَّنُ غايةَ الخُضوعِ لله، وهؤلاءِ الأُمَمُ عتَوا وتكبَّروا عن أمر ربِّهم»[٦].

وأما مناســبةُ الألفاظِ المُقسَمِ بها لمضمونِ السُّــورةِ فتتجلَّى في أنّ مدارَ هذه الألفاظِ هو على الزَّمَن، الذي يتألَّفُ من النَّهار وأجزائِه، واللَّيلِ وأقســامِه، ثم يكونُ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، شَفعًا ووَترًا، امتدادُ الزَّمَنِ وما يَحدثُ فيه من الأقدارِ والأحكامِ والحــوادثِ والمُفاجآتِ والأرزاقِ وانقضاءِ الآجالِ وولادةِ الحَياةِ وظهورِ الآيــاتِ، وغيرِ ذلك من عجائبِ التَّدبيرِ الإلهيّ وحكمتِه العَظيمة.

---

(٥) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٤٦.

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص٢٨.

واللَّيالي العشـرُ هي جزءٌ من هذا الزَّمنِ المُتتابعِ، وفي ذِكرِها إشارةٌ إلى أنّ اللهَ تعالى، خالقَ الفَجرِ ومُسيِّرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، هو المُستحِقُّ وحدَه للألوهيّة والعِبادة.

وجوابُ القسمِ محذوفٌ على رأيِ جمهور المُفسِّرين[1]، وهذا يعني أنّ القسمَ يتناولُ مضمونَ السُّورةِ كلِّها، كما ظهرَ سابقًا في أكثرَ مِن مَوضع.

والسُّورةُ تبدأُ بعد القسمِ بتقرير هلاكِ عادٍ وثمودَ وآلِ فرعونَ، لأنهم عتَوا وتجبَّروا وأفسـدوا في الأرض، وذِكرُ هؤلاءِ الأقوامِ يُناسبُ اللَّيالي العَشـر التي يتوجَّهُ فيها المؤمنُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ في مُنتهى الخُشـوعِ والعبوديّةِ والإخلاص، كما ظهر سابقًا. يُضاف إلى ذلك أنّ هؤلاءِ الأقوامَ أهلكهمُ اللهُ بعذابٍ من عندِه أرسـلَه عليهم في أيّامٍ وليالٍ، بعضُها شفعٌ وبعضُهـا وَترٌ، قـال تعالـى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى في ثمـود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ [هـود: ٦٥ ـ ٦٧]، أمّا المُدّةُ التـي أهلكَ اللهُ تعالى فيهـا فرعونَ وقومَه فهي غيـرُ مذكورةٍ في القرآنِ الكريم، إلا أنّ بعضَ المُفسِّرينَ أشارَ إلى أنّ اللهَ تبارك وتعالى أمرَ موسـى عليه السلام، حينَ دنا هلاكُ فرعونَ، أن يَسريَ ببني إسـرائيلَ ليلًا، ثم

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٤٧، وتفسير القرطبي ٢٠: ٤٣.

أتبعَهم فرعونُ وجنودُه عندَ طلوعِ الشَّمسِ، ثم أُغرقُوا في نهارِ ذلكَ اليَومِ[1]، وهذه الأحداثُ تُناسبُ القسَمَ بالفَجر واللَّيلِ الذي يَسري والشَّفعِ والوَتر.

وتعرضُ السُّورةُ بعدَ هلاكِ عادٍ وثمودَ وفرعونَ ما يقولُه الإنسانُ حين يَبسطُ الله تعالى له الرِّزقَ والنَّعيم، وما يقولُه أيضًا حينَ يُضيِّقُ الله عليه الرِّزقَ، ثم يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ أفعالِ الإنسانِ التي تكونُ سببًا لتَضييقِ الرِّزقِ، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠]، ومن المَعلومِ أنّ نصيبَ الإنسانِ من الأرزاقِ إنّما يأتيه في تقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ وامتدادِ الزَّمن، شَفعِه ووَترِه.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى رصدِ مَشهدِ القيامةِ، وما يَتبعُها من الحشرِ والحسابِ والنَّعيمِ والعذاب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٦]، فيومُ القيامةِ وَترٌ، وبه يُختَتَمُ الزَّمنُ، ويتناثرُ النِّظامُ الكونيُّ الذي تبدو دِقّتُه وعظمتُه في تتابُعِ الزَّمنِ وتعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، ويَظهرُ فيه الحقُّ كظهورِ الضَّوءِ عندَ انبلاجِ الفجرِ من رُكامِ الظُّلمةِ والتَّخبُّط.

---

(١) يُنظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ١: ١٩٢، وتفسير البغوي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٠هـ، ١: ١١٤.

وتنتهي السُّورةُ بمخاطبةِ النَّفسِ المُطمئِنّةِ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، فهذه النَّفسُ يدعوها اللهُ تعالى أن تعودَ إلى مُستقرِّها في الجنّة، بعد رحلتِها في الأرض، آمنةً من كلِّ خوف، مُطمئنةً بأن الله يرعاها ويُفيضُ عليها كلَّ الوُدِّ والرَّحمة.

هذه النَّفسُ كانت آمنةً مِن تبدُّلِ الأحوالِ مع تقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهار، وأصبحَت آمنةً من العذابِ والشَّقاءِ بعد أن عادَت إلى ربِّها مُكلَّلةً بعَطفِه ورضوانِه.

أمّا المناسبةُ الفنّيّةُ فتتجلّى في أنّ ألفاظَ القسمِ يُعبِّرُ فيها الفجرُ عن الانبثاقِ والظُّهورِ المُفاجئ، وتَرمزُ فيها اللَّيالي العَشرُ إلى امتدادِ الزَّمَن، ويُشيرُ سَريانُ اللَّيلِ إلى امتدادِ الزَّمنِ أيضًا وإلى ما يَخفَى عن الحِسّ من المَشاعر والأعمال والأحداث، كما يدلُّ الشفعُ والوَترُ على العَدِّ والإحصاءِ والتَّتابُع.

وأحداثُ السُّورةِ عُرِضَت بأسلوبٍ يُحاكي الإيحاءاتِ السّابقة، ويُطابقُ مَدلولاتِها، فممّا يدلُّ على الانبثاق، والظُّهورِ المُفاجِئ، ويُناسبُ القسمَ بالفَجر، تصويرُ العَذابِ على صورة لَسعةِ السَّوط في قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الفجر: ١٣]. ومن ذلك أخذُ الكافرينَ وإهلاكُهم بعذابٍ مُفاجِئ يترصَّدُهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ١٤].

ومما يدلُّ على الانبثاق والظُّهورِ المُفاجِئ، وتَوالي الأشياءِ وتتابُعِ الأحداثِ، والإحصاءِ والعَدِّ، قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣]. فقد ذكرَ الزّمخشريُّ وجمهورُ المُفسِّرينَ أنّ «دَكًّا دَكًّا» مصدرانِ في موضع الحال، والتقدير: مكرَّرًا عليها الدَّكُّ كـ «عَلَّمتُه الحِسابَ بابًا بابًا»، وقيل: الأوّلُ مفعولٌ مُطلقٌ والثّاني توكيدٌ لفظيٌّ. أما «صَفًّا صَفًّا» فهما مصدران أيضًا في موضع الحال كالدَّك، والتقدير: مُصطفِّينَ أو ذوي صفوفٍ كثيرة. وقيل الأولُ حالٌ، والثاني معطوفٌ عليه بحرف عطفٍ محذوف، والتقدير: صَفًّا فصَفًّا[1]. فوُقوع الدكِّ حدثٌ متكرِّرٌ، ومَجيءُ الملائكةِ واصطفافُها صفًّا بعد صفٍّ يدلُّ على التّتابُع والتّوالي، وذلك يُناسبُ اللّياليَ العشرَ وسريانَ اللّيلِ والإحصاءَ والعَدَّ. أمّا حدوثُ الدَّكِّ ومجيءُ الملائكةِ وبروزُ جهنَّمَ، واتِّعاظُ الإنسانِ وصحوتُه بعد مُعاينةِ أهوالِ الحَشرِ، فكلُّها أحداثٌ مُفاجِئةٌ تُناسِبُ انبثاقَ الفجرِ وولادتَه.

ممّا سبقَ يتَّضحُ أنّ ألفاظَ القسمِ في افتتاحِ السُّورةِ كانت مُتناسِبةً فيما بينَها، كما كانت مُناسِبةً أيضًا لمضمونِ السُّورةِ وأحداثِها من النَّواحِي الدّلاليّةِ والفنيّة.

ثانيًا ـ القَسمُ باللّيلِ والنَّهار:

من المواضع التي وردَ فيها القسمُ باللّيل والنّهار وأوقاتِهما، في افتتاح السُّوَر، القسمُ باللّيلِ والنّهار، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ١ ـ ٤]، ويَغشَى: يُغطِّي ويَستُر، وهو فعلٌ مُتعدٍّ حُذِفَ مَفعولُه اختصارًا، والتقدير: يُغطِّي

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٥١، والدر المصون ١٠: ٧٩١، والمفصل في تفسير الجلالين ص ٢١١٩.

ما بينَ السَّماء والأرضِ بظلامِه. وتَجلَّى: انكشَفَ وظهرَ. و«ما» في قوله تعالى: (وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثَى) مصدريةٌ على رأيِ معظمِ المفسِّرينَ، فيكونُ قد أقسمَ باللَّيلِ حينَ يغشَى الكونَ بظلمتِه، وبالنَّهارِ حين يَظهرُ ويَنكشفُ، وبِخَلقِ الإنسان ذكرًا وأنثى، والرّاجحُ أنّ المُرادَ بالذَّكرِ والأنثى كلُّ ذكرٍ وأنثى من البَشَر، فتكونُ «أل» فيهما جنسيّةً لاستغراقِ أفرادِ الجِنسِ الذي دخلَت عليه[1].

وجوابُ القسمِ مذكورٌ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، أي إنّ أعمالَكُم لَمُختلِفةٌ مُتنوِّعة، منها ما هو شرٌّ وضلالٌ ومنها ما هو خيرٌ وهُدًى[2].

ومُناسبةُ ألفاظِ القسمِ لجَوابِه تتجلَّى في أنّ المُرادَ بالذَّكَرِ والأنثى أولًا تَخصيصُهما بالإنسان، وليس عمومَ دلالتِهما على كلّ حيوان، لأن السَّعيَ المُشارَ إليه في جواب القسمِ يُنسَبُ إلى العُقلاءِ المُكلَّفينَ، دونَ غيرِهم من المَخلوقات. واللَّيلُ والنَّهارُ وخَلقُ الإنسانِ من الآياتِ العظيمةِ التي تدلُّ على عظمةِ الله تعالى وكمالِ قدرته، واللَّيلُ والنَّهارُ هما ميدانُ السَّعيِ والكَسبِ والعملِ للإنسان سَواءٌ كانَ عملُه في مجال الخيرِ والهُدى أم في مَهاوي الشَّرِّ والضَّلال.

فالإنسانُ إنّما يَسعى ويعملُ ويكسبُ في وضوحِ النَّهار أو تحتَ أستارِ اللَّيل، وجوابُ القَسمِ يدلُّ على تنوُّعِ أعمالِ النّاسِ واختلافِها. واختلافُ الأعمالِ يُناسبُه اختلافُ اللَّيل والنَّهار، واختلافُ الذَّكَرِ

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص٦٠٧، وتفسير القرطبي ٢٠: ٨٠، والبحر المحيط ١٠: ٤٩٢، وتفسير الجلالين ص٨١٠.

(٢) يُنظر: اللباب في علوم الكتاب ٢٠: ٣٧٠.

والأُنثى. يُضاف إلى ذلـك أنّ اللَّيلَ رمزٌ للتَّخبُّطِ والضَّـلال، وأنّ النَّهارَ رمزٌ لوضوحِ المَقاصدِ والهُدى، وهذه الرّمزيّةُ تَسـتوفي أصنافَ الأعمالِ التي يقومُ بها النّاسُ في اللَّيلِ والنَّهار[1].

أمّا مناسبةُ ألفاظِ القسمِ لمضمونِ السُّورةِ فتتمثَّلُ في أنّ السُّورةَ كلَّها تدور حولَ تصويرِ فريقَينِ من النّاسِ تميَّـزَ أحدُهما عن الآخر باختلافِ الأعمالِ ومقاصدِها، ففريقٌ التزمَ الإيمانَ وسارَ في طريقِ الخيرِ والهُدى فسَـعيُه محمودٌ وجزاؤُه مشـكورٌ، وفريقٌ مضَى في طريقِ الكُفرِ والعِناد والشَّرِّ والضَّلال فسعيُه خائبٌ، ومصيرُه مَشؤومٌ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل: ٥ ـ ١١].

وفي هذا السِّـياقِ، من النّاحيـةِ الفنيّة، مُقابَلةٌ بيـن طرفينِ أحدُهُما نقيضُ الثّاني، من حيثُ المَعنى، إذ جعلَ الإعطاءَ والتُّقى والتَّصديقَ التي تشتركُ في التَّيسـير، تُقابلُ البُخلَ والاستغناءَ والتَّكذيبَ التي تشتركُ في التَّعسير، فأوردَ كلَّ لفظٍ في الطَّرفِ الأوّلِ بإزاءِ نقيضِه في الطَّرفِ الثّاني، كما جعلَ الشَّرطَ الجامعَ للأمورِ في الطَّرفِ الأوَّلِ، وهو التَّيسيرُ، مناقضًا أيضًا للشَّرطِ الجامعِ لنقائضِها في الطَّرفِ الثّاني، وهو التَّعسير[2].

والمُقابَلةُ هي: إيرادُ الكلامِ، ثم مُقابَلتُه بمثلِه في المعنى واللَّفظِ على جهةِ المُوافقةِ أو المُخالَفـة[3]. والفرقُ بينها وبين الطِّبـاقِ من وَجهَين:

---

(١) يُنظر في هذا التوجيه: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٧٨.

(٢) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٣) يُنظر: كتاب الصناعتيـن ص٣٣٧، ومفتاح العلـوم للسـكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م، ص ٤٢٤.

«الأوّلُ: أنّ الطِّباقَ لا يكونُ إلا بينَ الضِّدّين غالبًا، والمُقابَلة تكون لأكثرَ من ذلك غالبًا. والثّاني: لا يكونُ الطِّباقُ إلا بالأضدادِ، والمُقابَلةُ بالأضدادِ وغيرِها... وهي ثلاثةٌ: نَظِيرِيٌّ، ونَقِيضيٌّ، وخِلافيٌّ»[1].

ثم تنتقلُ السُّورةُ من الحديث عن اختلافِ الأعمالِ في الدُّنيا، وانقسامِ النّاسِ في فريقَين، إلى الحديثِ عن اختلافِ الجَزاءِ الذي يَنتظرُ كلَّ فريقٍ في الآخرة، وذلك بأسلوب المُقابَلةِ أيضًا، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١]. والأشقَى والأتقَى: بمعنى الشَّقِيّ والتَّقِيّ، أي إنّ كلًّا منهما اسمُ تفضيلٍ عُبِّر به عن الصِّفة المُشبَّهة للمبالغة، قال الزمخشري: «الآيةُ واردةٌ في المُوازنة بينَ حالتَي عظيمٍ من المُشركينَ

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٥٨. ويُنظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢: ١٦٢٠. ومن أمثلة النوع النظيري قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالسنة والنوم كلاهما من باب الرّقاد المقابَل باليقظة. ومن أمثلة النوع النقيضي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠]، فقد قابل بين إسرار القول والجهر به، وقابل بين «مُستَخفٍ بالليل» و«سارب بالنهار»، فجُعل بإزاء كل لفظ في أحد طرفي المقابلة ما يُناقضه في الطرف الآخر. أما المقابلة الخلافية ففيها لا تكون المتقابلات متضادّة ولا متناظرة، وإنما تكون مُتخالفة فحسب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، فقد جعل شُكر النعمة مُقابلًا للكُفر المراد به الشّرك، والزيادة والبركة في مُقابَلة شدة العذاب، وهذه المتقابلات ليس بينها تضادّ ولا تناظر، فنقيض شُكر النعمة كُفرانها وجحودها، ونقيض الكُفر المراد به الشّرك هو التوحيد، أما نقيض الزيادة والبركة فالإنقاص والمَحق، ونقيض شدة العذاب الرحمة. فهذه المقابلة لا توجد بين أجزائها علاقة تضادّ أو تناظر، وإنما علاقة تخالف أو مخالفة فحسب. يُنظر: البحر المحيط ٦: ٤١١، والتحرير والتنوير ١٣: ١٩٣.

وعظيمٍ من المُؤمنينَ، فأُريد أن يُبالَغَ في صِفتَيهِمـا المُتناقِضتَينِ، فقيل: الأشـقَى، وجُعِل مُختصًّا بالصَّلـى، كأنّ النّارَ لم تُخلَـقْ إلا لَهُ. وقيل: الأتقَى، وجُعِل مختصًّا بالنَّجاةِ، كأنَّ الجنّةَ لـم تُخلَقْ إلا لَهُ. وقيل: هما أبو جَهلٍ أو أميّةُ بنُ خَلَفٍ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه»[1].

فمَضمونُ السُّورةِ يتركّزُ حولَ مسألتَينِ، الأولى اختلافُ أعمالِ النّاسِ في الدُّنيا، وافتراقُهم إلـى فريقَينِ، والثّانيةُ اختـلافُ الجَزاءِ في الآخرة بحسبِ أعمالِ كلِّ فَريق.

والجَديرُ بالمُلاحظةِ من النّاحيةِ الأُسـلوبيّةِ والفنيّةِ هو ذلك التَّرتيبُ والتَّوازنُ في العَرضِ فيما بينَ المَسـألتَينِ، ففي مسألة اختلافِ الأعمالِ تحدَّثَ أولًا عن فريقِ الإيمانِ، ثم انتقلَ إلـى فريقِ الكُفرِ وزادَ فيه قولَه: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١]. وهذا يدلّ على أنّ أعمالَ هذا الفريقِ في الدُّنيا كثيرةُ الاختـلافِ والتَّناقُض، فاحتاجَت إلى التَّفصيل، أما فريقُ الإيمانِ فطريقُه واضـحٌ، وأعمالُه خالصةٌ من الشَّـوبِ والاختِلاط، فلم يَحتجْ إلى التَّفصيل.

أمّا في مسـألةِ الجَزاءِ فقـد افتتَحَها بقولـه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ١٤]، ثم قـدَّم ذِكرَ فريقِ النّارِ، واكتفَى فـي الحديثِ عنه بقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليـل: ١٥ ـ ١٦]، علـى حيـنَ أخَّـرَ الحديثَ عن فريقِ الجنّةِ، وزادَ في العَرضِ والتَّفصيل، فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١]. وهذا الأسـلوبُ يُوحي بأنّ فريقَ

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٦٤.

النّارِ يومَ القيامةِ أمرُهُ مَحسـومٌ، وجزاؤه مَحتومٌ، ولا يسـتحقُّ أن يُلتَفَتَ إليه، أما فريقُ الجنّةِ فثوابُه عظيـمٌ، وجزاؤه أصنافٌ كثيرةٌ وأنواعٌ مُختلِفةٌ من النَّعيم.

أي إنّ اختلافَ أعمالِ الكُفّارِ في الدُّنيـا يُقابِلُه نوعٌ واحدٌ من الجَزاء وهو النّار. أمّـا صفاءُ أعمالِ المُؤمنينَ في الدُّنيـا، والتقاؤُها على جوهَرِ التَّوحيدِ وحقيقتِـه، فيُقابِلُه اختلافٌ وتنـوُّعٌ في أصنـافِ النَّعيمِ وأنواعِ الجَزاء. وهذا كلُّهُ من مَزايا التَّعبيرِ القُرآنِيِّ وسُـمُوِّه في المَقاصدِ الدَّلاليّةِ والنَّواحِي الفنيّةِ والجَماليّة.

يتّضحُ ممّا تقدَّمَ أنّ ألفاظَ القسمِ في افتتاحِ السُّورةِ كانَ لها مناسباتٌ دلاليّةٌ واضحةٌ، ومقاصدُ فنيّـةٌ لَطيفة. وهذا بعضٌ ممّا يتّسِـمُ به التَّعبيرُ القُرآنيُّ من الرِّفعةِ والسُّموِّ والإعجازِ البَلاغِيّ.

ثالثًا ـ القَسمُ بالضُّحَى واللَّيل:

ومن المواضعِ التي وردَ فيها القسـمُ باللَّيلِ والنَّهـارِ وأوقاتِهما، في افتتاحِ السُّوَرِ، القسمُ بالضُّحَى واللَّيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ١ ـ ٥].

وسُـورةُ الضُّحى نزلَت تَطميـنًـا لقلبِ النَّبيّ ﷺ، بعـد فُتورِ الوَحيِ وانقطاعِه مدةً وشَماتةِ المُشركينَ به، وما لاقاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب ذلك من هموم واصبةٍ وأحزانٍ عظيمة، فجاءَتِ السُّـورةُ تَطمينًا له بـأنّ اللهَ ما تركَهُ وما تَخلّى عنه، وسيبقَى يُؤنِسُه ويَرعاهُ في الدُّنيا والآخرة[1].

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٣١: ١٩١.

وسَجا يَسجُو: سَكَن. والضُّحَى في الأصل: انبِساطُ الشَّمسِ وامتدادُ النَّهار، وسُمِّي الوَقتُ به[١]. وفي وقتِ الضُّحى يكونُ النَّهارُ في غايةِ الوُضوحِ والاعتِدال، وتَتلقّاهُ النَّفسُ الإنسانيّةُ بالأملِ والشَّوقِ لما يأتي به النَّهارُ من الأرزاقِ والمَنافع.

فالسُّورةُ افتُتِحَت بالقَسم بالضُّحَى، وسُكونِ اللَّيلِ، ثم جاءَ جوابُ القَسمِ وهو قولُه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، أي ما فارقَكَ ربُّكَ وما أبغَضَكَ، كما يدَّعي المُشركونَ. والتَّوديعُ في الأصل: هو التَّحيّةُ التي يُلقيها المُسافرُ على أهلِه وذَويه، واستُعيرَ هنا للمُفارَقة[٢].

والمُناسبة بين ألفاظِ القَسمِ وجَوابِه تتمثَّلُ في أنّ عدمَ التَّوديعِ والقِلَى يُناسبُهُما الضُّحى الذي يُوحِي بالطُّمأنينةِ والأملِ والخَيرِ وإقبالِ الأمورِ، ويُناسبُهما أيضًا اللَّيلُ السّاجِي أي الهادئُ، الذي كان النَّبيُّ ﷺ يستأنِسُ فيه بمُناجاةِ ربِّه عزَّ وجلَّ، والقيامِ بين يدَيهِ خاشِعًا مُتضرِّعًا، مُستأنِسًا بعَطفِهِ وحَنانِه ورحمتِه ووَحيِه. و«اللَّيلُ السّاجِي هو الذي يَرِقُّ ويَسكُنُ ويَصفو، وتَغشاهُ سحابةٌ رقيقةٌ من الشَّجَى الشَّفيف، والتأمُّلِ الوَديع، لا اللَّيلُ على إطلاقِه بوَحشتِه وظَلامِه»[٣].

وذهب بعضُ العلماءِ إلى أنّ المُناسَبةَ تتجلّى في أنّ الضُّحَى والإشراقَ يَرمُزُ إلى نزولِ الوَحيِ ومُداوَمتِه، واللَّيلَ يَرمُزُ إلى فُتورِه وانقطاعِه. قال السُّيوطِيّ: «وتأمَّلْ مُطابَقةَ هذا القَسمِ وهو نورُ الضُّحَى الذي يُوافِي بعدَ ظلامِ اللَّيلِ، المُقسَمَ عليه وهو نورُ الوَحيِ الذي وافاهُ

---

(١) مفردات القرآن ص٥٠٢.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٩٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦: ٣٩٢٦.

بعدَ احتِباسِه عنه، حتى قال أعداؤُه: وَدَّعَ محمدًا رَبُّه. فأقسمَ بضوءِ النَّهارِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ على ضوءِ الوَحيِ ونُورِه بعدَ ظُلمةِ احتِباسِه واحتِجابِه»[1].

وهذا الرأيُ جديرٌ بالأخذِ به، ولكنَّه ليسَ بَديلًا عن الرّأيِ الأوَّل، بل يُكمِلُه ويُتَمِّمُه، فيكونُ المفهومُ العامُّ أنّه أقسمَ بالضُّحَى لدلالتِه على إقبالِ الأُمور، والتَّفاؤُلِ بما يأتي به النَّهارُ منَ الخَير، وأقسمَ باللَّيلِ السّاجِي الذي كان النبيُّ ﷺ يَجِدُ فيه لذّةَ القِيامِ وحَلاوةَ المُناجاة.

ومن جهةٍ أُخرى يُنظَرُ إلى اللَّيلِ السّاجِي السّاكِنِ على أنَّه يُعبِّرُ عن امتدادِ اللَّيلِ وطولِه بالنِّسبةِ إلى مَن يَترقَّبُ الصَّباحَ، وما يَجِدُه مثلُ هذا المُترقِّبِ من إحساسٍ بالوَحشةِ والمُعاناةِ من طولِ الانتِظار، وهذا ما كان يَحصلُ مع النبيِّ ﷺ حينَ انقطعَ عنه الوَحيُ، إذ كانَ في غايةِ الضِّيقِ والحَرجِ والهمِّ، وهو يَترقَّبُ عودتَه إليه، ويأمُلُ أن يَجبُرَ اللهُ فؤادَه، وأن يَرحَمَ حُزنَه وأشواقَه.

وما أصعبَ أن يكونَ اللَّيلُ مَوعدًا للقاءِ اللهِ، والتَّنعُّمِ بجَلالِ أنواره، والتَّلذُّذِ بأُنسِه ومُناجاتِه، والسُّرورِ باستقبالِ وَحيِه، وتَلقِّي قرآنِه، ثم يتحوَّلُ فجأةً إلى ظُلمةٍ مُوحِشة، خاليةٍ من الأُنسِ والعَطفِ، تَرتَعُ في سوادِها الهُمومُ، وتَشكو الحَيرةَ فيها أسرابُ النُّجوم، والفِكرُ مُشتَّتٌ، والقلبُ مُنصدِعٌ، والرُّوحُ تائهةٌ في أوديةِ اليأسِ، والنَّفسُ تنثُرُ أملَها على نَسَماتٍ تَعبُرُ إلى المَجهول!

حقًّا إنّها غايةُ الحُزنِ والألم، ومُنتَهى الحَيرة والمَلَل، فلا عجبَ لِمَن يُعاني مثلَ هذا اللَّيلِ أن يجدَ في الفَجرِ رسولَ خلاصٍ، وأن يرَى في الصَّباحِ مَوئِلَ نَجاةٍ، وأن يتَّخِذَ من أشعّةِ الضُّحَى شَرابًا لقلبِه المُتعطِّشِ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤: ٥٩.

إلى النُّورِ! فكيفَ إذا كانَ الفَجـرُ الآتِي هو المُرتَقَبُ، والصُّبحُ القادِمُ هو المُنتظَرُ، والضُّحَى المُتهادِي هو المُرتجَى؟

وتَبدو مناسبةُ القسمِ لمضمونِ السُّـورة في أنّ مَضمونَها يدورُ حولَ أمرَيـنِ، الأوّلُ تذكيرُ النبيِّ ﷺ بما أنعمَ اللهُ به عليـه من الإيواءِ والهِدايةِ والإغناء، والثّانِي تَوجيهُهُ إلـى الاقتِداءِ برَبِّهِ عزَّ وجـلَّ، فيما أكرَمَهُ به، فيكونُ رَحيمًـا باليَتامَى، جابرًا قلوبَ ذَوي الحاجـة، صَبورًا على دعوةِ النّاسِ إلى الهُدى والإيمان.

والأمرُ الأوَّلُ يَبدأُ بذِكـرِ العِنايةِ الإلهيّةِ بالنَّبيِّ ﷺ وتَصبيرِه، وتَبشـيرِه بمَنزلتِه العَظيمة في الآخرة، ووَعدِه بأن يُعطِيَه ربُّه حتى يُرضِيَه، قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥].

ثم ينتقلُ السِّياقُ إلى ذِكرِ ما اختصَّه به من الإيواءِ والعَطفِ والرَّحمةِ، بعدَ اليُتـمِ والضَّياعِ، وما أنعمَ به عليه من الهُدَى والإيمانِ والاسـتِقامة، بعدَ الضَّلالِ والحَيرة، وما تفضَّلَ به عليه من الرِّزقِ والغِنى والجاه، بعد الفَقـرِ والحاجة، قـال تعالـى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨].

ثم تنتقلُ السُّـورةُ إلى تَوجيهِ النَّبـيِّ ﷺ، كما تقـدَّمَ، إلى أن يكونَ رَحيمًا باليَتامَى، عَطوفًا على الفُقراء، حَريصًا على هدايةِ النّاسِ إلى الحَقِّ والعَدل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحـى: ٩ ـ ١١]. وهذا التَّوجيهُ هو ثمـرةُ التَّذكيرِ المُتقدِّمِ، فاللهُ تَعالـى ذكَّرَ نبيَّه بمـا أفاضَهُ عليه، مِـنَ الرَّحمةِ والهِدايـةِ واللُّطفِ والعِنايةِ، ليَقتدِيَ به في تعامُلِه معَ النّاسِ، فلا يَتوانَى أو يَتثاقَلَ في نَشـرِ الهُدى بينَهم، ولا يُعامِلَهم إلا بمُنتهَى الرَّحمةِ والعَطفِ والمَودّة.

وهذا كلُّهُ يُناسِبُ القَسَمَ بالضُّحَى وإشراقِ النُّورِ، واللَّيلِ السّاجِي الهادِئِ، لأنّ كلَيهِما يَبعثُ في النَّفسِ الرّاحةَ والسُّرورَ، ويُشعرُها بالأملِ والفَرحِ بقُربِها من الله تعالى.

أمّا المُناسَبةُ الفنيّةُ بين ألفاظِ القَسمِ ومَضمونِ السُّورة فتتجلَّى في أنّ القسمَ بالضُّحى الذي يأتي بعدَ اللَّيلِ السّاجِي، يُمثِّلُ انبِثاقَ ضَوءٍ مُرتَجًى يُزيلُ ظُلمةَ اللَّيلِ الطَّويل، أو إشراقةَ أملٍ تَشفي جِراحَ اليأسِ، أو عبيرَ فرحٍ يُنسِي لَسعَ المَصائبِ والهُموم، أو وُضوحَ طريقٍ يُنقِذُ من الحَيرة والتَّخبُّطِ، أو نهايةَ رحلةٍ يَمحو سُرورُها مَشاقّ السَّفَرِ والرَّحيل.

وكذا جاء مضمونُ السُّورة، إذ عُرِضَ بأسلوبٍ يَجمعُ بينَ أمرينِ: أوَّلُهُما حزنٌ طويلٌ، وثانِيهِما خاتمةٌ فيها فرحٌ وسُرورٌ، فنَعيمُ الآخرة يُنسي شَقاءَ الدُّنيا، وإعطاءُ النبيِّ حتى يَرضَى يَمحو ألمَ اليأسِ والمُعاناة، قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥].

وبالأسلوبِ ذاتِه جاءَ تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ بما أفاضَ اللهُ عليه من الإيواءِ والهِدايةِ والغِنى، بعدَ اليُتمِ والضَّلالِ والفَقر، علمًا أنّ النِّعمةَ المَسبوقةَ بالحاجةِ يكونُ بُلوغُها والحصولُ عليها في غايةِ الفَرحِ والسُّرورِ، فلَذّةُ الشَّرابِ تَفوقُ نَعيمَ الدُّنيا إن لامَسَت عَطشًا، ومُتعةُ الطَّعامِ لا تُدانيها مُتعةٌ إن صادَفَت جُوعًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨].

وثمّةَ في السُّورةِ مناسبةٌ إيقاعيّةٌ تتجلَّى في أنّ جوابَ القَسمِ وما عُطِف عليه ثلاثُ آياتٍ، كما أنّ تذكيرَ النبيِّ ﷺ بنِعَم اللهِ عليه استغرقَ ثلاثَ آياتٍ أيضًا، ثم جاءَ ما أمرَ اللهُ به نبيَّه من الإحسانِ إلى اليَتامى

والسّائلينَ ونَشرِ الدَّعوةِ في ثلاثِ آياتٍ، ويُقابل هذا التوازنَ في عددِ آياتِ كلِّ غرضٍ مَجيءُ القسمِ بالضُّحى واللَّيل مع صفتِه على ثلاثِ كلماتٍ.

يُضافُ إلى ذلك أنّ مَجيءَ الألفِ في خِتامِ الفَواصِلِ له دلالةٌ تُعبِّرُ عن الانفتاح والامتدادِ المُلائمِ للمَعاني المَقصودة، فهي في لفظِ «الضُّحى» تدلُّ على اتّساعِ الآفاقِ وإشراقها بالنُّور، وامتدادِ النَّهار، وفي لفظِ «سَجَى» تُعبِّر عن امتداد الليل وسكونه.

ودلَّت على الامتداد أيضًا في جواب القَسم وما عُطِفَ عليه، في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: ٣ ـ ٥]، فهي في «قَلَى» أي أبغَضَ المَنفِيِّ تدلُّ على امتدادِ النَّفي مع امتدادِ البُغضِ، فالبُغضُ هَجرٌ طويلٌ، ولكنَّ حدوثَه مُستحيل لأنه منفيٌّ، وفي «الأُولى» يدلُّ على امتدادِ الحَياةِ الدُّنيا، فيكون المعنى أنّ الأخرةَ خيرٌ من الدُّنيا مهما امتدَّ زمانُها واتَّسَع نَعيمُها، وفي «تَرضَى» تدلُّ على امتدادِ السُّرورِ والرِّضا والعَطاء.

وفي سياقِ تذكيرِ النبيِّ بما أنعَمَ اللهُ عليه جاءَت الكلماتُ التي احتوَتِ الألفَ وامتدادَها في مقابلِ كلماتٍ مختومةٍ بالتَّنوينِ تُعبِّرُ عن حالاتٍ مُنتَهيةٍ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]، فاليُتمُ والضَّلالُ والفَقرُ حالاتٌ مُنقطعةٌ منتهيةٌ، والإيواءُ والهُدى والغِنى حالاتٌ مُمتدّةٌ غيرُ مُنقطِعة.

أمّا تَوجيهُ النبيِّ ﷺ إلى الرَّحمةِ بالنّاس والإحسانِ إليهم ونَشرِ الدّعوة، في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ٩ ـ ١١]، فقد انتهَتِ الفاصِلتانِ الأُولى والثّانية

في «تَقهَرْ وتَنهَر» بالهاءِ والرّاء، والأُولى حَلقيّـةٌ تُعبّرُ عن مُعاناةِ اليَتامي والسّـائِلينَ، على حين أنّ الرّاءَ تتّصِفُ بالتّكرار، الذي يُفيدُ بأنّ مصادفةَ النبيِّ لليَتامَى والسّـائلينَ سـوف تتكرّر، ومطلوبٌ منه تَكرارُ الإحسانِ والصَّبرِ في كلِّ مـرّةٍ. أمّا انتهـاءُ الفاصلـةِ الثّالثةِ بالثّـاء، التي تتّصفُ بالانتشار، ففيه مُحاكاةٌ لنَشرِ الدعوةِ بينَ النّاسِ.

مما سبق يتّضِحُ أنّ ثمّةَ مُناسـباتٍ دلاليّةً وفنيّةً بينَ ألفاظِ القسمِ في افتتاحِ سـورةِ الضُّحى، وبينَ مَضمونِها، وهذا يدلُّ علـى بلاغةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ، وسُمُوِّه وإعجازِه.

رابعًا ـ القسَم بوَقتِ العَصر:

ومن المواضعِ التي وردَ فيها القسـمُ باللّيلِ والنَّهارِ وأوقاتِهما، في افتتاحِ السُّـوَرِ، القسـمُ بوقتِ العَصرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

والعَصرُ: قيل هو الصّلاةُ المَعروفةُ، وقد أقسمَ بها لفَضلِها بدليل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقيل: هو العَشِيّ، وقد أقسـمَ به كما أقسـمَ بالضُّحَى لما فيهما جميعًا من دلائلِ القُـدرة. وقيل هو الزّمانُ عامّةً وأقسـمَ بـه لِما في مُـرورِه من أصنافِ العَجائب[١]. وعامّةُ المُفسّـرينَ لم يَخرجُوا في تأويلِهم وتَفسـيرِهم عن الوُجوهِ الثّلاثةِ السّابقة[٢].

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٩٤.

(٢) يُنظر: تفسير القرطبي ٢٠: ١٧٨، تفسير الجلالين ص ٨٢٠.

أمّا جوابُ القَسَمِ فهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إلى آخرِ السُّورة[1]. والمرادُ بالإنسانِ جنسُه، فتكونُ اللامُ لاستغراقِ أفرادِه. والخُسر: الغَبْن والخُسران. ومضمون هذا الجواب مؤكَّدٌ بالقسم وبـ«إنّ» وباللام الواقعةِ في خبرها، وهذا يدلّ على أنّ المُقسَمَ عليه خطيرٌ وذو أهمّيّةٍ خاصّةٍ، ويُفيدُ التَّهويلَ والإنذارَ بما يُحيطُ بالنّاسِ ويكادُ يَدهَمُهُم[2].

إنّ التّأمُّلَ في جوابِ القَسَمِ يَجعلُنا نُعيدُ النَّظرَ في أقوالِ المُفسِّرينَ التي تَناولَتِ المُرادَ باللَّفظِ المُقسَمِ به وهو «العصر»، فالخُسرانُ لا يُلائمُه أن يكونَ المُرادُ بالعَصرِ الصَّلاةَ المَعروفةَ، لأنَّها في غايةِ الرِّبحِ والثَّواب. كما أنّ تفسيرَ العَصرِ بالزَّمانِ عامّةً أو زمانِ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِه خاصّةً لا يُناسِبُ الخُسرانَ أيضًا، فالزَّمانُ يَحوي أخلاطَ النّاسِ وفيهم الخاسرُ والرّابح.

أما تفسيرُ العَصرِ بالعَشِيِّ، وما هو قريبٌ منه، مُتمثِّلًا في السّاعاتِ الأخيرةِ من النَّهار، فهو الذي يُناسِبُ الخُسرانَ تمامًا. جاء في مفاتيحِ الغَيب للرّازي:

«إنّما أقسمَ بهذا الوقتِ تَنبيهًا على أنّ الأسواقَ قد دَنا وقتُ انقطاعِها وانتهاءِ التِّجارةِ والكسبِ فيها. فإذا لم تَكتسِبْ ودخلتَ الدّارَ، وطافَ العِيالُ عليك يسألُكَ كلُّ أحدٍ ما هو حَقُّه، فحِينَئذٍ تَخجَلُ فتكونُ من الخاسرينَ... فكما أقسمَ في حقِّ الرّابحِ بالضُّحَى، فكذا أقسمَ في حقِّ الخاسرِ بالعَصر. وذلك لأنّه أقسمَ بالضُّحى في حقِّ الرِّبح، وبشَّرَ الرَّسولَ أنّ أمرَه إلى الإقبال، وههُنا في حقِّ الخاسرِ توعَّدَه أنّ أمرَه إلى الإدبار.

(١) يُنظر: إعراب القرآن وبيانه ١٠: ٥٧٣.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٥٣١.

ثم كأنَّه يقولُ بعضُ النَّهارِ باقٍ فيَحُثُّه على التَّدارُكِ في البَقيّة بالتَّوبة. وعن بعضِ السَّلَف: تعلَّمتُ معنى السُّورةِ من بائعِ الثَّلجِ، كان يصيحُ ويقول: ارحَمُوا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه، ارحَمُوا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه، فقلتُ: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ يمرُّ به العصرُ فيَمضي عمرُه ولا يكتسِبُ فإذا هو خاسِر»[1].

يتَّضحُ ممّا ذكرَهُ الفَخرُ الرّازي أنّ المُرادَ بالعَصرِ العَشيُّ والسّاعاتُ الأخيرةُ مِن النَّهار، وفي هذا القَسَمِ تَنبيهٌ على أنّ عُمرَ الإنسان، الذي يكتسبُ فيه الصّالحاتِ، يُوشِكُ أن يَنقضِيَ كما يَنقضي النَّهارُ، ولم يبقَ فيه للتَّوبةِ والعَملِ الصّالحِ إلا سُوَيعاتٌ قلائِلُ. فعَليه أن يستيقظَ من غَفلتِه، وأن يُسرِعَ قبلَ فواتِ الأوانِ، فالمَجالُ ضَيِّقٌ، والوَقتُ قصيرٌ، وليس فيه متَّسَعٌ يَحتمِلُ التَّباطُؤَ والتّأجيل.

القَسَمُ بالرِّياحِ في افتتاحِ سُورةِ الذّاريات

الرِّياحُ قوّةٌ عظيمةٌ سخَّرَها اللهُ عزَّ وجلَّ لتَجريَ بينَ السَّماءِ والأرض، ولها من المنافعِ والتَّقلُّبِ ما يَشهدُ بعظمةِ الخالقِ، وكمالِ قُدرته. وقد أقسَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالرِّياحِ في افتتاحِ سُورة الذّاريات، قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: ١ ـ ٦].

وألفاظُ القَسمِ هنا هي صفاتٌ أُقيمَت مُقامَ مَوصوفاتٍ، طُوِيَ ذِكرُها تَشويقًا وتَعظيمًا لها، لتَذهبَ أفهامُ السّامِعينَ في تقديرها كلَّ مَذهَبٍ

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٣٢: ٢٧٨.

مُمكِن. وهــذه الصِّفاتُ معطــوفٌ بعضُها على بعضٍ بالفــاء، والعَطفُ بالفاءِ يقتضي تناسُــبَها وتَجانُسَــها، فيجوزُ أن تكونَ لجِنسٍ واحدٍ وهو الغالبُ في عطفِ الصِّفــاتِ بالفاء، ويَجوزُ أن تكــونَ لأجناسٍ مُتنوِّعةٍ بينَها تقارُبٌ وتَجانُس[١].

وتفسيرُها على تنوُّعِ المَوصوفاتِ أنّ الذّارياتِ: هي الرِّياحُ لأنّها تَذرو التُّرابَ أي تُثيرُه وتُفرِّقُــه. وذَروًا: مفعولٌ مُطلَــق. والحامِلاتِ وِقرًا: هي السُّحُبُ المُشــبَعةُ بالمَطر. وأصلُ الوِقْر: الحِملُ الثَّقيلُ، وهو هنا مَفعولٌ به لاســم الفاعلِ الحامِلات. والجارياتِ يُسرًا: هي السُّــفُنُ التي تَجري فوقَ الماء. واليُسر: اللِّينُ والسُّــهولة، وإعرابُه: نائبُ مفعولٍ مُطلَق على تقدير: جَريًا يُســرًا، أو حالٌ من الضَّمير المُســتَتِر في الجاريات، فيكونُ مصدرًا في مَوضع اسم المَفعول، والتقدير: مُيَسَّرةً. والمُقسِّماتِ أمرًا: هي الملائكةُ لأنّها تُقسِّمُ الأمورَ من الأمطارِ والأرزاقِ وغيرِها، فأمرًا: مفعولٌ به، أو تَفعلُ التَّقســيمَ مأمورةً بذلك، فيكون «أمرًا» حــالًا، وهو مصدرٌ بمعنى اسم المفعول[٢].

وتفسيرُ ألفاظِ القَسمِ باعتبارها تعودُ إلى موصوفٍ واحدٍ هو أنّها كلَّها صفاتٌ للرِّياح، فالذّاريات: هي الرِّياحُ التي تَذرُو التُّرابَ وقِطَعَ السَّحابِ في السَّماء، أي تُثيرُها وتَسوقُها. والحامِلات وِقرًا: هي أيضًا الرِّياحُ التي تَجمعُ السَّــحابَ المُثقَلَ بالمَطرِ وتَحمِلُه. والجارياتِ يُســرًا: هي الرِّياحُ تَجري بالسَّــحابِ بعدَ تَراكُمِه وقد أُثقِلَ بالمَطَر، فيكونُ جَريُها هيِّنًا ليِّنًا

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٦: ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٣٩٤، والتبيان في إعراب القرآن ٢: ١١٧٨، وتفسير القرطبي ١٧: ٢٩، والدر المصون ١٠: ٣٩.

شأنَ الجاري بحِملٍ ثَقيل. والمُقَسِّماتِ أمرًا: هي الرِّياحُ التي تَنتَهي بالسَّحابِ إلى المَواضِعِ التي يَنزلُ فيها المَطرُ[1].

وسواءٌ كانتِ الصِّفاتُ تعودُ إلى أجناسٍ متنوِّعةٍ، أم إلى جنسٍ واحدٍ وهو الرِّياح، فمِنَ الواضحِ أنّها تدلُّ على السُّرعةِ وعلى قُدرةِ اللهِ تعالى وإحكامِ صُنعِه، علمًا أنّ الفخرَ الرّازي رجَّح أن تكون الصِّفاتُ الأربعُ للرِّياح، وقد جُعِلَت قَسَمًا على البَعثِ والنُّشور، لأنّها تُقابِلُ مَراحِلَ إعادةِ الخَلق، وهي: النَّفخُ في البُوق، وجمعُ أجزاءِ الأجسادِ المُتفرِّقةِ وإحياؤُها، ثم السَّيرُ إلى المَحشَر، ثم الحسابُ والجَزاء[2].

فهُبوبُ الرِّيحِ يُقابِلُ النَّفخَ، وجَمعُها للسَّحابِ وحَملُه يُقابِلُ جَمعَ أجزاءِ الأجسادِ وإحياءَها، وجَرَيانُها بالسَّحابِ المُثقَلِ بالمَطرِ يُقابِلُ سَيرَ النّاسِ إلى المَحشَر مُثقَلِينَ بعواقِبِ أعمالِهم، وتَقسيمُها للسَّحابِ المُمطِرِ على بقاعِ الأرضِ الذي يدلُّ على إعادةِ إحيائِها يُقابِلُ ما ينالُه كلُّ إنسانٍ من جَزاءٍ في الآخرة.

وهذا الأسلوبُ في غايةِ البَلاغةِ والبَيان، وفي هذا التَّوضيحِ والمُقابَلةِ تَظهرُ المُناسبةُ جَلِيّةً بينَ الألفاظِ المُقسَمِ بها، وبينَ جوابِ القَسم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝﴾ [الذاريات: ٥ ـ ٦]، أي إنّ الذي تُوعَدونَ به مِنَ البَعثِ والحِسابِ صِدقٌ. والدِّين: الجَزاءُ بعدَ الحِساب، وهو واقعٌ أيضًا لا مَحالة[3]. والمُناسَبةُ إذنْ بينَ القَسمِ وجَوابِه دلاليّةٌ وفنيّةٌ في آنٍ واحد.

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٦١، والتحرير والتنوير ٢٦: ٣٣٩.

(٢) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٦١.

(٣) يُنظر: روح البيان لإسماعيل حقي الإستانبولي (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ٩: ١٤٩.

ويَتميَّزُ القَســمُ في افتتاح هذه السُّورةِ بأنّه شُـفِعَ بعدَ الجَوابِ بقَسمٍ آخرَ هو قوله تعالـى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٧ ـ ٩]. فقد أقسَـمَ بالسَّـماءِ ذاتِ الحُبُك. والحُبُك: الطُّرُق، وهي المَساراتُ المُختلِفةُ للنجومِ والكواكبِ والمَجرّاتِ. مُفردُها حَبيكةٌ مثـلُ طَريقة. والقَول: اسـمُ جنسٍ يُرادُ بـه المُبالَغـةُ والتَّكثير. والمُختَلِـف: المُتناقِضُ الذي يُخالِـفُ بعضُه بَعضًا. وهـي أقوالُهم في النَّبيِّ ﷺ بأنّه شـاعرٌ وسـاحرٌ ومَجنون، وفي القرآنِ الكريمِ بأنّه شِـعرٌ وسِحرٌ وأسـاطيرُ الأوَّلينَ وغيرُ ذلك، ويَشمُلُ ادعاءاتِهم باستحالةِ البَعثِ والجَزاء، وإنكارَهم حقائقَ الإيمانِ والوَحدانيّة.

ويُؤفَك: أي يُصرَف عن الإيمـان. والهاء في «عنه» تعودُ على الإيمانِ بالقُرآنِ والنبيِّ ﷺ. ومعنـى «مَن أُفِك»: أي مَن هو مأفـوكُ العَقل، وهُو الضَّعِيفُ العَقْلِ والرّأي[1].

والقسمُ بالسَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ يُناسِـبُ جوابَه وهو القَولُ المُختلِفُ، مع ما بينَهما مِن فَرقٍ وهو أنّ المَسـاراتِ في السَّـماءِ تُعبِّرُ عن الصَّنعةِ الإلهيّةِ والإحـكامِ والنِّظامِ الدَّقيـق، أمّا القَولُ المُختلِفُ فأُشِـيرَ به إلى الاضطرابِ والتَّناقُضِ فيما يَقولُه المُشركونَ المُنكِرونَ للإيمانِ والجَزاء. والقَسَـمُ الثّاني هو تَذييلٌ للأوّل. فالأوَّلُ كانَ لإثبـاتِ الجَزاء، والثّاني لإبطالِ مَقولاتِ المُنكرينَ واعتقاداتِهم الفاسدة[2].

أمّا مُناسَبةُ ألفاظِ القَسمِ في افتتاحِ السُّورة لمَضمونِها فتتلخَّصُ في أنّ مضمونَ السُّورة يدورُ حولَ إثباتِ الحَشـرِ والجَزاء، وتَهديدِ المُكذِّبينَ،

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص٨٠، وتفسير القرطبي ١٧: ٣٣، واللباب في علوم الكتاب ١٨: ٦٣.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٦: ٣٤٠.

وتَبشيرِ المُتَّقينَ بالجَنّةِ والفَوز، والتَّذكيرِ بالآياتِ التي تدلُّ على الأُلوهيّة والوَحدانيّة، والإشارةِ إلى مصيرِ المُعاندينَ والمُكذِّبينَ من الأُممِ السّابقة، وإرشادِ النّاسِ باللُّجوءِ إلى اللهِ تعالى على سبيلِ السُّرعةِ والفِرارِ إليه لأنّ المَجالَ ضيّقٌ، ولا يتّسعُ للجَدلِ والعِنادِ والتَّعنُّت، ووَعدُ اللهِ تعالى آتٍ لا مَحالةَ وهو قَريب.

وأحداثُ الخَلقِ والإعادةِ والحَشرِ والجَزاءِ تُشبِهُ هُبوبَ الرِّيحِ وسَوقَها السَّحابَ وتَوزيعَه على المَواضِعِ بأمرِ الله، وإنزالَ المَطرِ الذي فيه إحياءٌ للأرض بإذنه تعالى. ومن هنا توضَّحَتِ المُناسبةُ بينَ ألفاظِ القَسَمِ وغرضِ السُّورة. وفيما يلي التَّفصيلُ:

تبدأُ السُّورةُ بعدَ القَسَمِ الأوَّلِ والثّاني، واستيفاءِ الجَوابِ لكلٍّ منهما، بتهديدِ المُكذِّبينَ بالحَشرِ والجَزاء، المُتخبِّطِينَ في الجَهلِ والضَّلال، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٠ ـ ١٤]. والخَرّاصُونَ: الكَذّابُونَ. والغَمرةُ في الأصل: مصدرُ مرّةٍ للفعلِ غَمَر أي غَطّى، يُستعمَلُ دالًّا على الماءِ الكثيرِ الغامِرِ، ثم استُعمِلَت في المَجازِ فجُعِلَت مثلًا للجَهالةِ التي تَغمرُ صاحبَها، وهو المُرادُ في الآية[١]. وهذا السِّياقُ يُناسِبُ القسمَ في افتتاحِ السُّورة، بحسبِ المُقابَلةِ التي عرضتُها بينَ هبوبِ الرِّيحِ وأحداثِ السّاعةِ والحساب، كما يُناسِبُ القسَمَ الثّاني من حيثُ الدَّلالةُ على القَولِ المُختلفِ المُضطربِ الذي يقولُه المُكذِّبونَ.

---

(١) يُنظر: مفردات القرآن ص٦١٤، وتفسير القرطبي ١٢: ١٣٠.

ثم تَعرضُ السُّورةُ في المُقابِلِ ما يَنالُه المُتَّقونَ في الجنّةِ من أصنافِ النَّعيم، جزاءً على إيمانِهم بالسّاعةِ والحِساب، وما قدَّمُوهُ مِن عملٍ صالحٍ في حياتِهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩]. وهذا السِّياقُ يُناسِبُ القَسَمَ بالرِّياح، لأنّ مُبادَرةَ المُتَّقينَ إلى الإيمانِ، وانطلاقَهم إلى العمل الصّالح، وإسراعَهُم في دروبِ الخَير، كان كهُبوبِ الرِّيح. ويُناسِبُ القسَمِ الثّاني من جهةِ أنّ قولَ المُتَّقينَ واحدٌ، وإنّما أعمالُهُمُ الصّالِحةُ هي المُتنوِّعة.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى إرشادِ الإنسانِ وتَبصيره بآياتِ اللهِ الدّالّةِ على عظمتِه وكمالِ قُدرته، وتلكَ الآياتُ قريبةٌ منه وفي مُتناوَلِ حسِّهِ وإدراكِه، وحاضرةٌ في عجائبِ النَّفسِ الإنسانيّة، وفي خلقِ الأرضِ والسَّماء، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]. وهذا السِّياقُ يُناسِبُ القَسمَ، لأنّ الرِّياحَ من الآياتِ التي سخَّرَها اللهُ بينَ السَّماءِ والأرض، وهي مِن أقرَبِ المُدرَكاتِ المَحسوسةِ إلى المُتأمِّلينَ.

ثم تعرضُ السُّورةُ فُصولًا من عذابِ الدُّنيا الذي نزَلَ بالمكذِّبينَ من الأُمَمِ السّابقةِ، كقومِ لوطٍ وآلِ فرعونَ وعادٍ وثَمودَ وقومِ نُوح، فنجَّى اللهُ المؤمنينَ، وأهلكَ الباقينَ بأنواعٍ مُختلفةٍ من العَذابِ تُحاكِي سُرعةَ الرِّياحِ وتقلُّبَها، كما تُحاكي اختلافَ أقوالِهم واعتقاداتِهم، وممّا وردَ من قصصِ العَذابِ قولُه تعالى في عاد: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى الحديثِ عن عجائبِ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، وما فيهما من مظاهرِ عظمةِ اللهِ وقُدرتِه، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٥٠].

وفي هذا السِّياقِ عُبِّرَ عن التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى اللهِ بالفِرارِ إليه، وهذا يُناسِبُ القَسمَ بالرِّياحِ من حيثُ السُّرعة، ويُناسِبُ ما عرضَته السُّورةُ قبلَه من فصولِ العَذابِ الذي نزلَ بالمُكذِّبينَ من السَّماءِ والأرض، فمَن سكنَ في أرضِ اللهِ واستظلَّ بسمائِه فعلَيهِ أن يُسرعَ إلى حُصونِ الإيمانِ ويَلتجئَ إلى الله، وإلا فالهلاكُ في الدُّنيا والخُسران في الآخرة.

ثم تتَّجِهُ السُّورةُ إلى مُواساةِ النبيِّ ﷺ، وتَصبيره على أذَى المُشركينَ، وأن يَستمِرَّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ وإرشادِ المُؤمنينَ، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٤ ـ ٥٥].

وأخيرًا تُختَتَمُ السُّورة بالوَعيدِ والتَّهديدِ للكافرينَ بما سيُصيبُهم يومَ القِيامةِ من أنواعِ الأهوالِ وألوانِ العَذاب، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ [الذاريات: ٦٠].

إنّ المَشاهدَ والأحداثَ والحقائقَ التي عرضَتها السُّورةُ تَصبُّ في إثباتِ الحَشرِ والجَزاء، وقد جاءَتِ المَشاهِدُ في السُّورةِ سريعةَ الأحداثِ والتَّتابُع، تُحاكي في ذلك سرعةَ الرِّياحِ في تقلُّبِها بينَ السَّماءِ والأرض، ومن هنا كانَتِ المُناسَبةُ الدَّلاليّةُ والفَنيّةُ بين ألفاظِ القسمِ ومضمونِ السُّورة.

يُضافُ إلى ما سبقَ أنّ القسمَ في هذه السُّورة بالرِّياحِ وبعضِ المَخلوقاتِ الأخرى كالسَّحابِ والفُلكِ والمَلائكةِ، المَوصوفةِ بسُرعةِ الحَركةِ، على رأيِ بعضِ المُفسّرينَ، أو القَسَمَ بالرِّياحِ وحدَها التي

تتَّصفُ بالسُّـرعةِ أيضًا، على رأيِ آخرينَ، يُوحِي بأنّ النّاسَ المُخاطَبِينَ بالقَسَـم ومَضمونِ السُّـورة ليسَ لديهِم مُتَّسَـعٌ للتَّفكيرِ والانتظار، بل المَطلوبُ منهم المُبادَرةُ والإسراعُ كما يُسرِعُ مَن يَدهَمُه خطرٌ في الفِرار، وإلا فاتَ الأوانُ وخابَ سَعيُهُم وخَسِرُوا أنفُسَهم.

وأخيرًا ذكرَ الفخرُ الرّازيُّ أنّ اللهَ تعالى أقسَـمَ في السُّوَر التي تتعلَّقُ بإثباتِ الحَشـرِ والجَزاءِ بالمُتحرِّكاتِ كالصّافاتِ والذّارياتِ والمُرسَلاتِ والنّازعاتِ، لأنّ الحشرَ فيه جمعٌ وتَفريقٌ، وذلك بالحركةِ أليَقُ[1].

القَسمُ بالأماكِنِ المُقدَّسة

مِـن عَوالِمِ الأرضِ التي أقسَـم بهـا اللهُ تعالى، في افتتاح السُّـوَر، الأماكنُ المُقدَّسـة. وهذه الأماكنُ لها رَمزيّةٌ رُوحيّة، وإيحاءٌ إيمانيّ، كما سـيظهر. ولهذا فإنّ تَعظيمَها بالقَسـمِ بها إنّما يَرجعُ لاعتبـاراتٍ تتعلَّق بقُدسـيّتِها، وارتباطِها بالرِّسـالاتِ والأحداثِ الإيمانيّة. وقد وردَ القسمُ بالأماكنِ المُقدَّسةِ في افتتاحِ سُورتَيِ الطُّور والبَلد.

أولًا ـ القَسمُ بالطُّور:

مِنَ الأماكنِ المُقدَّسةِ التي وردَ القسَـمُ بها في افتتاحِ السُّوَرِ الطُّورُ، وما عُطِفَ عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [الطور: ١ ـ ٧].

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٦٠.

والطُّور: الجبلُ الذي كلَّمَ اللهُ عليه موسى عليه السّلام، وهو طُورُ سِيناءَ. والكتابُ المَسطور: القرآنُ الكريمُ وغيرُه من الكُتبِ السَّماويّة. والمَسطور: المكتوبُ على وجهِ الانتظامِ في سُطورٍ مُتقَنة، وتَنكيرُ الكتابِ لتَعظيمِه وتَشريفِه. والرَّقّ: الجِلدُ الرَّقيقُ يُعَدُّ للكتابة، ويُطلَق على الصَّحيفة. والمَنشور: المَفتوحُ المُيَسَّرُ للقِراءة. والبَيتُ المَعمور: قيل هو في السَّماءِ الرّابعةِ حِيالَ الكَعبة، تَطوفُ به المَلائكةُ، وقيل هو الكعبةُ المُشرَّفة، وعُمرانُها بطَوافِ النّاسِ حولَها واجتماعِهم عندَها، وهو الأنسَبُ لعَطفِه على الطُّور[1]. والسَّقفُ المَرفوع: هو السَّماءُ لأنّها كالسَّقفِ للأرض.

والبَحرُ المَسجورُ: قيل هو المَملوءُ ماءً، وقيل المُوقَدُ المُشتعِلُ بالنّار، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، ويكونُ ذلك يومَ القيامة على رأيِ بعضِ المُفسِّرين[2]. وتفسيرُه بالمَملوءِ ماءً هو الأصحُّ، لأنه وردَ في سياقٍ يدلُّ على النِّظامِ والدِّقّةِ والإحكام، وهذا يَعني أنّ المُرادَ صورةُ البَحر في الدُّنيا، وليس في القِيامة، لأنّ النِّظامَ الكونيَّ فيها يَتناثرُ ويُهدَم. وقيل المَسجورُ من الأضداد ويَعني الفارغَ والمَملوء[3].

والقَسمُ هنا من النَّوعِ المُتعدِّد، إذ أقسمَ بعدّةِ أُمورٍ تدلُّ على أُلوهيّتِه ووَحدانيّتِه وعجائبِ صُنعِه وحِكمتِه. ولم أجِدْ من المُفسِّرينَ مَن قدَّمَ رأيًا شافيًا في العلاقة بينَ الألفاظِ المُقسَمِ بها، وممّا يُذكَر من ذلك ما قالَه

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٧: ٣٨.

(٢) يُنظر في تفسير المفردات: الكشاف ٤: ٤٠٨، وتفسير القرطبي ١٧: ٥٨، واللباب في علوم الكتاب ١٨: ١١٣، والمفصل في تفسير الجلالين ص١٨٥٢.

(٣) يُنظر: الدر المصون ١٠: ٦٤.

ابنُ القيِّم أنّ اللهَ تعالى أقسمَ في هذه السُّورةِ بسيِّد الجِبال، وسَيِّد الكُتُب، وسيِّد البُيوت، ويكون ذلك مُتضمِّنًا للنُّبُوَّتَينِ المُعظَّمتَينِ نُبوّةِ موسى ونُبوّةِ مُحمَّدٍ عليهما السلام، وكثيرًا ما يَقرِنُ بينَهما وبينَ مَحلِّهما، كما في سورة التِّين والزَّيتون، ثم أقسمَ بمَخلوقَينِ عظيمَينِ وهما مَظهَرُ آياتِه وعَجائبُ صَنعتِه، وهما السَّقفُ المَرفوعُ والبَحرُ المَسجور[1].

والذي يَبدو، واللهُ أعلمُ، أنّ الغرضَ من السُّورة إثباتُ الجَزاءِ والوَعدِ والوَعيد، والمُخاطَبونَ بها هم أهلُ مكّةَ، فقابَلَ بينَ نُبوَّتين هما نُبوّةُ موسى عليه السلام ونُبوّةُ محمدٍ ﷺ، وأشارَ إلى الأُولى بالطُّور، وإلى الثّانية بالبَيتِ المَعمور، ولكلِّ نبيٍّ منهما كتابٌ مَسطور، وقومٌ أُرسِلَ إليهم، ثم ذَكرَ السَّماءَ المَرفوعةَ والبَحرَ المَسجورَ لِما فيهما من الآياتِ الدّالّةِ على قدرته عزَّ وجلَّ، وفي الوقتِ ذاتِه تَهديدٌ بأنّ العَذابَ يَنزلُ بالمُكذِّبينَ من السَّماءِ ومن بِحارِ الأرضِ أو زلازلها.

وذِكرُ البحرِ المَسجور فيه إشارةٌ إلى هلاكِ فرعونَ وقومِه بالغَرق، ووَعيدٌ لأهلِ مكّةَ بأن يُصيبَهم ما أصابَ قومَ فرعونَ. وإذا كانُوا يَعتقدونَ أنّ البَحرَ بعيدٌ عنهم، وهم في مأمَنٍ من عذابِه، فالسَّماءُ ليست ببعيدةٍ عن أحد، واللهُ قادرٌ أن يُرسِلَ عليهم عذابًا من فوقِهم أو من تحتِ أرجُلِهم، وأن يَخسِفَ بهم جانبَ البَرّ، وكلُّ ذلكَ مذكورٌ في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء: ٦٨].

ويُؤيِّدُ هذه المقاربةَ الاستنتاجيّةَ أنّ جوابَ القسم تضمَّنَ التأكيدَ على وقوعِ العَذابِ والوَعيدِ بأهلِ مكّةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

(١) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٢٦٥ ـ ٢٦٦.

لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ [الطور: ٧]، وهو يَشْمَلُ العذابَ في الدُّنيا والآخرة، كما هو شأنُ فرعونَ وقومِه، إذ أُغرِقُوا في الدُّنيا، كما تَوعَّدَهُم بعذابِ الآخرة في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. وفي هذا التَّوضيحِ كفايةٌ لبيانِ التَّناسُبِ بين ألفاظ القَسمِ ومناسبتِها لجَوابه.

أمّا مناسبةُ القسمِ لمضمون السُّورةِ فتَتجلّى في أنّ السُّورةَ تضمَّنَت بعضَ مشاهدِ القيامة وأهوالِها، كاضطرابِ السَّماء، وتهدُّمِ الجبال، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الطور: ٩ ـ ١١]، وهذه المشاهدُ تناسبُ القسمَ بالطُّور، والسَّقفِ المَرفوع، لأن الجبالَ والسماءَ تكونُ قد عُرِضَت في صورتَين متقابلتَين، الأولى في موطن البناءِ والإبداعِ ودِقّةِ الصُّنع والنِّظام، وذلك في الدّنيا، والثّانيةُ في موطنِ الهَدمِ والتَّناثُرِ والفَوضَى يومَ القِيامة.

والمُقابَلةُ بينَ المَشهدَينِ آذنَت بالإيجاز في عرضِ حوادثِ السّاعة، اعتمادًا على أنّ كلَّ المَذكوراتِ في موطنِ البِناء لها صورةٌ وحالةٌ في موطنِ الهَدم، والاكتفاءُ بعرضِ صورةِ الجبالِ والسَّماءِ في هذا الموطنِ يُشيرُ إلى أنّ للبحارِ المذكورةِ في ألفاظ القسَم حالةً مُشابِهةً أيضًا، يَستحضِرُها الذّهنُ ممّا وردَ في سُورٍ أُخرى نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦]، أي ذهبَ ماؤُها واشتعلَت نيرانًا[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣] أي طغَت واختلطَت[2]، ويُمكن الجمع بين هاتَين الآيتَين بأنّ تفجيرَ البحارِ وهو طغيانُها واختلاطُها يكونُ أولًا، ثم يَتبعُه

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٥: ٤٤٢.

(٢) يُنظر: تفسير البيضاوي ٥: ٢٩٢.

التَّسجيرُ وهو ذهابُ مائِها واشتِعالُها، واللهُ أعلمُ. وفي هذه المقابلة وما يُبنى عليها من إيجازٍ مناسبةٌ دلاليةٌ وأُخرى فنيّةٌ، كما توضَّح من العرض السابق.

ثم انتقلَتِ السُّورةُ إلى وَعيدِ المُكذِّبينَ بعذابِ النّارِ، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ١٤]. وذِكرُ النّارِ وعَذابِها يُناسبُ ألفاظَ القسمِ التي تدلُّ على الوَحيِ والكُتُبِ، لأنَّها لا تُعلَم إلا بها، كما يُناسبُ القسمَ بلفظِ الطُّورِ والبَيتِ المَعمور، باعتبارهما من الأماكن التي نزلَ فيها الوَحيُ على الأنبياءِ بالكُتبِ والتَّشريع.

ثم يأتي ذِكرُ الجنّةِ ونَعيمِها، وما يَجِدُه المُتَّقونَ فيها من طيبٍ وسُرور، ويَستغرقُ الحديثُ عن الجنّةِ اثنتَي عشرةَ آيةً، أوَّلُها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الطور: ١٧ ـ ١٨]. والتَّفصيلُ في وصفِ الجنّةِ ونَعيمِها يُناسبُ ألفاظَ القَسمِ، من جهةِ أنّ ألفاظَ القسمِ تُعبِّرُ عمّا في الدُّنيا من المَنافع والنَّعيم للنّاسِ كافّةً، على حين يُعبِّرُ مشهدُ الجنّةِ عمّا في الآخرة من حُسنِ الجَزاءِ للمُتَّقينَ. فالسِّياقانِ مُتشابهانِ بما فيهما من تنوُّعٍ وتَفصيل. ومناسبةُ التَّشابُهِ بينَهما فنيّةٌ ودلاليّةٌ في آنٍ واحد.

ثم تعرَّضَتِ السُّورةُ إلى مُواساة النبيِّ ﷺ، وتَفنيدِ ادِّعاءاتِ المُشركينَ وأقوالِهم الفاسِدةِ فيه، بأنَّه كاهنٌ ومجنونٌ وشاعرٌ ومُفترٍ للقرآنِ الكريم، وممّا وردَ في هذا الشأنِ قولُه تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٩]. وهذا السِّياقُ يُناسبُ القسمَ بالطُّورِ والبَيتِ المَعمورِ والكتابِ المَسطور، لدلالة هذه الألفاظِ على عظمةِ القرآنِ الكريمِ وصدقِ الوَحيِ والرِّسالة، وهي تَشهدُ بذاتِها على بُطلانِ ما يدَّعيهِ كُفّارُ مكّةَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ.

ثم انتقلَتِ السُّـورةُ إلى تَحدِّي المُشـركينَ وتَبكيتِهـم أمامَ مُعجزة القُرآن، وخلقِ السَّـماواتِ والأرضِ، وعظمةِ اللهِ تعالـى، وكمالِ قُدرته، وسَعةِ عِلمِه، ثم إنكارِ اعتقاداتِهم الفاسـدةِ وعِنادِهم الذي لا يَستندُ إلى دليل، وممّا يتَّصلُ بذلك قولُه تعالـى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وهذا يُناسـبُ القسم بالكتاب المسـطور، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطـور: ٣٦]، وقولـه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الطـور: ٣٨]. وإبطـالُ ادِّعاءاتِ الكافرينَ بحقِّ النبيِّ ﷺ، وذِكرُ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ وسُلَّمِ الاستِماع، كلُّ ذلك يُناسبُ القسمَ بالسَّـقفِ المَرفوع والألفاظِ الأُخرى التي تدلُّ على أماكنَ في الأرض.

ثم عادَتِ السُّورةُ إلى مشاهدِ القيامة، وتَهديدِ المُشركينَ بقُربِ وُقوعِها، ومن ذلـك قولُـه تعالـى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: ٤٥]. وقد توضَّح أنّ مشـاهدَ السّـاعةِ تُناسـبُ ألفاظَ القسمِ من جهةِ المُقابَلةِ بينَ حالتَي البِناء والهَدم، وهي مناسبةٌ دلاليّةٌ وفنيّةٌ في آنٍ واحد.

وأخيرًا اتَّجهَتِ السُّورةُ إلى مُواسـاةِ النبيِّ ﷺ وطَمأنتِه بأنَّه في حفظِ اللهِ وعنايتِه، وأرشدَتهُ إلى الصَّبرِ والتَّسبيح، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩]. وهذه المُواسـاةُ تتضمَّنُ مناسـبةً لطيفةً للقسـمِ بالسَّقفِ المَرفوع في افتتاحِ السُّـورة، فالسَّـقفُ المَرفوعُ هو السَّـماءُ، كما تقدَّم، والنُّجومُ المَذكورةُ هنا هي زينتُها ومَجلَى بَهائِها وجمالِها. فكما أنّ جمالَ السَّـماءِ لا يكتمـلُ إلا بنُجومِها، فكذلك كمـالُ العِبـادةِ لا يكونُ إلا بالتَّسبيحِ والدُّعاء.

يُضاف إلى ما تقدَّم من مناسباتٍ أنّ الغرضَ الأساسيَّ للسورة هو إثباتُ الجَزاءِ والوَعدِ والوَعيد[1]، وجميعُ أحداثِها ومشاهدِها تدورُ حولَ هذه الحقيقة، التي لا سبيلَ إلى إدراكها إلا عن طريقِ الرُّسُلِ والوَحي، فكان في القسمِ بالطُّورِ والكتبِ السَّماويّةِ والبيتِ المَعمورِ تنبيهٌ إلى المَصدرِ الوَحيدِ الذي تُؤخَذُ منه حقائقُ الغَيب، وتُعرَفُ به أحداثُ البعثِ والنُّشورِ والجَزاء، وهو الوحيُ الذي يَنزلُ بالكتُب على الرُّسُل. أما القسمُ بالسَّماءِ والبَحرِ فتنبيهٌ إلى ما يُستَدلُّ به على وَحدانيّة اللهِ وعظمتِه، وتهديدٌ بإيقاع العذابِ بالمكذِّبينَ، كما ظهرَ سابقًا، وهما من النّاحيةِ الفنيّةِ تأسيسٌ لبناءِ أسلوبِ المُقابَلة، بينَ مشهدَيِ البناءِ في الدُّنيا، والهَدمِ يومَ القيامة.

ممّا تقدَّم يتَّضحُ أنّ القسمَ في افتتاحِ السُّوَرِ، سواءٌ كانَ مُفرَدًا أم مُتعدِّدًا، فإنّ ألفاظَه تكونُ متناسبةً فيما بينَها، ومناسبةً لجوابِه ولمضمونِ السُّورة التي تُفتَتحُ به، وتلك المناسباتُ تتعلَّق بالنَّواحي الدَّلاليّةِ والفنيّةِ معًا.

ثانيًا ـ القسمُ بالبَلدِ الحَرام:

من المواضعِ التي وردَ فيها القسمُ بالأماكنِ المُقدَّسةِ، في افتتاحِ السُّوَر، القسمُ بالبلدِ الحَرامِ في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ١ ـ ٤]. و«لا» قيلَ فيها: زائدةٌ للتَّزيينِ، وقيل: زائدةٌ لتوكيدِ القَسمِ، وقيل: إنّها نافيةٌ ويُستفادُ من نَفيِها أنّ اللهَ تعالى لا يُقسِمُ بشيءٍ إلا إعظامًا له، فكأنَّه بإدخالِ حرفِ النَّفيِ يقول: إنّ إعظامي له بإقسامي به كَلا إعظامٍ، يَعني

(١) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٥.

أنّه يَستأهِلُ فوقَ ذلك من التَّعظيم[١]. وقد وردَت هذه الآراء لدى الحديثِ عن القسم في سُورة القيامة.

والمُهمُّ أنّ جمهورَ المُفسِّـرينَ مُتَّفِقونَ على أنّ صيغةَ «لا أقسم» هي صيغةُ قسمٍ، كما ظهرَ في سورة القيامة[٢]، ويُؤيِّدُ ذلك أنَّه أقسَم بالبَلدِ في سـورة التِّين، حيث قال: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ ﴾ [التين: ٣]، قال القرطبيُّ: «فكيفَ يُجحَدُ القسمُ به وقد أقسَـمَ به»[٣]، فالقرطبيُّ بهذا يَردُّ على مَن ذهبَ إلى أنّ صيغةَ «لا أُقسِمُ» ليسَت قَسَمًا.

فالسُّورةُ إذنْ افتُتِحَت بالقَسمِ بالبَلدِ، وهو البلدُ الحَرامُ مكّةُ المكرَّمةُ بإجماعِ المُفسِّـرين[٤]. والقسمُ في هذه السُّـورة من النَّوعِ المُتعدِّد، لأنّه أقسـمَ بالبَلدِ وعطفَ عليه: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ ﴾. أمّا قولُه تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ ﴾، فقِيل هو اعتـراضٌ بينهما، وقِيل الـواو حاليّة، والتقدير: أُقسِـمُ بهذا البَلدِ حالةَ كَونِك مقيمًا فيه، وهو الأنسَبُ، لأنّ مكّةَ ازدادَت شَرفًا بإقامةِ النبيِّ ﷺ وبِعثتِه فيها[٥]. وحِلٌّ أي: حالٌّ مُقيم فيها[٦]، والوالِدُ: قِيلَ آدمُ، وقِيـلَ إبراهيمُ، وقِيلَ المُرادُ بها كلُّ والدٍ، وهو الأنسَـبُ لعدمِ وجودِ ما يَدعو إلى التَّخصيص. و«ما» في قوله «وما وَلَد» هي موصولةٌ،

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٥٨، وتفسير القرطبي ١٩: ٩١، والدر المصون ١٠: ٥٦١.

(٢) يُنظر: الكشاف ٤: ٦٥٩، والتحرير والتنوير ٢٩: ٣٣٨.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠: ٥٩.

(٤) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٤٧٩.

(٥) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٣٦.

(٦) يُنظر: الدر المصون ١١: ٦، والمفصل في تفسـير الجلاليـن ص٢١٢١. وهناك آراء أخرى في تفسـير المراد بكلمة «حِـلّ». يُنظر في تلـك الآراء: الكشـاف ٤: ٧٥٣، واللباب في علوم الكتاب ٢٠: ٣٣٩.

وتَعني الذُّرِّيّةَ، وعُدِلَ عَن «مَن» إلى «ما»، لأنّ «ما» أشدُّ إبهامًا فعُدِلَ إليها لإرادةِ التَّفخيم[1].

أمّا المُناسَبةُ بينَ الألفاظِ المُقسَمِ بها فقد ذكرَ ابنُ القيِّمِ أنّ القسمَ بالبلدِ وبالوالدِ، باعتباره آدمَ عليه السّلام، قد تضمَّنَ أصلَ المكانِ وأصلَ السُّكّانِ، فمَرجِعُ البلادِ إلى مكّةَ، ومَرجِعُ العِبادِ إلى آدم[2]. ولم أعثرْ لغَيرِه على رأيٍ في هذا المَجال.

والذي يَبدو أنّ القَسَمَ بمكّةَ هو حتمًا باعتبار ارتباطِها بالعبادةِ والتَّوحيد، ففيها البيتُ الحَرامُ، وهو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ في الأرضِ لعبادةِ الله[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]. وأمّا الوالدُ وما وَلَدَ: فتَشمُلُ النّاسَ كلَّهم، وذِكرُهم مع البيتِ الحَرامِ تنبيهٌ إلى أنّ عبادةَ الله تعالى وتوحيدَهُ واجبٌ على كلِّ النّاسِ، كما جاءَ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، والله أعلم.

أمّا المُناسبة بين ألفاظِ القسمِ وجوابِه فتَتلخَّصُ في أنّ جوابَ القسمِ هو قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾، أي في تَعَبٍ ومَشقّةٍ، لِمُكابَدتِه مَصائبَ الدُّنيا وشَدائدَ الآخرة، والمُرادُ بالإنسانِ جِنسُ الإنسانِ عامّةً[4]. والقسمُ بالبلدِ الحَرامِ فيه إشارةٌ إلى شدائدِ الدُّنيا التي يُعانيها

---

(١) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١٥: ٢٣٩، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٩. ومنهم مَن ذهبَ إلى أن «ما» مصدرية. يُنظر: المفصل في تفسير الجلالين ص٢١٢١.

(٢) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن ص٣٥.

(٣) يُنظر: الكشاف ١: ٣٨٦.

(٤) يُنظر: تفسير الجلالين ص٨٠٨، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٥: ٢٤٠.

الإنسانُ، لِما تتَّصِفُ به مكّةُ المكرَّمةُ من قَسوةِ مُناخِها، وجَدبِ أرضِها، وصُعوبةِ العَيشِ فيها، قال تعالى في صِفتِها: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى التَّكاليفِ الشَّرعيّة، وما يُقاسيهِ المُؤمِنُ المُلتزِمُ بها من مَشقّةِ التَّكليفِ والعبادةِ والقتالِ والفِتَن في حياته، وما يُواجِهُه الكافرُ أيضًا من ضِيقٍ وحَيرةٍ وضَياع في الدُّنيا، وعذابٍ وذلٍّ في الآخرة. أمّا قولُه (ووالدٍ وما وَلَد) فهو يشملُ كلَّ النّاسِ، كما ظهرَ سابقًا، وهو مُحتوًى في جواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

وأمّا مناسبةُ ألفاظِ القسمِ لمضمونِ السُّورة، فالسُّورةُ تَذكرُ أنّ اللهَ تعالى قد وهبَ لكلِّ إنسانٍ بَصرًا وبَصيرةً وبَيانًا، وعرَّفَه طريقَ الخيرِ وطريقَ الشَّرّ، ثم كان النّاسُ باختيارهم فريقَينِ، فريقًا اختارَ طريقَ الخيرِ والهُدى، وفريقًا جحدَ نِعَمَ اللهِ وسارَ في طريق الشَّرّ والضَّلال، وسيكونُ الجزاءُ لكلِّ فريقٍ بحسبِ اختياره وعملِه. والقسمُ بالبلدِ الحَرامِ، ثم عَطفُ «والدٍ وما وَلَد» عليه، الذي يشمل الناس جميعًا، يُومِئ إلى وجود الفَريقينِ، حين بُعِث النبيُّ ﷺ في مكّةَ، إذ توزَّعَ النّاسُ بينَ مُؤمنٍ مُصدِّق، وكافرٍ جاحد. وفي السُّورةِ تَهديدٌ للفريق الثّاني وحثٌّ له على التزامِ طريقِ الخَيرِ والإيمان، ونبذِ طريقِ الشَّرّ والضَّلالِ والعِناد. وفيما يلي التفصيل.

تبدأُ السُّورةُ بعد القسمِ وجوابِه، اللّذَينِ تضمَّنا خَلقَ الإنسانِ وما يُلاقيه من تعبٍ ومشاقَّ في حياته، بعرض نموذجٍ من نماذج الكفرِ والعِناد، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [البلد: ٥ ـ ٧]. وهذا السِّياق يبدأ بالاستفهام المرادِ به الإنكارُ والتَّوبيخُ والزَّجرُ، والتقدير: كيف يظنُّ

هذا الظنَّ، وهــو مخلوقٌ مَقهور، لا يســتطيع أن يدفعَ عن نفســه شَـدائدَ الحَياة؟[١]

ومناسبةُ هذا السِّياقِ لألفاظ القســمِ وجوابِه تتمثَّلُ في أنّها عبَّرَت عن ضعف الإنسانِ وخضوعِه لخالقِه، ففي القسمِ بالوالدِ والولدِ إشارةٌ إلى أصل الإنسانِ وهو النُّطفةُ، وفيه أيضًا تلميحٌ إلى ما يتحمَّلُه الوالدُ والولدُ من مشــاقَّ وواجبــاتٍ، كلٌّ منهمــا تُجاه الآخرِ وتُجاه نفسِــه ومعاشِه، وأُكِّد التَّعبُ والمشقّةُ بما جاء في جواب القسم، فكان القسمُ وجوابُه مقدِّمةً مهَّدَت للاستفهام الإنكاريِّ في السِّياق المذكور، الذي يُقرِّر أنّ الذي خلقَ الإنسانَ قادرٌ عليه ومُحيطٌ به، وهو سميعٌ لأقواله، وبصيرٌ بأعماله.

وتُتابعُ السُّورةُ أسلوبَ الاستفهام الإنكاريِّ في توبيخِ من يتكبَّرُ على الإيمــان، ويُحــاربُ الدَّعوةَ، قــال تعالــى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]، وهذا السِّياقُ مناسبٌ لألفاظ القســمِ، من جهةِ أنّ البلدَ الحَرامَ موطنُ الرِّســالةِ يُناســبُ الهدايةَ إلى طريقيِ الخيرِ والشَّــرّ، كما أنّ في ذكرِ العَينينِ والشَّفتَينِ، وما يتّصفانِ به من الثُّنائيّةِ والتَّناظُرِ، مناسبةً للقسمِ باثنينِ هما الوالدُ والوَلد.

ومن جهةٍ أُخرى فإنّ القســمَ بالوالد والولدِ فيه توجيهٌ للإنســان أنّه يكفيه لإدراكِ ضَعفِه، وقُــدرة اللهِ تعالى عليه، أن يتأمَّــلَ النُموَّ المُتدرِّج لولــدِه، وكيفيّةَ تطوُّرِ حَواسّــه، وانتقالِه من ضَعفٍ إلــى قوّة، على حينَ ذُكِرَتِ الحَواسُّ في السِّــياقِ السَّــابقِ مرتبةً بحســبِ أســبقيّتِها في أداءِ

(١) يُنظر: المفصّل في تفسير الجلالين ص٢١٢١.

الوَظائف، فأُولَى الحَواسِّ اكتِمالًا واستِعمالًا النَّظرُ، ثم يأتي النُّطقُ، ثم الإدراكُ الذِّهنيُّ الذي أُشيرَ إليه بالهِداية.

ثم تنتقلُ السُّورةُ إلى الحديث عن قَسوةِ الكافرينَ على النّاس، وبُعدِهِم عن الرَّحمةِ التي يتَّصفُ بها المُؤمنونَ، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧]، فهذه الآياتُ جاءَت ردًّا على ذلك المتكبِّرِ المُعانِد، الذي يُنفقُ مالَه في مُحارَبةِ الدَّعوةِ وإيذاءِ المُؤمنينَ، جاءَت لِتَرسُمَ الطَّريقَ الصَّحيحَ لإنفاقِ المال، ومُعامَلةِ النّاسِ باللُّطفِ والرَّحمةِ والمُواساة، فمَن أبَى وانحرفَ وتكبَّرَ فقد اختارَ طريقَ الشَّرِّ والخُسران، لأنّه ما اقتحمَ العَقبةَ ولا كان من الذينَ آمنوا...

وألفاظُ القسمِ مُناسبةٌ تَمامًا لهذا السِّياقِ، لأنّ القسمَ بالبلدِ الحَرامِ يدلُّ على الإيمان، وما يَنطوي عليه من الرَّحمةِ بالنّاس ومُواساةِ المُحتاجِينَ منهم بالمال، وكذلك القسمُ بالوالد والولد يدلُّ أيضًا على ما بينهما من الرَّحمةِ والمودّةِ والإعانةِ والإنفاق. وقد توضَّحَ أنّ مَدارَ السِّياقِ السّابقِ كان على الرَّحمةِ والإنفاقِ والمُواساة، وهي المُناسبةُ الدّلاليّةُ بينَه وبينَ ألفاظِ القَسم.

وأخيرًا تنتقلُ السُّورةُ إلى الحديث عن الجَزاءِ في الآخرة، فالمُؤمنونَ هم أصحابُ اليُمنِ والفَوزِ والنَّجاة، والكافرونَ هم أصحابُ الشُّؤمِ والنّار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [البلد: ١٧ ـ ٢٠]. والتَّواصِي بالصَّبرِ والرَّحمةِ يُناسبُ ألفاظَ

القَسم، التي تدلُّ على الإيمانِ والرَّحمة، وما يُكلَّفُ به المُؤمنُ من الصَّبرِ على الواجباتِ وتَحمُّل الإيذاء، كما تدلُّ علـى ما بينَ الوالدِ ووَلدِه من الوُدِّ والواجباتِ والصَّبرِ أيضًا.

والحديثُ عن صفـات المُؤمنينَ، فـي هذا السِّـياق، ومَنزلتِهم في الآخرة، جاء تأسيسًا لفنٍّ راقٍ من فنونِ الأُسلوب وهو المُقابَلة، وهي هنا من النَّوعِ النَّقيضِـيّ، إذ تتألَّفُ من طَرفَينِ مُتقابلَينِ على سـبيل التَّضادّ، احتوَى الطَّرفُ الأوَّلُ علـى «الَّذينَ آمنُوا، والمَيمنة» فـي مُقابلِ «الَّذينَ كفروا، والمَشأمة» في الطَّرَفِ الثّاني.

وأسـلوبُ المُقابَلةِ، بعد أن تتحدَّدَ مَلامِحُه بما يُذكَر من ألفاظٍ مُتضادّةٍ، يَسـمحُ بإيراد بعضِ الألفاظِ في أحد الطَّرفَيـنِ دُونَ إيرادِ نَقيضها في الطَّرفِ الثّانـي، اعتمـادًا علـى أنّ ما هـو مَذكورٌ فـي أحـد الطَّرفَينِ يَسـتدعِي المَحذوفَ فـي الطَّرفِ المُقابِـلِ، بقَرينةِ المُقابَلةِ والتَّضادّ.

وفي المُقابَلةِ السّـابقةِ ذُكِر التَّواصِي بالصَّبرِ والرَّحمةِ مع المُؤمنينَ، دونَ أن يُذكَرَ نَقيضُه فـي الطَّرفِ الثّاني، لدلالة أُسـلوبِ المُقابَلةِ عليه، فيُستفادُ أنّ الذينَ كفروا لا يَتواصَونَ بالصَّبرِ والرَّحمة. وأيضًا ذُكِرَتِ النّارُ مع الكافرينَ في الطَّرفِ الثّاني، دونَ أن يُذكر نقيضُها في الطَّرفِ الأوَّل، لأنّ التَّلفُّظَ بالنّار يَسـتدعي لفظَ نقيضِها في الطَّرفِ المُقابِل وهو الجنّة، دون الحاجـة إلى ذِكرهـا بصريـحِ اللَّفـظ، «لأنّ المُقابَلةَ يَسـوغُ فيها ما لا يَسوغُ في الانفراد»[1].

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ١٠: ٦٠١.

وهذا الأسلوبُ من الفنونِ البَديعيّةِ التي تُفيدُ الإيجازَ. ويُسمِّيهِ جُمهورُ المُفسِّـرينَ والبَلاغِيِّينَ بالاحتباك، أخذًا من حَبكِ الثّوبِ، وهو سَدُّ ما بينَ خُيوطِهِ من الفُرَجِ وشَـدُّهُ وإحكامُه إحكامًا يَمنعُ عنه الخَلَلَ، مع الحُسْنِ والرَّونَـقِ...»[1]، ويُعرِّفونَه على أنّه «مِن ألطفِ أنـواعِ البَديعِ وأبدَعِها، وقد يُسمَّى حذفَ المُقابل: وهُو أن يُحذَفَ من الأوَّلِ ما أُثبِتَ نَظِيرُه فِي الثّانِي، ومن الثّانِي ما أُثبِتَ نَظِيرُه فِي الأوَّل، كقَوله تَعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران: ١٣]»[2].

ففي هذه الآيةِ قابـلَ بينَ «فئةٌ تُقاتِلُ في سـبيلِ اللهِ» وبيـنَ «أُخرَى كافِرةٌ»، وكلمةُ «أُخرى» صفةٌ معناها: مُغايِرة، وقد أُقيمَت مُقامَ المَوصوفِ فدلَّت عليه، والتَّقدير: وفئةٌ مُغايِرةٌ. فالمُقابَلةُ إذنْ هي بينَ فئتَينِ، تختلفُ إحداهُما عن الأُخرى في الصِّفات، وتلك الصِّفاتُ بعضُها مذكورٌ بلَفظِه، وبعضُها مَحذوفٌ تدلُّ عليه قرينةُ التَّضادّ في المُقابَلة[3].

فكلمةُ «كافِرة» في الطَّرفِ الثّاني تدلُّ على وجود نقيضِها في الطَّرفِ الأوَّلِ وهو «مُؤمِنة» وإن لم تُذكَر، كما أنّ وصفَ الفئةِ الأُولى بأنّها تُقاتِلُ في سـبيلِ اللهِ يدلُّ على أنّ الفِئةَ الثّانيةَ تُقاتِلُ في سبيلِ الشَّيطانِ، فيكونُ المَعنى المُتحصِّلُ من المقابلة: فئةٌ مُؤمنةٌ تُقاتلُ في سبيلِ الله، وفئةٌ كافرةٌ تُقاتِلُ في سبيلِ الشَّيطان.

---

(١) يُنظر: البلاغة العربية لعبد الرحمٰن بن حسـن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، ط١، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٢: ٥٥.

(٢) يُنظر: نظم الـدرر ٤: ٢٦٣، والإتقان في علوم القـرآن ٣: ٢٠٤، وخزانـة الأدب لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد السـلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧، ٣: ٢٥٧، والكليات للكفوي ص٥٧، وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١: ١٠٧.

(٣) يُنظر: نظم الدرر ٤: ٢٦٢.

ممّا سبقَ يتَّضِحُ أنَّ ثمّةَ مُناسباتٍ دلاليّةً وفنيّةً بينَ ألفاظِ القسمِ في افتتاحِ السُّورة، وبينَ مَضمونِها، والغالبُ على المُناسباتِ أن تكونَ دَلاليّةً وفنيّةً في آنٍ واحدٍ، وأحيانًا تكونُ وَسيلةً لبِناءِ أساليبَ بلاغيّةٍ فنيّةٍ كالمُقابَلةِ وغيرِها.

القَسمُ بالنَّباتِ والحَيوان

مِن عَوالِمِ الأرضِ التي أقسمَ اللهُ تعالى بها، في افتتاحِ السُّوَر، النَّباتُ والحَيوان، أمّا النَّباتُ فقد افتُتِحَت به سُورةُ التِّين، حيثُ أقسمَ فيها بالتِّينِ والزَّيتونِ وما عُطِفَ عليهما من أماكنَ مُقدَّسة، على حينَ أنّ القسمَ بالحيوانِ افتُتِحت به سورةُ العاديات، وكان القسمُ فيها بالخَيل خاصّةً.

أولًا ـ القسم بالتين والزيتون:

من المواضعِ التي وردَ فيها القسمُ بالنَّباتِ، في افتتاح السُّورِ، القسمُ بالتِّينِ والزَّيتون، في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ١ ـ ٤]. والتِّينُ والزَّيتون: من الثِّمار المَعروفةِ الطّيّبةِ المُبارَكة، وكلٌّ منهما اسمُ جنسٍ جَمعيٍّ واحدتُه: تِينة وزَيتونة. وطُورُ سِينينَ: الجبلُ الذي نُودِيَ عندَه موسَى عليه السلام وكلَّمَه الله عليه. وسِينينَ: جمعُ سِين، وهي أرضُ سَيناءَ التي يرتفعُ فيها جبلُ الطُّورِ، وتُعرَب بالواو والنُّون والياء والنون على نحو: يَبرون ويَبرين، كما يجوزُ فيها ثبوتُ الياء والنون وإعرابُها بالحركاتِ على النُّون، وقيل هي لغةٌ في سَيناء[1].

(١) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ١٢٩٤، وتفسير القرطبي ٢٠: ١١٠، والدر المصون ١١: ٥١.

والبَلَـدُ الأمِين: مكّةُ المكرَّمة، وفي استعماله مُشارًا إليه باسم الإشارة «هذا» تشريفٌ له لقُربه وحُضوره، فتكون «أل» فيه للعَهدِ الحُضوريّ. والأمينُ: صفةٌ للبَلد، وهي صفةٌ مُشبَّهة للفعل أمُن يأمُنُ، مثل كرُم يَكرُم، والمعنى: ذو الأمنِ يَطمئنُّ مَن فيه إلى سلامةِ نفسِه وأهلِه ومالِه. وقيل هي فَعيل بمعنى مُفعِل أي مُؤمِن، لأنه يُؤمِنُ مَن يَحِلّ فيه من كلّ شرٍّ ومَكروه، وقيل فَعيل بمعنى مَفعول أي مأمون فيه، لأن مَن يَدخلُه يأمَنُ فيه[1].

ولا خلافَ بين المُفسِّرينَ في طُور سِينين والبلدِ الأمين، وإنما كثُرَت آراؤُهم وأقوالُهم في التّين والزَّيتون، وأهمُّ تلكَ الآراءِ أنّ المُرادَ بهما مَنابِتُ التِّينِ والزَّيتون، وهي أرضُ الشّام، وفي ذلك إشارةٌ إلى مَن دَخلَها من الأنبياء وسَكنَها ووُلد فيها، كسُليمانَ وإبراهيمَ وعيسى عَلَيْهِمْ السَّلَامُ[2]. وحملَهُم على هذا الرأي اقتناعُهُم بضرورة وجودِ مُناسبةٍ بين التِّينِ والزَّيتون من جهة، وبين الطُّورِ والبلدِ الأمينِ من جهةٍ أُخرى، وافتراضُهم أن تكونَ ألفاظُ القسمِ من طبيعةٍ واحدة. فذهبوا إلى أنّ المُرادَ بهما أرضُ الشّامِ التي ظهرَ فيها الأنبياءُ، ليُوافِقا الطُّورَ والبلدَ اللّذَينِ ظهرَ فيهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومحمّدٌ ﷺ.

والذي يَبدو أنّ المُرادَ بالتِّينِ والزَّيتونِ جِنسُهما على الحقيقة، كما ذهب جمهورُ المُفسّرين[3]. ويُؤيِّد ذلك جوابُ القَسم، وهو قوله تعالى:

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٧٣، والتحرير والتنوير ٣٠: ٤٢٢، والمفصل في تفسير الجلالين ص ٢١٣٥.

(٢) يُنظر: البحر المحيط ١٠: ٥٠٢، والتعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، ط ٤، دار عمار، الأردن ٢٠٠٦، ص ٣٣٨.

(٣) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١٥: ٢٩٩.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾، فالإنسانُ جسدٌ يحتاجُ إلى طعام، وروحٌ تَحتاجُ إلى الهِدايةِ والإيمان، وكونُه في أحسنِ تَقويمٍ يَعني أنّه حسَنٌ في جسدِه وصُورته، ومُعافًى في رُوحِه وفِطرته. وهذا يَستلزمُ ما يُقيمُ صُلبَه من طعامٍ، أشرفُه وأفضلُه التِّينُ والزَّيتون، كما يَستلزمُ مَن يُرشِدُه إلى طريق الحقّ والإيمان، وهذه وظيفةُ الرُّسُلِ ومنهم مُوسى ومُحمَّد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وانطلاقًا من هذا الاعتبار تظهرُ المناسبةُ واضحةً بين ألفاظِ القسمِ وجوابه. وللمُفسِّرينَ آراءٌ كثيرةٌ في تفسير المُرادِ من جوابِ القسمِ والجُملةِ المَعطوفةِ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤ ـ ٥]. فجمهورُهم أخذَ بتفسيرِ الزّمخشريّ والتزمَ عبارتَه، التي امتدحَها أبو حيانَ بالبَلاغة وانتقاءِ الألفاظ على غيرِ عادتِه وموقفِه من الزّمخشري، ومنها قوله:

«في أحسنِ تقويم: في أحسنِ تَعديلٍ لشكلِه وصُورتِه وتَسويةِ لأعضائِه. ثم كان عاقبةُ أمره، حينَ لم يَشكرْ نعمةَ تلك الخِلقةِ الحَسنةِ القَويمةِ السَّويّة، أن ردَدناهُ أسفلَ مَن سَفُلَ خَلقًا وتَركيبًا، يَعني: أقبحَ من قَبُح صورةً وأشوهَهُ خِلقةً... حيث نكَّسناهُ في خَلقِه، فقوَّسَ ظَهرُه بعد اعتدالِه، وابيضَّ شعرُه بعدَ سَوادِه، وتشنَّنَ جِلدُه وكان بَضًّا، وكَلَّ سَمعُه وبصرُه وكانا حَديدَين، وتغيَّرَ كلُّ شيءٍ منه...»[1]. فأحسَنُ تقويمٍ: أي أحسنُ صُورة، والرَّدُّ أسفَلَ سافلينَ يعني الردَّ إلى الهَرمِ والشَّيخوخة.

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٧٤، والبحر المحيط ١٠: ٥٠٤.

ولكنّ ألفاظَ القسمِ التي تجمعُ بينَ غذاءِ الجِسمِ، وهَديِ الأنبياء، تُؤيِّدُ ما ذهب إليه الفخرُ الرّازي، وعرضَه ابنُ عاشورٍ مُفصَّلًا مُستفيضًا في التَّحرير والتَّنوير، أنّ المُرادَ بقوله «أحسن تقويم» الصُّورةُ الظّاهرةُ والصُّورةُ الباطنة، فالإنسانُ من حيثُ الشَّكلُ هو أجملُ المخلوقاتِ وأكثرُها تَناسُقًا وحُسنًا، ومن حيثُ الباطنُ وَهبَه اللهُ العقلَ والتَّمييزَ والفِطرةَ التي تَهديهِ إلى كلِّ ما هو حَسَنٌ جَميل، ونَبذِ كلِّ ما هو قَبيحٌ من الأعمال والأخلاق. فيكونُ الردُّ أسفلَ سافِلِينَ خاصًّا بالكَفرة والمُشركينَ الذينَ زاغُوا عن الحقِّ وحادُوا عن الفِطرة السَّليمةِ ولم يتَّبِعُوا الأنبياءَ، فيُجازيهِمُ اللهُ تعالى بقُبحِ الصُّورة في الدُّنيا، وسُوءِ العَذابِ في الآخرة. ويكونُ استثناءُ «الذين آمنوا» ممّا قبلَه من النَّوعِ المُنقطِع[1].

وللغزالي رأيٌ لطيفٌ يَحسنُ عرضُه والاستئناسُ به وهو قوله: «وقد خُلِقَ الإنسانُ في أحسنِ تَقويمٍ، ثمّ رُدَّ إلى أسفلِ سافِلِينَ، ثم أُمِرَ أن يترقّى إلى أعلى عِلِّيِّينَ»[2]. فالخَلقُ في أحسنِ تقويمٍ، ثم الرَّدُّ أسفَلَ سافلينَ، يَشملُ النّاسَ جَميعًا وفقَ هذا الرّأي، فكلُّهُم خُلِقَ في أحسنِ صورةٍ وأكملِ فِطرة، ثمَّ رُدَّ إلى أسفلِ سافِلِينَ، حينَ أُخرِجَ الجنسُ البشريُّ من دار النَّعيم والسُّرورِ في الجنّة إلى دار الشَّقاءِ والتَّكليفِ ومُجاهَدةِ الهَوى والنَّفسِ والفِتَنِ في الأرض. ويكونُ «أحسن تقويم» شاملًا للصُّورتَين الظّاهرة والباطنة. وهو رأيٌ جديرٌ بالاهتمام والأخذِ به، ويُغني عن الآراء والأقوال المُختلِفة التي تضمَّنَتها كتبُ التَّفسير.

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٣٢: ٢١٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٤٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ٤: ٢١٥.

أمّا مُناسبةُ ألفاظِ القسمِ لمضمونِ السُّورة فتتجلَّى في أنّ غرضَ السُّورة إثباتُ الحَشرِ والجَزاء، وهي من قصارِ السُّوَر، وتتألَّفُ من ثَماني آياتٍ، ثلاثٍ للقسمِ، وثلاثٍ لجوابه وما عُطِفَ عليه، وما استُثني من المَعطوف، واثنتَينِ للاستفهام وهما قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٧ ـ ٨]، والاستفهامُ في الأُولى للتَّوبيخ والتَّعجُّب، والتَّقدير: ما الذي يَجعلُكَ أيُّها الإنسانُ تُكَذِّبُ بالجزاءِ بعدَ الذي ذُكِر؟ والدِّينُ هو: الجزاءُ بعدَ البَعث، والمُخاطَب هو الإنسانُ الكافر. والاستفهامُ في الثّانيةِ للنَّفيِ أفادَ الإثباتَ والتَّقريرَ لدخولِه على نَفيٍ، والتقدير: أي قد ثبتَ أنّ اللهَ أحكمُ الحاكمين[1].

فألفاظُ القسمِ كما توضَّحَ من الشَّرحِ مُوطِّئةٌ لجوابِه ومُحتواةٌ فيه، فالقسمُ بالتِّينِ والزَّيتون، وهما من عجائبِ خلقِ اللهِ وقُدرته، بمَثابةِ التَّدرُّج نحو ما هو أرقى وأعظمُ وهو خلقُ الإنسانِ المذكورُ في الجَواب، واللهُ تعالى القادرُ على الخَلقِ قادرٌ على البَعثِ والإعادة والجَزاء، فلا يَستقيمُ لأحدٍ أن يُنكِرَ ذلك. وهذه هي المناسبةُ بينَ ألفاظِ القَسمِ وجوابِه من جِهة، وبينَ باقي الآياتِ من جهةٍ أُخرى، قال الآلوسيّ: «والمعنى أنّ خلقَ الإنسانِ من نُطفةٍ، وتقويمَه على وجهٍ يُبهرُ الأذهانَ، ويَضيقُ عنه نِطاقُ البَيان، أو هذا مع تَحويلِه من حالٍ إلى حال، من أوضحِ الدَّلائلِ على قُدرة اللهِ عزَّ وجلَّ على البعثِ والجَزاء. فأيُّ شيءٍ يَضطَرُّكَ أيُّها الإنسانُ بعد هذا الدَّليلِ القاطعِ إلى أن تكونَ كاذِبًا بسببِ تَكذيبِه، فإنّ كلَّ مُكذِّبٍ بالحَقِّ فهو كاذِب»[2].

---

(١) يُنظر: تفسير الآلوسي ١٥: ٣٩٧، والتحرير والتنوير ٣٠: ٤٣٠، والمفصل في تفسير الجلالين ص٢١٣٦.

(٢) تفسير الآلوسي ١٥: ٣٩٧.

ومن المُناسَباتِ الفنيّةِ والدّلاليّةِ التي تَظهرُ بينَ ألفاظِ القَسمِ أنّه أقسمَ بطَعامَينِ وبرسالتَينِ، وفي ذلك توازنٌ في التّعبير من النّاحية الفنيّةِ الأُسلوبيّة، وتَوجيهٌ للإنسان من النّاحيةِ الدّلاليّةِ للتّوسُّطِ والاعتِدالِ والإنصافِ في أُمورِ الدُّنيا والآخرة، فلا يَنغمسُ في الدُّنيا ومَلذّاتِها، ويَتراخَى في العِبادة والتّكاليفِ الشّرعيّة، وفي الوقتِ ذاتِه لا يُبالغُ في العبادة، ويُهملُ حوائجَ الجسدِ ويَنزوي عن الدُّنيا.

ومن المُناسباتِ الفنيّةِ بينَ القسمِ وجوابِه أن كلًّا منهما استوعبَ ثلاثَ آياتٍ، فجاء الأسلوبُ متوازنًا من حيثُ عددُ الآياتِ، مع وجود فارقٍ بينهما تجلّى في أنّ آياتِ الجوابِ أطولُ من آياتِ القَسم، فتحقّقَ في السّياقَينِ التّوازُنُ في عددِ الآيات، مع التّدرُّجِ الأسلوبيِّ من القِصَرِ إلى الطُّول، فكان سياقُ القَسمِ يُحقّقُ بإيقاعِه السّريعِ القَصيرِ المُفاجأةَ والتّشويقَ، على حينَ حقّقَ الجَوابُ بإيقاعِه الطّويلِ المُتراخِي ما أرادَتِ السُّورةُ إثباتَه من الحقائقِ والأحكام.

ممّا تقدّم يتّضِحُ أنّ ثمّةَ مناسباتٍ دلاليّةً وفنيّةً بين ألفاظِ القسمِ في سورة التّينِ وبينَ الجوابِ ومضمونِ السُّورة، وهذه المُناسباتُ كما ظهرَ في أكثرَ من موضعٍ تَشهدُ بعظمةِ القرآنِ وإحكامِه وسُمُوّ أسلوبِه.

ثانيًا ـ القسم بالخيل في افتتاح سورة العاديات:

مِن المواضعِ التي وردَ فيها القسمُ بعوالِمِ الأرض ومخلوقاتِها، القسمُ بالخيلِ في ابتداء سورة العاديات، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ

﴿ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ١ ـ ٨]. فجمهورُ المُفسِّرينَ متَّفِقُون على أنّ المُقسَمَ به هو الخيلُ، وقد حُذِفَ وأُقِيمَت صفاتُه مُقامَه[1].

فالعادياتُ: جمعُ عاديةٍ وهي اسم فاعل للفعل عدا يَعدو أي سارَ مُسرِعًا وركضَ، عُبِّر به عن اسم الذّاتِ لإقامتِه مُقامَ المَوصوفِ وهو الخيلُ. وضَبحًا: حالٌ من الضَّميرِ المُستتِرِ في العاديات، فهو مصدر للفعل ضَبَح أي صوَّتَ جَوفُه، عُبِّر به عن اسم الفاعل لأنّه في تقدير ضابِحةً. وقيل هو مصدرٌ على بابه وإعرابُه مفعولٌ مُطلَق. والمُورياتُ: جَمع مُورية، اسمُ فاعل مؤنَّث للفعل أورى النّارَ أي أشعلَها وأوقدَها. وقَدحًا: حالٌ من الضَّمير المُستتِرِ في المُوريات، على تقدير قادِحات. وقيل هو مصدرٌ على بابه وإعرابُه أيضًا مفعولٌ مُطلَق. والقَدحُ: صَدمُ شيءٍ بشيءٍ ليَخرجَ شرارُ النّار. والمعنى أنّ الخيلَ تَقدحُ حوافرُها حين تَجري بأرض فيها حِجارةٌ، وقيل بل المُرادُ أنّها تُشعلُ الحربَ، وهذا أليَقُ.

والمُغِيراتُ صُبحًا: هي الخيلُ تُغيرُ فُرسانُها في الصَّباحِ فتُباغِتُ العَدوَّ. وصُبحًا: منصوبٌ على الظّرفيّةِ الزّمانيّة. والنَّقعُ: الغُبارُ، مصدرُ نَقَع أي أثارَ وهَيَّجَ، عُبِّر به عن اسم الذّات. والجَمعُ: جماعةُ النّاس، مصدرٌ للفعل جمَعَ عُبِّر به عن اسم الذّات. والمعنى أنّ الخيلَ تُثيرُ الغُبارَ وتَقتحِمُ جُموعَ النّاسِ والمُقاتلِينَ. والفاء في المَواضعِ الأربعةِ للعَطف[2].

وجوابُ القسمِ هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾. والمُرادُ بالإنسانِ الجِنسُ،

---

(١) يُنظر: الكشاف ٤: ٧٨٦، وتفسير القرطبي ٢٠: ١٥٣، والبحر المحيط ١٠: ٥٢٦.

(٢) يُنظر: اللباب في علوم الكتاب ٢٠: ٤٥٤، والتحرير والتنوير ٣٠: ٤٩٨، والمفصل في تفسير الجلالين ص ٢١٤٨.

فتكون «أل» لاستغراقِ أفرادِ هذا الجنس، أي كلَّ إنسانٍ. والكَنُودُ: مبالغةُ اسـم فاعلٍ للفعل كَنَدَ، أي عصَى وجَحَد النِّعمةَ. والمعنى أنّ كلَّ إنسانٍ بالطَّبعِ والخِلقةِ يَجحَدُ نعمةَ ربِّه، ما خلا الأنبياءَ ومَن عصمَه اللهُ. وعُطِفَ على جوابِ القسمِ الآيتانِ التّاليتانِ. والهاء في «إنّه» قيل هي عائدةٌ على الله، وقيل: عائدةٌ على الإنسان، وهو الأنسَبُ للمعنى والسِّياق[1].

فعَودتُها على الله تعالى ليس فيها جديدُ فائدةٍ، لأن عِلمَ اللهِ بالأشـياءِ وإحاطتَه بها لا يَحتاجُ إلى إثباتٍ وتَقرير، وإنّما الجديدُ في الآية بيانُ أنّ الإنسانَ ذاتَه هو الذي يَشهدُ على سُوءِ أعمالِه وفَسادِ اعتقادِه، وقد خُتمَتِ السُّـورةُ بما يُفيدُ ذلك فـي قوله تعالـى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات: ١١]، فالفائدةُ إذنْ هي في عَودةِ الهاء على الإنسـان لتناسُـبِها معَ السِّـياقِ، وإفادتِها أنّ الإنسانَ هو الشّـاهدُ على كُفرانِه نعمةَ ربِّه، وتَظهرُ شـهادتُه على ذلك في تَضرُّعِه ودُعائِه والتِجائِه حينَ يقعُ في الشَّدائدِ، أو يُغلَب في الحجة.

وقد عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن المَعنى السّـابقِ في أكثرَ من مَوضع، كما في قوله تعالـى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤]، وقولـه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسـراء: ٦٧]، وقوله تعالـى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١].

---

(١) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١٥: ٥٣٤، والتحرير والتنوير ٣٠: ٥٠٣.

ومناسبةُ ألفاظِ القسمِ للجواب تتجلّى في أنّ الخيلَ كانت من أحبِّ ما يَتمنّاهُ الإنســانُ من النِّعَم وأشــرفِها على الإطلاق، ففي امتلاكِها العِزُّ والجاهُ والقوّةُ والجَمال. ولهذا أقســمَ بالخيلِ ذاكــرًا بعضَ صِفاتِها التي تَستهوي قلبَ الإنسان، وتَســتولي على لُبِّه، وتَسترعي انتِباهَه، ثم أردَفَها بالجوابِ الذي تضمَّن جَحدَ الإنســانِ لنِعمةِ الله عليه، ففي القســمِ ذَكَرَ أجلَّ نعمةٍ وفي الجوابِ أشار إلى كُفرانِ الإنسانِ للمُنعِمِ تباركَ وتَعالى، معَ أنّه يَشهدُ على نفسِه بأنّه جاحد.

يُضافُ إلى ذلك أنّ القرآنَ الكريمَ والحديثَ الشَّريفَ جَعلا الخيرَ في امتلاكِ الخَيل، فقال تعالى على لســانِ نبيِّه سُــليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: ٣٢]، وهي الخَيلُ التي كان يَستعرضُها[١]. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ قوله: «الخَيرُ مَعقُودٌ بِنَواصِي الخَيلِ إلى يَومِ القِيامةِ»[٢]. فالمُقسَــم به هو الخيلُ بما يَنطوي عليه من الخَير، والمعطوفُ على جواب القســم هو حُبُّ الخَيــر في قوله تعالــى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨].

أمّا مُناسبةُ ألفاظ القَســمِ لمضمونِ السُّورةِ فالسُّورةُ تتألَّفُ من إحدى عشــرةَ آية، منها ثَمانِــي آياتٍ للقســمِ وجوابِه، تحدَّثتُ عمّــا بينَها من مُناسَبة، وثلاثُ آياتٍ تتعرَّضُ لإثبات الحَشرِ والجَزاء، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١]. ففي إغارةِ الخيلِ ومباغتتِها للمُقاتِلينَ والنّاسِ

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبي ١٥: ١٩٤.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٢٠٧ تحت الرقم ٣٦٤٣، وصحيح مسلم ٣: ١٤٩٣ تحت الرقم ١٨٧٣. والمثبَت من البخاري.

وسرعةِ جَريها مُحاكاةٌ لأحداث القيامةِ التي تُباغِتُ النّاسَ وتَبهَتُهم وتَحِلُّ بهم فجأةً، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ [يوسف: ١٠٧]، وإغارةُ الخيلِ وما يَصحبُها من غبارٍ وضَوضاءَ يُناسبُ أحداثَ السّاعةِ التي عُبِّر عنها ببَعثرة القُبورِ لتَحقيقِ المُقابَلة. كما أنّ حَمحمةَ الخَيلِ، وهي الأصواتُ المَسموعةُ مِن جَوفها عندَ جَريها، تُقابلُ تَحصيلَ ما في صُدورِ النّاسِ من الحقائقِ المَكتومةِ التي لا تَغيبُ عن عِلم الله تعالى.

يُضاف إلى ما سبقَ أنّ القسمَ بالخيلِ الجاريةِ المُغيرة، وما فيه من التَّهويلِ والتَّرويعِ، هو تَهديدٌ للمُشركينَ بأنّهم إن لم يُؤمنوا، ويكفُّوا عن العِنادِ والكُفر، فسوف يُسلِّطُ اللهُ تعالى عليهِم خيلَ المُسلمينَ، ويُعذِّبُهم بأيديهم في الدُّنيا، ثم يكونُ العذابُ الأكبرُ في الآخرة[1].

ومن المُناسباتِ الفنيّةِ في السُّورة أنّه أقسمَ بثلاثةِ أوصافٍ للخيل في ثلاثِ آياتٍ، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣﴾ [العاديات: ١ ـ ٣]، ثم أتبعَ «المُغيراتِ صُبحًا» بجملتَينِ على سبيلِ العَطفِ عليها، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥﴾ [العاديات: ٣ ـ ٥]، فكانَتِ «المُغيراتِ صُبحًا» معَ ما عُطِفَ عليها ثلاثَ آياتٍ أيضًا. والملاحَظُ في هذا السِّياقِ الأخيرِ استعمالُ الفِعلَينِ «أثَرنَ ووَسَطنَ» والعدولُ عن استعمالِ الاسم، لأنّ الفعلَ يدلُّ على التّجدُّدِ ووُقوعِ الحدثِ شَيئًا فشَيئًا[2]، وهذه الدّلالةُ مُطابقةٌ لإثارةِ الغُبارِ واقتحامِ الصُّفوفِ في الحَرب.

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٥٠٢.

(٢) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢: ١١٠ و١١٣، والكليات للكفوي ص ٨٤.

والآياتُ الخَمسُ الأُولى مُتساويةٌ في الطُّول وفي عددِ الألفاظ، فكلٌّ منها يتألَّفُ من لَفظَين، ويُعبِّرُ إيقاعُها القَصيرُ السَّريعُ عن حركةِ الخَيلِ وسُرعةِ جَريِها. والتَّساوي في الطُّولِ والإيقاعِ وعددِ الألفاظِ من المَزايا الفنيّة والأُسلوبيّة.

وفي مُوازاةِ ذلك جاء جوابُ القسمِ أيضًا في ثلاثِ آياتٍ، مُتساويةٍ فيما بينَها في الطُّولِ والإيقاع، وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨]، وهي أطولُ من آياتِ القَسمِ بمِقدارِ الضِّعفِ، أي إنّ إيقاعَ القسمِ جاءَ قصيرًا سريعًا يُحاكي سُرعةَ الزّمانِ وأحداثِه، وما يَنبغي على الإنسانِ من سرعةِ الإجابةِ قبلَ فواتِ الأوان، على حينَ جاءَ إيقاعُ الجوابِ مُتراخِيًا يُعبِّرُ عن انغماسِ الإنسانِ في الدُّنيا، وتَثاقُلِه عن التَّفكُّر والاتِّعاظ، وتَراخيهِ في إجابةِ دَواعي الإيمان، وهذا كلُّه من المُناسباتِ الفنيّة.

ولا يختلفُ مشهدُ القيامةِ في خاتمةِ السُّورة عن القَسمِ وجوابِه، من حيثُ عددُ الآياتِ، إذ جاءَت ثلاثًا أيضًا، ومُتساويةً فيما بينَها في الطُّول، وهي قولُه تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١]، ومَجيءُ مَشهدِ القيامةِ في ثلاثِ آياتٍ يُناسِبُ القسمَ وجوابَه من النّاحيةِ الفنيّة.

يُضاف إلى ما سبقَ وجودُ مناسباتٍ صوتيّةٍ إيقاعيّة، تتمثّلُ في انتهاءِ الفَواصلِ في كل مقطعٍ بحرفٍ مَخصوصٍ، تُلائمُ صُورتُه النُّطقيّةُ دَلالاتِ المَقطعِ ومَوضوعَه. فسِياقُ القسمِ انتهَت آياتُه الثّلاثُ بالحاء، وهو حرفٌ

حَلقِيٌّ يتَّصفُ بالهَمسِ والرّخاوةِ والاستِفال والانفِتاح[1]، ويُحاكي بمَخرجِه الحَلقيِّ وصفاتِه السّابقةِ الصَّوتَ المُنبعِثَ من جوفِ الحِصانِ عندَ شِدّةِ الركضِ والعَدوِ.

ثم استُبدِلَ بحرفِ العَينِ في الآيتَينِ المَعطوفتَينِ وهما قولُه تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾ [العاديات: ٣ ـ ٥]، والعينُ يُماثِلُ الحاءَ في المَخرجِ والصِّفاتِ، ولا يختلفُ عنه إلا في صفةٍ واحدة، إذ إنّ الحاءَ رخوٌ، والعَينَ بين الشِّدّةِ والرّخاوة، والشِّدّةُ المُتوسِّطةُ للعَينِ في هذا المَوضعِ تُناسبُ الحركةَ المُتجدِّدةَ التي يدلّ عليها الفِعلانِ «أثَرنَ ووَسَطنَ» والمُتمثِّلةَ بالكَرِّ والفَرِّ وإثارةِ الغُبارِ واقتحامِ الصُّفوف.

أمّا الفواصلُ الثّلاثُ في جوابِ القسمِ فانتهَت بحرف الدّال، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨]. والدّالُ من الحُروفِ اللِّسانيّةِ التي تخرجُ من نَطعِ الفَمِ، ويتّصفُ بالجَهرِ والشِّدّةِ والاستِفالِ والانفتاحِ والقَلقلة، ومَخرجُه اللِّسانيُّ يُناسبُ الحديثَ عن الإنسانِ في هذا المَقطع، باعتبار أنّ اللِّسانَ هو الذي يُبِينُ عن أحوالِ الإنسانِ كلِّها، أما صفاتُه وخاصةً الجَهرَ والشِّدة والقَلقلة فتُعبِّرُ عن الاضطرابِ والتَّخبُّطِ في طريقِ الضّلال.

وفي مشهدِ السّاعةِ انتهَتِ الفواصلُ الثّلاثُ بحرف الرّاء، في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١]. والرّاءُ يَخرجُ من ذَلْق اللِّسانِ أي

(١) يُنظر في مخارج الحروف وصفاتها: الكتاب لسيبويه ٤: ٤٣٣، والنشر في القراءات ١: ١٩٨، ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ص٢٧٥.

طَرفِه، ويتَّصفُ بالجَهرِ والتَّوسُّطِ بينَ الشِّدّةِ والرّخاوةِ والاستِفال والانفِتاح والانحرافِ والتَّكرار، ويَنفردُ دونَ سائرِ الحُروفِ بالتَّكرار والانحِراف. وهذه الصِّفةُ المُتميِّزةُ مع الجَهرِ تُحاكِي زلزلةَ السّاعةِ وبَعثرةَ القُبور، كما تُناسب تحصيلَ ما يتردَّدُ في الصُّدور من الأسرار والنِّيّات، وتُحاكي أيضًا عِلمَ اللهِ الذي عُبِّر عنه بأسلوبٍ يُناسِبُ ما قبلَه، فما يتكرَّرُ من أعمالِ الإنسانِ التي يُخفِيها، ولا يُريدُ إظهارَها، يُناسبُه أن يُوصَفَ علمُ اللهِ بالتَّكرارِ لإفادةِ الإحاطةِ والاطّلاعِ على كلِّ شَيء.

يتّضحُ مما تقدَّم أن القسَمَ في افتتاحِ سورةِ العادياتِ كانت له مناسباتٌ دلاليّةٌ وفنيّةٌ وإيقاعيّةٌ تَتناسَبُ مع مضمونِ السُّورة وأحداثِها.

✿ ✿ ✿






الخاتِمةُ والنَّتائِج

ظهرَ فيما تقدَّمَ أنّ السُّـوَرَ التي افتُتِحَت بالقَسمِ بلغَت ثلاثًا وعشرينَ سُورةً، وقد توزَّعَت دراستُها على ثلاثةِ فُصول، تناولتُ في الفصلِ الأوّلِ القسـمَ بالقرآنِ الكريـم، وخصَّصتُ الفصـلَ الثّانيَ للقسـمِ بالغَيبيّاتِ وعوالِمِ السَّـماء، وتحدَّثتُ في الفصلِ الثّالثِ عن القَسمِ بعوالِمِ الأرضِ ومخلوقاتِها. وانتهَى البحثُ إلى النَّتائجِ التالية:

١ ـ أقسـمَ اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم بذاتِه في سـبعةِ مواضعَ منها قولـه تعالـى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]، على حينَ أقسـمَ في المواضعِ الأُخرى، ولا سيّما في افتتاح السُّـوَرِ، بقُرآنِه أو بمَخلوقاتِه[1]. وهذا يُوحي بأنّ القسـمَ في افتتاحِ السُّـوَرِ له مَقاصدُ فكريّةٌ ودلاليّةٌ وفنيّة، لأن القسـمَ بالذّاتِ الإلهيّةِ له منحًى واحـدٌ لا يَتجاوَزُه، وهو التَّعظيـمُ والتَّوكيد، على حينَ أنّ القسمَ بمخلوقاتِه المُتنوِّعةِ، وما تتميّزُ به من صفاتٍ وأحوالٍ مُتعدِّدةٍ، يُكسِـبُ السِّـياقَ إيحاءاتٍ مُختلِفةً، تتولّدُ منها المُناسباتُ الدّلاليّةُ والفنيّة.

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٠.

٢ ـ السُّوَرُ التي وردَ القسمُ في افتتاحِها، وعددُها ثلاثٌ وعشرونَ سورةً، كان القسمُ فيها لإثباتِ أحدِ أصولٍ ثلاثةٍ هي: الوَحدانيّةُ والرِّسالةُ والحَشر[1].

٣ ـ تناولَ البَحثُ الألفاظَ المُقسَمَ بها، ذاتَ الدّلالةِ اللُّغويّةِ الواضِحة، أمّا ما جاءَ في افتتاحِ السُّوَرِ، من حروفٍ مُقطَّعةٍ، فهي وإن ذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنّها قسمٌ لم تدخُلْ في موضوع البَحث، لأنّها لا تتضمَّنُ دلالةً لغويّةً واضحةً كالألفاظ، فلا يُبنى عليها مناسباتٌ دلاليّةٌ، ويبقى مجالُها مَحصورًا في المُناسباتِ الصَّوتيّة والإيقاعيّة.

٤ ـ ظهرَ من البحثِ أنّ القسمَ نوعان: مُفرَدٌ ومُتعدِّد، وأنّ الألفاظَ المُستعمَلةَ في القَسمِ المُتعدِّدِ تكونُ مُتناسِبةً فيما بينَها من النّاحيةِ الدَّلاليّةِ والفنيّة.

٥ ـ توصَّلَ البَحثُ إلى وجودِ مناسباتٍ دَلاليّةٍ وفنيّة واضحةٍ بين ألفاظِ القسَمِ في افتتاحِ السُّورة وجوابِه، إضافةً إلى وجود مُناسباتٍ أيضًا بين ألفاظِ القسمِ ومضمونِ السُّورةِ عامّةً، بما تَعرضُه من مشاهدَ وأحداثٍ وأحكام.

٦ ـ تتمثّلُ المُناسباتُ الدَّلاليّةُ، التي ناقشَها البحثُ، في التَّوافُقِ والتَّطابُقِ بين دلالةِ لفظِ القسمِ وإيحاءاتِه من جِهة، وبينَ المَوضوعاتِ والمَشاهدِ والأحداثِ التي تَعرضُها السُّورةُ من جهةٍ أُخرى، بحيثُ يُمكِنُ اعتبارُ ألفاظِ القَسمِ دَليلًا على ما تتضمَّنُه السُّورةُ من المَشاهدِ والمَواقفِ والحَقائق. أمّا المُناسباتُ الفنيّةُ فتتعلّقُ بالمَزايا الجَماليّةِ والأُسلوبيّةِ التي تحدَّثتُ عنها في السُّوَرِ المَدروسة.

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٢٨: ١٦٠.

٧ ـ تضمَّنَ البحـــثُ كثيرًا من المَســائلِ والتَّحليــلاتِ والتَّوجيهاتِ الدَّلاليّةِ والصَّرفيّةِ والنَّحويّةِ والأُســلوبيّة، التي يُرتَجــى منها خِدمةُ لغة القرآن الكريم وعلومــه، والدِّراســاتِ اللُّغويّةِ والأدبيّة، والإســهامُ في تَطويرِها والإضافةِ إليها.

٨ ـ إنّ ما توصَّلَ إليه البحثُ من مناسباتٍ، وما انتهى إليه من نتائجَ، يُمكِن توظيفُهــا والإفادةُ منها في مجالَيِ التَّفســيرِ وعلــومِ القُرآن، لأنّ الاحتكامَ إلى المُناســباتِ الدَّلاليّة والفنيّــةِ التي أثبتَهــا البحثُ يُمكِّنُ الدّارسِــينَ من التَّرجيحِ بينَ آراءِ المُفسِّــرينَ، واختيارِ ما هــو أكثرُ دِقّةً ومُلاءَمةً للمَعنى والسِّياق.

✿ ✿ ✿





المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
- أسلوب القسم في القرآن الكريم: دراسة بلاغية رسالة ماجستير، إعداد علي الحارثي، جامعة أم القرى ١٩٩١.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (ت ١٤٠٣هـ)، ط ٤، دمشق وبيروت وحمص ١٤١٥هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٣، دار الجيل، بيروت.
- أيمان العرب في الجاهلية لأبي إسحاق النُّجيرمي (عاش في القرن الرابع)، نسخه وصحّحه: محبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٣هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، بعناية: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- البلاغة العربية لعبد الرحمٰن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، ط١، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- تاج العروس للمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ.
- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (ت ٦١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧.
- التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤.
- تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي (ت ٩٩٢هـ)، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م.
- التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، ط١، دار الأرقم، بيروت ١٤١٦هـ.
- التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، ط٤، دار عمار، الأردن ٢٠٠٦.

- تفسـير البغوي (ت ٥١٠هـ)، تحقيـق: عبد الرزاق المهـدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٠هـ.
- تفسـير الجلاليـن للمحلـي (ت ٨٦٤هـ) والسـيوطي (ت ٩١١هـ)، ط١، دار الحديث، القاهرة.
- التوقيف على مهمـات التعاريف للمنـاوي (ت ١٠٣١هـ)، ط١، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٠م.
- الجامع لأحـكام القـرآن للقرطبـي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمـد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧.
- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد السـلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧.
- دراسـات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالـح، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٩.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسـمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- ديوان النابغة الذبياني، شـرح وتعليق: د. حنّا نصر الحتّي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١.
- ـ روح البيان لإسماعيل حقي الإستانبولي (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سـر الفصاحة لابن سـنان الخفاجي الحلبـي (ت ٤٦٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢.

- شرح التسهيل لابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمٰن السيد، د. محمد بدوي المختون، ط ١، دار هجر.
- شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
- فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدّم له وراجعه: عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا وبيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- فتح القدير للشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، ط ١، دمشق وبيروت ١٤١٤هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، ط ١٧، دار الشروق، بيروت والقاهرة ١٤١٢هـ.
- القسم في القرآن الكريم، للدكتور حسين نصار، ط ١، دار الثقافة، القاهرة ٢٠٠١.
- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

- الكتاب لسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.
- الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ.
- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور علي دحروج، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ١٩٩٦.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
- الكليات للكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- اللباب في علوم الكتاب للنعماني (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
- لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط ١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢.
- مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨١هـ.
- محاسن التأويل للقاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
- معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح الشلبي، ط ١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

- مفاتيح الغيب للرازي (ت ٦٠٦هـ)، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٠هـ.
- مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط ١، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت ١٤١٢هـ.
- المفصَّل في تفسير الجلالين للدكتور فخر الدين قباوة، ط ١، دار لبنان ناشرون، بيروت ٢٠٠٩.
- المفصَّل في صنعة الإعراب للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د. علي بو ملحم، ط ١، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٣.
- المقاييس في اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط ٢، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨.
- المقتضب للمبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

✿ ✿ ✿



فهرس السُّور المدروسة بحسب ترتيبها في المُصحف الشَّريف




فهرس المُحتوى

✿ ✿ ✿

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

Email: kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

ISBN 978-9933-29-171-6

9 789933 291716